

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

مراجعة
عماد أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة

الجزء الثالث من المجلد السابع

٣٠



تونس



بيروت

فهرس الجزء الثالث من المجلد السابع

الصفحة	الموضوع
	الفصل السابع عشر - ثورة الأراضى الوطيفة (١٥٥٤ - ١٦٤٨)
١	١ - مسرح الأحداث
٦	٢ - مار جريت بارما (١٥٥٩ - ١٥٦٧)
١٤	٣ - دوق الغافى الأراضى الوطيفة (١٥٦٧ - ١٥٧٣)
٢٣	٤ - ركويسانس ودون حيوان (١٥٧٣ - ١٥٧٨)
٢٩	٥ - بارما وأورانج (١٥٧٨ - ١٥٨٤)
٣٤	٦ - النصر (١٥٨٤ - ١٦٤٨)
	الفصل الثامن عشر - من روبنز إلى رامبرانت (١٥٥٥ - ١٦٦٠)
٤٢	١ - الفلمينكيون
٤٤	٢ - الفن الفلمينكى
٤٨	٣ - روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠)
٦١	٤ - فاندريك (١٥٩٩ - ١٦٤١)
٦٦	٥ - الاقتصاد الهولندى
٧٠	٦ - الحياة والأدب فى هولنده
٧٥	٧ - الفنون الهولندية
٨٠	٨ - فرانس هالس (١٥٨٠ - ١٦٦٦)
٨٤	٩ - رامبرانت هارمنز فان رين (١٦٠٦ - ١٦٦٩)
	الفصل التاسع عشر : ظهور دول الشمال (١٥٥٩ - ١٦٤٨)
٩٧	١ - الدنمرك دولة عظمى

(٥)

الصفحة	الموضوع
	٢ - السويد (١٥٦٠ - ١٦٥٤)
١٠٠	١ - المذاهب المتصارعة (١٥٦٠ - ١٦١١)
١٠٤	٢ - جوستاف أدولف (١٦١١ - ١٦٣٠)
١٠٧	٣ - الملكة كريستينا (١٦٢٢ - ١٦٥٤)
	٣ - بولنده تكفر عن ذنبا (١٥٦٩ - ١٦٤٨)
١١٤	١ - الدولة
١١٨	٢ - المدنية
	٤ روسيا المقدسة (١٥٨٤ - ١٦٤٥)
١٢٣	١ - الشعب
١٢٦	٢ - بوريس جودونوف (١٥٨٤ - ١٦٠٥)
١٢٩	٣ - زمن الشدائد (١٦٠٥ - ١٦١٣)
	الفصل العشرون - الإسلام يتحدى (١٥٦٦ - ١٦٤٨)
١٣٤	١ - الأتراك
١٤٠	٢ - معركة ليبنتو
١٤٥	٣ - اضمحلال السلاطين
١٤٨	٤ - الشاه عباس الأكبر (١٥٨٧ - ١٦٢٩)
١٥٤	٥ - فارس تحت حكم الأسرة الصفوية (١٥٧٦ - ١٧٢٢)
	الفصل الحادى والعشرون - هرجمبون (١٥٦٤ - ١٦٤٨)
١٦٦	١ - الأباطرة
١٦٩	٢ - الإمبرطورية
١٧٦	٣ - الأخلاق وآداب السلوك

الصفحة	الموضوع
١٨٠	٤ - الآداب والفنون
١٨٧	٥ - المذاهب المتصارعة
	٦ - حرب الثلاثين سنة
١٩٥	١ - طور بوهيميا (١٦١٨ - ١٦٢٣)
١٩٩	٢ - فالنشتين (١٦٢٣ - ١٦٣٠)
٢٠٤	٣ - قصة جوستاف البطولية (١٦٣٠ - ١٦٣٢)
٢٠٩	٤ - لإنحلال (١٦٣٣ - ١٦٤٨)
٢١٥	٧ - صلح ويستفاليا
	الفصل الثاني والعشرون - العلم في عصر جاليليو (١٥٥٨ - ١٦٤٨)
٢٢٢	١ - الخرافة
٢٢٩	٢ - إنتقال المعرفة
٢٣٨	٣ - أدوات العلم ومناهجه
٢٤٢	٤ - العلم والمادة
٢٤٨	٥ - العلم والحياة
٢٥١	٦ - العلم والصحة
٢٥٥	٧ - من كوبرنيكس إلى كبلر
٢٥٩	٨ - كبلر (١٥٧١ - ١٦٣١)
	٩ - جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٣)
٢٦٤	١ - الفيزيائي
٢٦٨	٢ - الفلكي
٢٧٣	٣ - في المحاكمة
٢٨٠	٤ - الشيخ الجليل

(و)

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث والعشرون - الفلسفة تولد من جديد (١٥٦٤ - ١٦٠٠)
٢٨٣	١ - الشكا كون
٢٨٨	٢ - جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠)
٣٠٠	٣ - فانيي وكبائلا
	٤ - الفلسفة والسياسة
٣٠٤	١ - جوان دي قاريانا (١٥٣٦ - ١٦٢٤)
٣٠٩	٢ - جان يودين (١٥٣٠ - ١٥٩٦)
٣١٤	٣ - هوجو جرو شيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥)
٣١٨	٥ - الكاهن الايقورى
٣٢٠	٦ - رينيه ديكارث (١٥٩٦ - ١٦٥٠)
٣٤٤	المراجع

فهرس الصور

٣٣٨	١ - فرانس هالس (ص ٨٠)
٣٣٩	٢ - ايتوني فاندليك (ص ٦٠)
٣٣٩	٣ - سجادة عجمى - متحف المتروبوليتان بنيويورك (ص ١٦٤)
٣٤٠	٤ - امستيفن باثورى - ملك بولنده (ص ١١٦)
٣٤١	٥ - جامع السلطان أحمد - القسطنطينية (١٣٩)
٣٤١	٦ - شاعر يجلس في الحقيقة باصفهات (١٦٠)
٣٤٢	٧ - الشاه عباس الأكبر (ص ١٤٨)
٣٤٣	٨ - مدخل ميدان مسجد الشاه - اصفهات (ص ١٥٢)
٣٤٣	٩ - حالبليو - متحف الفن بفلورنس

الفصل السابع عشر

ثورة الأراضى الوطية

١٥٥٥ - ١٦٤٨

١ - مسرح الأحداث

في يوم ٣٥ أكتوبر ١٥٥٥ نقل الإمبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم في الأراضى الوطية إلى ابنه فيليب ، وفي السادس والعشرين ، وأمام الجمعية التشريعية في بروكسل ، تلقى فيليب أيمان الولاء ، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبع عشرة وإمتيازاتها ، وفق ما تقضى به التقاليد والمعاهدة والقانون ولقد هيأت هذه العهود والمواثيق المتبادلة المسرح لاحدى المسرحيات الكبرى في تاريخ الحرية .

وكان المشهد معقدا . كانت الأراضى الوطية آنذاك تضم بلجيكا الحالية وملكة هولنده القائمة الآن . ولم تكن الهولندية - وهى أصلا إحدى اللهجات الألمانية السائدة في وهاد شمال ألمانيا والأراضى الوطية - هى اللغة التى تتحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهى هولنده ، زيلنده ، أوترخت ، فريزلند ، جرونجن ، أوفرييسل . حايلرند ، فحسب ، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هى فلاندرز ، برابانت ، مكلين . لمبرج) فى شمالى د بلجيكا ، . على حين كانت د الوالون ، - وهى إحدى اللهجات الفرنسية - هى اللغة التى يتحدث بها الأهالى فى ست مقاطعات جنوبية (هى أرتوا ، وألون ، فلاندرز ، كمبراى ، تورنى ، اينو ، نامور) . وكانت هذه المقاطعات كلها ، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة ، تحت حكم آل هابسبرج د وكانت الكاثوليكية^(١) هى ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالى فى ١٥٥٥

ولكن - كاثوليكييتهم - كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذي نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الرمان، والذي كانت تدين به رومه في عصر النهضة بصفة عاهة، وليست من ذلك النوع الكشيب المتشدد من الكاثوليكية الذي ساد في أسبانيا لعدة قرون كانت تحارب فيها المسلمين «الكفار»، وبعد ١٥٢٠ تسربت اللوثرية ومذهب القائلمين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا. وحاول شارل الخامس أن يقصى على غارات هذه المذاهب الغربية التي اقتحمت عليه كاثوليكييته، بأدخال محاكم التفتيش البابوية أو الأسقفية، وبذشر أعلانات تتوعد بأشد العقوبة أى إنحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة. ولكن قل أن نفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو ١٥٥٢ من قوته. وفي روتردام ١٥٥٨ تمكن حشد من الأهالى من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الأعدام حرقا. فجزع فيليب لتفاقم الهرطقة وجدد نشر الأعلان عن العقوبات .. وساد الخوف من أنه يعتزم إدخال محاكم التفتيش الأسبانية بكل ما فيها من قسوة ونسكال.

كان مذهب كلفن يلسم كل الالتسام مع عنصر الروح التجارية «المركنتلية» فى النظام الاقتصادى وكان ثغرا أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسى لتجارة شمال أوروبا، وكانا يغبضان بالحياة بفضل التصدير والإستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية، حتى أن التأمين وحده عاد بأوفر الثراء على ٦٠ من وكلائه (٢). وجرت فى أنهار الراين وماسى وأيسل - وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوات - جرت فى هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل، وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات فى بروكسل وغنت وايرس وتورنى وفالنسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم. ونظر رجال الأعمال الذين تحكوا فى هذه المدن بعين الأجلال والأكسار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسى والاجتماعى والروحى، ولكتهم لم يسيغوا سلطانها الكهنوتى بأهته ونظامته. كما أحبوا

الدور الذي تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين ، في إدارة المجمع والسياسة الكلفنية . وكرهوا بصفة أخص الضرائب التي فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضي الوطية .

ووقع على الفلاحين أفدج الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة . ذلك أن معظم الأراضي كان ملكا لذوى النفوذ والمكائة الذين كانوا أقرب شبا بأمراء الاقطاع في ألمانيا وفرنسا ، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الإستقلال . فكان فيليب دى مونوارنسى ، كونت هورن ، يمتلك أراضي شاسعة في المقاطعات الجنوبية . كما كان لكونت اجرون لامورال ، ضياح واسعة في فلاندرز ولكسمبرج ، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافاربه ، وحارب في عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أثيرا لدى شارل وفيليب ، وهو الذي قاد جيش فيليب إلى النصر في سانت كوربن (١٥٥٥) . وأظهر في قصره الفخيم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ماورطه في الدين . ونظر مثل هؤلاء الرجال ، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنًا ، نظروا في شره ونهم إلى ثروة الكنيسة ، وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أتروا بالاستيلاء على أملاكها (٢) . وإتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعا لو أنه اقتطع من - أملاك الكنيسة أجزاء أمعقولة بخصصها لقيادات عسكرية . وبذلك تخلق ، أسلحة فرسان رائعة . . . في مكان هذه الجماعة الحاملة من الأيقوريين المنغمسين في ملذات الطعام والشراب والذين لاشغل لهم إلا التسييح (٣) .

أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان وليم ناسو ، أمير أورانج وكان للأسرة أملاك شاسعة في المقاطعة الألمانية ديس ناسو ، وفي الأراضي الواقعة حول ويزبادن ، وكذلك في الأراضي الوطية ، على حين اشتق لقب الأسرة من إمارة أورانج الصغيرة في جنوب فرنسا . ولما كان وليم قد رأى النور في دلتنبرج الألمانية (١٥٣٣) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره ، وحينئذ انتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق في أملاك ابن عمه رينيه . وقد أعجب به شارل الخامس ، وزوجة من آن.

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخي عن العرش (١٥٥٥) وأوفده فيليب — وكان ولیم آنذاك شابا غض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين ، ولكنه كان يتقن الفلمنيكية والألمانية والأسبانية والفرنسية والإيطالية — بين مبعوثيه للمفاوضة في عقد صلح كاتو — كمبريس ، وهناك تميز ولیم بسداد الرأي وقوة الحججة وشدة الحرص في الكلام حتى لقبه الفرنسيون « بالصامت » . وعينه فيليب عضوا في مجلس الدولة ، وفارسا من فرسان الجزة الذهبية ، ونائبا للملك في هولنده وزيلند وأوترخت . ولكن ولیم اختط لنفسه نهجا لم يغتفره له فيليب قط .

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا في شخصه كما نعم بوفرة المال ، وكان فارع الطول رياضيا نحيل القوام ، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه . وكان الاخفاق حليفه قائدا عسكريا ، أما في مجال التدبير أو التخطيط السياسي فإن إصراره المقرون بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم نقائصه ، شخصا آخر يقف في وجه أعتى القوى السياسية والدينية في أوروبا . وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش ، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم . واتهمه أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السيامية^(٥) . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن كل الرعاء في هذا القرن استخدموا الدين — أداة للسياسة (*) .

وعاب عليه الكثيرون تعدد زيجاته . فإنه عند وفاة زوجته الأولى أجرى مفاوضات للزواج من « آن » ، أخرى ثرية ، هي ابنة موريس أمير مكسونيا البروتستانتى ، وعقد قرانه عليها وفق الطقوس اللوثرية في ١٥٦١ ، ولكنه لم يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام ١٥٧٣ . وأصابته آن بعض لومة من الجنون في ١٥٦٧ ، فاحتجزت في معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها .

(*) أن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية أو تولوا حمايتها أو عيروها ، قل أن كان لديهم في قرارة أنفسهم شيء منها ، مولير^(٦) .

وكانت لا تزال على قيد الحياة حين حصل ولیم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شارلوت البوربونوية ، من الأسرة المالكة الفرنسية (١٥٧٥) ، وكانت قد هربت من دير للراهبات واعتنقت مذهب الاصلاح ، وتوفيت شارلوت ١٥٨٣ . ولبس ولیم الحداد عليها لمدة عام ، تزوج بعده للمرة الرابعة من لوزدى كولينى ابنة أمير البحر اللى كان قد قضى نجه في منبجة سانت برثلیميو . وعلى الرغم من هذه الزيجات - وربما كان بسببها - كان ولیم عنيا بما لديه من أراضى ، خاوى الوفاض من المال . وفى ١٥٦٠ بلغت ديونه نحو مليون فلورين^(٧) . وغلست عليه ذات يوم نزعة إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طبائخيه^(٨) .

وتخبط فيليب بشكل هدام فى التعامل مع النبلاء فى الأراضى الوطیئة . أن أباه الذى نشأ وترعرع فى بروكسل ، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم فى حزم . على حين أن فيليب ترى فى أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية ، وعز عليه أن ينجنى لهؤلاء الأقطاب فى لباقة وسماحة ، ويحترم عاداتهم وديونهم ، بل أنه عبس وامتاء من أسرافهم وتبذيرهم وأدمانهم على الشراب ، وتبذلم مع النساء ، وتهافتهم عليهن . وفوق هذا كله لم يتعمهم فيليب دعاواهم فى الحد من سلطانه . على أنهم بدورهم كرهوا منه كبريائه الكشييب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسباب فى المناصب التى تدر ربحا فى الأراضى الوطیئة ، وترويد مدنهم بحاميات أسبانية . وعندما طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال ، وهم الذين يشككون الجمعية التشريعية ، استمعوا - عن طريق المترجمين - فى فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلعت فى الخزينة عجزا كبيرا ، وتولاهم الجرع لمطالبته بمليون وثلاثمائة ألف فلورين ، وبضريبة أخرى قدرها ١ / على العقارات ، و ٢ / على الأموال المنقولة ، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب ، ولكنهم أقروا فقط بمبالغ قدروا أنها تكفى لتغطية النفقات الجارية . وبعد ثلاث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطلب منهم ثلاثة ملايين جيلدر ، فوافقوا ، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضي الوطيفة . فأقر هذا الشرط ، ولكنه محاماً في هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء إحدى عشرة أسقفية جديدة في الأراضي الوطيفة ، على أن يعين في هذه الأسقفيات رجالاً يرتضون تنفيذ القوانين التي سنّها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا في ٢٦ أغسطس ١٥٥٩ - إلى غير رجعة إلى الأراضي الوطيفة - كانت قد تشكلت خطوط الصراع الاقتصادي الديني الكبير .

٢ - مارجريت بارما

١٥٥٩ - ١٥٦٧

كان فيليب قد عين مارجريت دوقة بارما نائبة له . وهي ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلنسيكية . وكانت قد نشأت وترعرعت في الأراضي الوطيفة ، وعلى الرغم من طول مقامها في إيطاليا ، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية . إن لم يكن بالهولندية كذلك . ولم تكن صيقة الأفق ولا متعصبة ، ولكنها كانت كاثوليكية وورعة ، حرصت على أن تغسل في الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتي عشرة من العذاري وتمنحهن مهور الزواج . وكانت مارجريته امرأة قديرة عطوفة ، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة .

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مارجريت . وكان أجمونت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدولة لديها . ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين في المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور . وفي هذا الثالث الناشء برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس . المعروف في التاريخ باسم الكاردينال دي جرانفل . وكان رجلاً كريم الخلق وفقاً لفسفنه وتفكيره ، وكان ينزع -

كما تنزع مرجريت - إلى الوسائل السلمية في معالجة الهرطقة ، ولكنه كان مخلصاً للكشلكة والملكية إلى حد تعذر معه أن يسيغ الانشقاق أو الخلاف الدينى . وقد غلت أيدي الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أى إجراء هام إلا بموافقة الملك ، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع . وضحي الكاردينال بشجيبته فى سنبيل طاعة الملك . وعارض تعدد الأسقفيات سرا ، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفى لسبع عشرة مقاطعة . ولحظت الأقلية البروتستانتية فى استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محاكم التفتيش البابوية ويتشددون فى إجراءاتها . وفى مارس ١٥٦٣ كتب أورانيج وأجمونت وهورن - وهم أنفسهم كاثوليك - كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانهك حرمة الحقوق الإقليمية التى تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها ، ورأوا أن الكاردينال مسئول عن الأساقفة الجدد ، وحضوا على عزله من منصبه . ولم تستغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة ، وناقت إلى شىء من التراضى مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوى أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعى ، وأخيرا فى سبتمبر ١٥٦٣ أوصت هى كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر . وبعد مقاومة طويلة خضع الملك ، ودعا التيسيس العظيم إلى التمتع بأجازة ينقطع فيها عن عمله . وغادر جرانفل بروكسل فى مارس ١٥٦٤ ، ولكنه ظل واحدا من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك . وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت ، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو ، ويبدو أن نائبة الملك ، مرجريت ، شاركت فى الغنائم^(٩) .

وانشرت محاكم التفتيش ، وكان فيليب يراقبها وهو فى أسبانيا ، ويشجع على استمرارها ، ويبحث إلى مرجريت بأسماء الهرطقة المشتبه فيها . وما كاد يمر يوم دون إعدام . وفى ١٥٦١ أحرق جلين دى موار فى أودينارد ، وأحرق توماس كولبرج فى تورنى ، وقطع أحد أنصار تجديد العهد أربا حتى

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدىء ، فى حضور زوجته التى قضت نحبها فزعا من هول المنظر^(١٠) وأثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران لبلانس فهاجم كاتدرائية تورنى ، أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المدبح وانتزع القربان المقدس من يد القسيس ووطئه بقدميه ، وصاح فى جمهور المصلين : أيها المظلون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟ وعذب الرجل فأحرقت يده اليمنى وقدمه حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار وشوى على محصل حتى لفظ أنفاسه ، وفى ليل أحرق روبرت أوجيبه وزوجته وأبناؤه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفا وثنيا^(١١) .

أما توركيمادا^(١٢) الأراضى الوطيشة أول قاض للتحقيق وعضو فى محكمة التفتيش فى أسبانيا ، يضرب به المثل فى القسوة والتعصب الذمى . فهو بيتر تيتلمان الذى بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً أتهمه معه مجلس مدينة بريجز - وكه من الكانو ليك - لدى مرجريت ، بأنه متوحش انتزع الناس من بوتهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريد هو ، وحكم عليهم بالإعدام ، كما أن القضاة فى الفلاندرز وجها إلى الملك فيليب كتابا مشيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة . وطالبت مرجريت فى شىء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتدرع « بالحزم والاعتدال » ، ولكن الإعدام لم يتوقف . وأيد فيليب تيتلمان ، وأمر مرجريت أن تنفذ دون رحمة ولا ابضاء القرارات التى أصدرها أخيراً بجمع ترنت (١٥٦٤) . واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات ، وأوقف نشرها .

(١) ليس لنا من مصدر لمثل هذه الأحداث إلا المراجع البروتستانتية المقتبسة فى

كتاب موناي (قيام الجمهورية الهولندية) ١ - ص ٢٨٣ - ٢٩٠ .

(٢) Torquemada ١٢٢٠ - ١٤٩٨ راهب دوميكاني .

وكان وليم أورانج تواقاً إلى الأبقاء على الأراضي الوطيئة متحدة في سبيل المحافظة على حرياتهما السياسية التقليدية ، فأقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه . فأعلن في مجلس الدولة ، أن الملك يخطيء إذا ظن أن الأراضي الوطيئة سوف تحتل وتساند هذه المراسيم الديموية بلا حدود . ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتي الكاثوليكية ، فاني لأقر محاولة الأمراء أن يتحكموا في ضمائر رعاياهم ، ورغبتهم في أن يسلبوهم حرية العقيدة^(١١) ، وانضم الكاثوليك إلى البروتستانت دافع هذه المراسيم بالظلم والطغيان^(١٢) وأرسل أجمونت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم ، وعززت مرجريت هذا المطلب سرّاً . ووجه أساقفه ايرس ونامور وغنت وسانت أو مر ملتسماً إلى فيليب (يونية ١٥٦٥) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم ، وأن يوجه النصح إلى الشعب في شيء من الرفق والحب الأبوي ، لا بالقساوة الشرعية^(١٣) ، ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحي بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته^(١٤) . وفي أكتوبر ١٥٦٥ أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش :

أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق اجراءاتها وأحكامها كما كان الحال من قبل ، وكما تقتضيه كل القوانين وصعياً كانت أو الهية . أن هذا يقع من نفس أحسن موقع . أريد منكم أن تنفذوا أوامري . أعدموا كل المسجونين ، ولاتركوا لهم بعد اليوم فرصة اللافلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فاني استبدل بهم رجالاً أكثر جرأة وحماسة^(١٥) .

وأذعنت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملاً (١٤ نوفمبر ١٥٦٥) . وانسحب أورانج واجمونت ثانية من مجلسها . ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم : وانهالت نشرات البروتستانت واعلاناتهم التي يستنكرون فيها الاضطهاد . واشتم التجار

الأجانب رائحة الثورة في الجو . فبدأوا ينزحون من الأراضي الوطیئة ، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة ، وخيم شبح الموت على أنتورب وفر كثير من البروتستانت في الأراضي الوطیئة إلى إنجلترا وألمانيا . وفي إنجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التي نافست « المقاطعات المتحدة » في القرن السابع عشر ، وقادت الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتي خفية . وفي ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء — لويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر للشهم اوليم) ، وفيليب فان مارنكس أمير سائت ألديجوند ، وأحوه جان فان مارنكس أمير تولوز ، وهندريك كونت بردرود ، وغيرهم اجتمعوا في قصر كولبرخ في بروكسل ، وحرروا وثيقة ، يستنكرون فيها لإدخال محاكم التفتيش إلى الأراضي الوطیئة ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد . وفي أبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها « ملتمسا » بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم في الأراضي الوطیئة ، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك . وأجابت مرجريت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك ، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما في مقدورها لتخفيف من مفعولها . ولما رأى أحد أعضاء مجالسها شدة فزعها من عدد مقدمي الظلامة وقوة عزمهم طمأنها بقوله « عجباً يا سيدتي ، هل تخشين يا صاحبة العظمة المتسولين ؟ وتقبل المتحالفون هذا اللقب تحدياً . وارتدى كثير منهم البدلة الرمادية الخشنة ، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك . وأصبحت عبارة « فليحي المتسولين ، صيحة الحرب في الثورة . ولمدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكوا نارها .

وأي بلغت مرجريت نبأ « الملمس » ، إلى فيليب ، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبي كبير . وجددت مساعيها لحمله على الاعتدال ، فكان جوابه يحمل في

الظاهر معنى الترضية (٦ مايو ١٥٦٦) ، وعبر عن أمه في إمكان قمع الطرطقة دون أراقة مزيد من الدماء ، ووعده بزيارة الأراضي الوطيئة في موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مومورنس . والبارون مونتيني ، ومركيز برحون ، لتعزيز رجاء مرجريت . فأستقبلهم فيليب استقبالا حسنا . وفي ٣١ يوليه كتب إليها بموافقة على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية في الأراضي الوطيئة ، وبأنه يصدر عفوا عاما عن توصى هي بالعتفو عنهم .

وانتهز الكلفنيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد في الأراضي الوطيئة فرصة هذا الهدوء في العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجا من إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات - الرهبان السابقون ، علماء اللاهوت ، صانعو القبعات ، ممشطو شعر الخيل ، دباغو الجلود - يخطبون في الجموع الغفيرة من النساء والرجال ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون « فليحي المتسولون » . وبالقرب من ثورني ، ألقى أمبروزويل الذي كان قد درس مع كيلفن - ألقى موعظة في ستة آلاف شخص (٢٨ يونيو ١٥٦٦) ، وبعد ذلك بيومين وفي نفس المكان . خطب قسيس آخر في عشرة آلاف ، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفا (١٦) . وبدأ أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت . وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس في أيام الأحاد لأنهم هرعوا إلى جمعيات البروتستانت . وإذا سمع الناس في مقاطعة هولندة بأن بيتر جبريل الخطيب المفوه سوف يلقي موعظة في أوفرين بالقرب من هارلم ، هرع آلاف البروتستانت إليه ، وهزوا أجواز الفضاء في الحقول بمزاميرهم . وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفا ، وقال بعضهم ثلاثين ألفا ، وكان كل الرجال مسلحين تقريبا . وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها ، ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح . وبلغ الاضطراب في أنتورب حدأ

ساعات معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير . وطلبت مرجريت إلى ولیم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت هناك . فعمل على تهدئة الأهوار بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحي وإلا يحمل المجتمعون سلاحا .

وفي الشهر نفسه (يولييه ١٥٦٦) اجتمع بقيادة كونت لويس ناسوا ألقان من المتسولين ، في سانت تروند ، في أسقفية لياج ، وسط هذا الصخب البهيج ، وضعوا الخطط للمضى قدما في قضيتهم . وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشاركوا بينهم جيشا بهب لنجدة البروتستانت في الأراضي الوطيئة إذا هوجموا . وفي ٢٦ يولييه قدم لويس وأثنى عشر آخرون ، وهم في زى المتسولين ، إلى مرجريت ، طالبا بعقد الجمعية العمومية ، وأن تحكم هي نفسها في نفس الوقت ، بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن ، ولما كان ردها ملتويا غير واضح فأنهم لمحووا إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية ، ومن ثم شرع لويس ، بالواطؤ مع أخيه الأحرص منه . ولهم ، في تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة في ألمانيا (١٧) .

وفي ٩ أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذي قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشيء ، وفي ١٣ أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا (١٨) . وفي ١٤ أغسطس اقتحمت جمهرة من البروتستانت بتجريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية ، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف . وفي نفس الأسبوع قامت جموع شبيهة بمثل هذه الأعمال في ايز وكورتراي وأودينارد وفالنسيان . وفي يومي السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير السكندرية الكبرى في أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصلبان وغيرها من الصور ، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤس القربان والأوعية المقدسة ، وفتحوا

الأضرحة وجردوا الجثث من حلبيها ، وشربوها النيذ المقدس ، وأحرقوا كتب القدامس الثمينة ، ووطئوا بأفداهم التحف الفنية . وأرسلوا في طلب السلام والحبال ، فتنساقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة . واخترق الجمع أنثورب وهم يهتفون منتصرين ، وحطموا الصور والزخارف في ثلاثين كنيسة وديرا ، وأحرقوا مكاتب الرهبان ، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار (١٩) ، ولما ترامت أنباء هذه الضراوة الكلفنية، إلى تور في إنطلقت نشرة تحطيم الصور المقدسة من عقابها هناك، وأعمل السلب والنهب في كل الكنائس . وفي الفلاندرز وحدها جردت ٤٠٠ كنيسة من الصور . وفي كولبرخ أشرف السكونت المبهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرايين المقدسة (٢٠) . وفي جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائق الخبز على شوكلات (٢١) . ومن الفلاندرز أمتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية ، إلى امستردام وايدن ودلفت وأوترخت ، ثم إلى جرونينجن وفريزاند . واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه . ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم إلا أيسر الأذى والضرر . ذهبوا إلى أن تحطيم التماثيل والصور أقل أجراما من إحراق الأحياء ، الهراطقة ، .

وخارت قوى مرجريت بارما أمام العاصفة . فكتبت إلى فيليب تقول : أن أى شيء وكل شيء محتمل في هذا البلد فيما عدا العقيدة الكاثوليكية ، (٢٢) . وبات فيليب يتحين القرصة للانتقام . ولكن مرجريت التي تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات . ف وقعت في ٢٣ أغسطس ، مع ممثلي المتسولين ، إتفاقا تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية في الأماكن التي كانت تمارس فيها بالفعل ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وإلا يحمل البروتستانت سلاحا خارج بيوتهم . ووافق ممثلو المتحالفين على حل د عصبتهم ، إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق . ونوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت .

ولكن أيا من وليم أورانج ومالك أسبانيا لم يقنع بهدوء الحال . فإن وليم كان يرى في البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضي الوطیئة ، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال كاثوليكيًا اسمًا فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية ، ونظم وسائله الخاصة للتجنس ، وقصد (٢٢ أبريل ١٥٦٧) إلى ألمانيا يلتبس المدد من الرجال والمال . وبعد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألفا أسبانيا ، مفوضًا من الملك فيليب . في جمع ما يلزم من القوات لاستخدامها في الانتقام من المشاعين الكلفنيين ، والقضاء بلا هوادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية في الأراضي الوطیئة .

٣ - دوق ألفا في الأراضي الوطیئة

١٥٦٧ - ١٥٧٣

هو فرناندو ألفارز دى توليدو ، دوق ألبا أو ألفا ، وكان آنذاك في التاسعة والخمسين من العمر ، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو : طويل القامة ، نحيل القوام ، ذوعينين سوداوين ، وبشرة صفراء ، ولحية بيضاء فضية ، وكان قد ورث ، وهو في سن العشرين ، لقبه السلامع الذائع الصيت ، وضياعه الشاسعة ، وبدأ العمل العسكري في سن مبكرة ، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة . وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمع مغتبطًا إلى مشورته وكان حكمه في هذه الساعة العصبية هو ما يقضى به جندي درج على النظام الأسباني والورع الأسباني : اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة . فإن أى تنازل بقوى المعارضة . وأطلق فيليب يديه ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، وهناك جمع أساسًا من الحاميات الأسبانية في نابلي وميلان صفوة الجند ليشكل جيشًا قوامه عشرة آلاف رجل ، ألبسهم أنغر الشياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات

الهوى أحسن اختيارهن وأعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب ، وعبر برحندي والورين ولوكسمبرج. وفي ٢٢ أغسطس ١٥٦٧ دخل بروكسل وتلقاه اجهنوت في كل الخضوع والخشوع . وقدم له جوادين نادرين هدية . ولقيته مرجريت بعروها الأسي والأسف. وهى تشعر بأن أخاها حل محلها وفرض سلطانه عليها فى نفس الوقت الذى كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً . وأحتجت مرجريت عندا أقام ألفا حاميات أسبانية فى كل المدن . وأجاب فى فتور دى على استعداد لا احتمال كل الخزي والوزر ، .

واستأذنت مرجريت الملك فيليب فى الاستقالة من منصبها ، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاً سخياً يضمن لها الهناءة. وفى ديسمبر رحلت عن بروكسل إلى موطنها فى بارما، وقد حزن من أجلها الكاثوليك الذين أجلوها واحترموها، والبروتستانت الذين تنبأوا بأنه سيمتضح وشيكاً أن أشد قساوتها كانت ليناً وإعتدالاً إلى جانب وحشية ألفا المنتظرة .

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد فى قلعة أنتورب ، وأعد نفسه لتطهير الأراضى الوطية من الهرطقة ، ودعا اجهنوت وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتهما . ثم ألقى القبض عليهما وأرسلهما فى حراسة مشددة إلى أحد الحصون فى غنت (٧ سبتمبر) وعين د مجلس القلائل ، الذى أطلق عليه البروتستانت الجزعون من جديد اسم د مجلس الدم ، وكان سبعة من أعضائه التسعة من الأراضى الوطية واثنان من الأسبان، وكان لهدين العضوين فقط حق التصويت . واحتفظ ألفاً لنفسه بالقرار الحاسم فى أى موضوع يعنيه بخاصة . وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه فى معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية ، وإعتقالهم ومحاكمتهم سراً ، ومعاينة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء . وانبث الوكلاء للتجسس، وشجع المخبرين على الغدر بأقاربهم وأعدائهم وأصدقائهم وحظرت الهجرة ، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون ربانية عليها شنعاً (٢٣) . وحكم على كل مدينة مجزت عن قبح الثورة أو معاينة

العصاة بأنها مذنبه، وأودع موظفوها السجن أو فرضت عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو ١٥٠٠ في مضاجعهم ونقلوا إلى السجنون . وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة ، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجملة ، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (٢٤) . وفي شهر واحد - (يناير ١٥٦٨) أعدم ٨٤ شخصاً من سكان فالنسيان . وسرعان ما كان من العسير أن تجد في الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من مجلس القلائل ، . وندر أن كان في الأراضي الوطيفة من يجسر على الاحتجاج ، فإن أيسر النقد كان يعنى الإعتقال .

وأحس ألفا بأن نجاحه قد تلطخ وتضامل بعجزه عن إيقاع وليم أورانج في حبائله . وأصدر مجلس المتاعب قراراً بإتهام الأمير وأخيه لويس ، وزوج أخته كونت فإن دن برج ، والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء ، بتشجيع الهرطقة والثورة . وكان مونتيني لا يزال في أسبانيا ، فأودعه فيليب السجن . وكان ابن وليم ، وهو فيليب وليم كونت بورن طالباً في جامعة لوفان ، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا ، وهناك نشىء تنشئة كاثوليكية متحمسة ، وتبرأ من مبادئ أبيه . وصدر إعلان بأن وليم خارج على القانون ، أحل لآي إنسان قتله دون التعرض لعقاب قانون .

وعمل وليم أورانج على تنظيم جيش ، ووجه أخاه لويس إلى أن يخذو حذوه . واتمس العون من الأمراء اللوثرين فكبرتهم حسوا الإستجابة له ، ومن الملكة إليزابيث التي أمسكت عن مساعدته في حذر . وجاءته الأموال من أتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلشنج ، وأرسل إليه كل من الكونت فان دن برج وكولمبرخ وهو جستران ثلاثين ألف فلورين . وباع هو مجوهراته وأوانية الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر ، وجمع نحو خمسين ألف فلورين ، وتوافر الجنود ، لأن المرتزقة الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء في الحرب الدينية في فرنسا ، عادوا إلى ألمانيا مفلسين . وكان لزاماً أن ينتهج وليم سياسة التسامح . فكان

عليه أن يكسب اللوثرين والكلفنيين تحت لوائه ، كما كان عليه أن يؤكد
للكاثوليك في الأراضى الوطيئة أن عبادتهم لن تفس بسوء بتحرير البلاد من
ربهة أسبانيا .

ووضع أورانج خطة العمل لثلاثة جيوش فى وقت واحد ، قوة من
الهيجنوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربى ، ويقود هو جستران
جيشه ضد ماسترخت فى الجنوب ، ويقترح لويس ناسو فريزلند من ألمانيا فى
الشمال الشرقى . وصدت هجمات الهيجنوت وهو جستران ، ولكن لويس
انتصر على الجنود الأسبان فى هيلجرلى (٢٣ مايو ١٥٦٨) . وأمر دوق ألفا
باعداد أجونت وهورن (٥ يونية) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون
حراستهما وحماية مدينة غنت ، ليستفيد منهم . وتقدم بهذه الإمدادات إلى
فريزلند ، ودحر جيش لويس الذى أصابه الوهن فى جمنجن (٢١ يولية)
وأودى بحياة ٧٠٠٠ رجل وهرب لويس سبجا فى مصب نهر امز . وفى أكتوبر
قاد وليم جيشا قوامه ٢٥ ألف رجل إلى برابانت ، وقد عقد العزم على ملاقة
ألفا فى معركة حاسمة . ولكن ألفا بجيشه الأقل عددا والأحسن نظاما أحبط
خططه ، وتجنب اللقاء فى معركة ، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات فى مؤخرته
ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم . فقادهم إلى مكان آمن فى فرنسا
وسرحهم . ثم تنكر فى زى فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل
من مدينة إلى مدينة ، فراراً من القتل . وبهذه الحملات المشهومة الممتلئة بالسكوارت
بدأت « حرب الثمانين عاما » ، التى خاضتها الأراضى الوطيئة فى ثبات ومثابرة لم
يسبق لهما مثيل ، حتى قدر لها النصر فى النهاية فى ١٦٤٨ .

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو فى الميدان ، ولصكته كان خاوى الوفاض
إلى حد بعيد . وكان الملك فيليب قد دبر مع أصحاب المصارف فى جنوة أن
يمدوه بحراً بأربعمائة وخمسين ألف دوكت . ولكن القرصان الإنجليز أجبروا
السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموت ، وهناك وضعت الزابث يدها على المال ،
٣ - ٢ الحضارة

مع أرق الإعتذارات ، حيث لم تكن تسكره مساعدة ولیم مقابل هذا الثمن . عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء ويمثل المدن للاجتماع في بروكسل ، واقترح عليهم (٢٠ مارس ١٥٦٩) فرض ضريبة فورية قدرها ١٪ على الممتلكات وضريبة دائمة قدرها ٥٪ على أية عملية نقل للعقارات، وضريبة دائمة قدرها ١٠٪ على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات في العام الواحد فإن ضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة ، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات ، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة ١٠٪ إلى ١٥٧٢ ، والاكتفاء بضريبة الواحد في المائة ، وبمنحة قدرها مليوني فلورين سنويا لمدة عامين . ولكن حتى ضريبة الواحد في المائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أو ترخت دفعها . فأطبقت فرقة من الجنود على المنازل والممتلكات ، واستمرت المقاومة ، ورمى ألفا كل الأقليم بالحياة وألغى كل إعفائه وامتيازاته ، وصادر كل ممتلكات مكانه لصالح الملك .

وأن هذه الضرائب والإجراءات التي اتخذت لفرضها هي التي هزمت ألفا الذي لم يهزم حتى ذلك اليوم . وبات كل السكان تقريبا ، كاثوليك وبروتستانت ، يقاومونه ، في استياء يتفاقم أمره ، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التي بنت عليها الأراضي الوطیئة ازدهارها ورخاءها . ولما كان ألفا أبرع في الحرب منه في شئون المال فإنه انتقم لإستيلاء اليزابث على الأموال التي كانت في طريقها إليه من جنوة ، بالإستيلاء على الممتلكات الإنجليزية في الأراضي الوطیئة ، وحظر التجارة مع إنجلترا . وردت اليزابث على هذا بمصادرة بضائع الأراضي الوطیئة في إنجلترا ، وتحولت التجارة الإنجليزية إلى همبرج . وسرعان ما أحست الأراضي الوطیئة بوطة الكساد الاقتصادي . فأغلقت المتاجر أبوابها ، وازداد النعطل ، وفكر رجال الأعمال الأقوياء الذين احتملوا في صبر وتجهد شتى البروتستانت ونهب الكنائس ، ففكروا مليا وسرا في الثورة

وأخيرا مولوها . وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خسروا الإنهار الاقتصاد الوطني ، ألقبوا على ألفا ، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على تخريب البلاد (٢٥) ، بل أن البابا - ييوس الخامس الذي كان قد اغتبط أيما اغتباط بانتصارات ألفا ، نراه الآن يشاطر الكاردينال دي جراففل اسمه لقساوة ألفا (٢٦) . ويوصى بالعمو العام عن العصاة والهرطقة النادمين التائبين - ووافق فيليب على هذا الاجراء وأبلغ به ألفا (فبراير ١٥٦٩) ، واسكن الدوق طلب التمهّل ، ولم يعلن العفو إلا في ١٦ يولية ١٥٧٠ . وفي تلك السنة خلع البابا على ألفا القبعة والسيف المقدسين ، وأنعم د بالوردة الذهبية ، على زوجته (٢٧) ، كما أعدم فيليب موتيني الذي كان سجيننا - (١٦ أكتوبر ١٥٧٠) .

وفي نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة . وذلك أنه في مارس ١٥٦٨ قامت عصابة من البائسين المستميتين عرفوا باسم « المتسولين المتطرفين » ، وجهوا همهم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم ، وكانهم عقدوا العزم على مباراة « مجلس الدم » ، في وحشيته وفظائعه (٢٨) . وفيما بين عامي ١٥٦٩ - ١٥٧٢ ظهرت جماعة أخرى أطلقوا على أنفسهم اسم « متسولي البحر » ، وضعوا أيديهم على ١٨ سفينة ، و تلقوا عمولة من وليم أورانج ، وأغاروا على شواطئ الأراضى الوطیئة ، ونهبوا الكنائس والأديار ، وسيطروا على المراكب الأسبانية ، وزودوها ثانية بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة - بل حتى من لاروشيل النائية - التي كانت في يد الهيجونوت آنذاك . وأغار « متسولو البحر على أية مدينة ساحلية لا توجد بها حامية أسبانية ، واستولوا على المواقع الحصينة ، وبفضل قدرتهم على فتح السدود بات من أخطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم أو تصل إليهم . فلم يعد في مقدور ألفا أن يتلقى أية امدادات أو مؤن من البحر وهكذا عسّرت المدن الرئيسية في هولنده وزيلند وجلدراند وفريزلند آمنة محمية .

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج ، وقررت تزويده بالإمدادات من أجل الحرب (بولية ١٥٧٢) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفث وأعلن أنه « الأصلع الكلفني » ، وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته ، وفي تلك الآونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية « وليم ناسو ، التي أصبحت ، ولا تزال ، التريمة الوطنية في الأراضي الوطنية .

ومنذ لقي وليم أورانج التشجيع على هذا النحو جهز جيشا آخر وغزا برابانت . وفي نفس الوقت قام لويس ناسو ، بمعونة كوليني ، بأعداد قوة في فرنسا ، ودخل هيبوت ، واستولى على فالنسيان ومونز (٢٣ مايو ١٥٧٢) . وتقدم ألفا ليسترد مونز ، وهو يأمل بذلك أن يثنى فرنسا عن مساعدة لويس . وتقدم وليم جنوبا لنجدة أخيه ، وأحرز بعض انتصارات يسيرة ، ولكن سرعان ما استنفد ماله من مال ، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس ، وتسلاوا بقتل القساوسة (٢٩) . فثارت ثائرة الكاثوليك ، حتى أنه عندما اقترب جيش وليم من بروكسل وجد الأبواب موصدة والأهالي يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره ، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجيء الجنود ، وهم نيام ، بستائة جندي أسباني ، قتلوا من جنود وليم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهيئة أنفسهم للدفاع . واستطاع وليم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته ، إلى مكين في برابانت . وفي نفس الوقت قضى قتل كوليني ومذبحة سانت برتليو على كل أمل في العون من فرنسا . وفي ١٧ سبتمبر سقطت مونز في يد ألفا الذي هيا للويس وفلول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسه أذى . ولكن قائد جيش ألفا ، فيليب دي نوفارم ، شنق من تلقاء نفسه مئات من الأهالي ، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمان عال (٣٠) .

أن فشل استراتيجية وليم وافراط قواته التي يصعب قيادها ووحشية « المتسولين ، وفضائهم ، كل أولئك خيب آماله في توحيد الكاثوليك والكالفنيين واللوثريين ليقاوموا جميعا طغيان ألفا . فان « المتسولين » ، وكانوا

كلهم تقريبا كلفنيين متحمسين أبدوا عند الكاثوليك من ضروب الوحشية والضاوة ما أبدته محاكم التفتيش وبجلس الدم نجو الثوار والمهراطة . وفي كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليك إلا الخيار بين البكفنية أو الموت ، وكانوا يقتلون دون تردد ، وفي بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق ، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة^(٢١) . وأعدم كل من طرفي النزاع كثيرا من أسرى الحرب . وكتب مؤرخ بروتستانتى يقول :

في أكثر من مناسبة روتى الرجال يشنقون ... أخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى في صفوف الأعداء ... ووجد سكان الجزائر لذة وحشية في ضروب القسوة هذه ، ولم يعد الأسباني في نظرهم فردا من بنى الإنسان . وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب مسجون أسباني ، وثبته بالمسامير في مقدم السفينة ودعا الأهالى ليغرسوا أسنانهم فيه ، وفعل كثير منهم هذا في ارتياح وحشى^(٢٢)

أن هؤلاء المتسولين ، القساء القلوب هم الذين هزموا دون ألفا . وأخذ الدوق إلى شىء من الراحة بعد الحملات التى قام بها ، وورث أبنة دوق فدرىجو ألفارث دى توأيدو مهمة استعادة ومعاقبة المدين التى كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له . فبدأ ألفارث بمدينة مكليين التى أبدت أقل مقاومة ، حيث خرج القساوسة والأهالى فى موكب نادمين ، يرجون الصفح والابقاء على المدينة ، ولكن ألفا كان قد أمر باقتحام تكون فيه موعظة وعبرة . فظل جنود فدرىجو لمدة أيام ثلاثة ينهبون البيوت والأديار والكنائس ، ويسرقون الحلى والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة . ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام ، ويذبحون الرجال ويستبيحون النساء ، كاثوليك أو بروتستانت على حد سواء وفى طريق تقدمه إلى جلد رلند ، تغلب جيشه على الدفاعات الهزيلة فى زوتفن ، وقتل كل رجال المدينة تقريبا . وعاق بعضهم من الأقدام ، وأغرق خمسمائة منهم بربطهم زوجا زوجا ، ظهرا لظهر . والالقاء بهم فى نهر ايسل . واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة ، وحيث الأسبان الغزاة بموائد زخرت

بالوان الطعام ، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل في كل الأهالى في المدينة وتقدموا إلى هارلم ، وهى مركز كلفنى أبدي حماسا خاصا للثورة . وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعا مجيدا ، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها ، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر في الحصار ، فتصاعدت أعمال العنف ، وهلق كل من الطرفين أسراه على أعواد المشائق في مواجهة عدوه . وأثار المدافعون حتمق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس السكائوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك (٣٣) . وأرسل ولیم ثلاثة آلاف جندي لمهاجمة جيش دوق فدريجو ، ولكنهم أيبدوا وأخفقت كل محاولة لتخايص هارلم بعد ذلك . وفي ١١ يولية ١٥٧٣ ، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود ، استسلمت المدينة . ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٦٠٠ رجل أعدم معظمهم . كما أعدم ٤٠٠ من المواطنين المتزعمين ، أما بقية الأهالى فقد أبقى على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلد .

وكان هذا أحر انتصارات حكومة دوق ألفا وأهظها تكلفة . وهلك أكثر من اثني عشر ألفاً من أفراد الجيش الذى تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض . واستنزفت الحرب كل ما حصل من ضرائب بغیضة ، واكتشف فيليب الذى كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الأنافس والأرواح ، أن ألفا لم يكن غير محبوب لدى الناس خشب ، بل أنه كان كذلك ينفق أموالا طائلة ، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضى الوطیئة ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده . فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف نائر (٣٤) . ولكن الهراطقة كانوا في مثل القوة التى كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان ، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر ، وأن الملك فقد مقاطعتى هولنده وزيلنده تماما . وقدر أسقف نامور أن ألفا في سبع سنين ، ألحق من الأذى بالسكائوليكية أكثر مما ألحقه بها لوثر والسكلفنية في جيل بأسره (٣٥) . وقبلت

استقالة ألفا وغادر الأراضي الوطية (١٨ ديسمبر ١٥٧٣) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسنا . وقاد، وهو في سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (١٥٨٠) . ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة ، ولم يحفظ عليه حياته إلا ارضاعه اللبن من ثدى امرأة . وفاضت روحه في ١٢ ديسمبر ١٥٨٢ ، بعد أن عاش عاما على اللبن . ونصف قرن على الدم .

٤ - ركويسانس ودون جوان

١٥٧٢ - ١٥٧٨

وأرسل فيليب دون لويس دي ركويسانس ليحل محل ألفا ، وهو الذي كان منذ عهد قريب نائب الملك في ميلان . ودعش الحاكم الجديد لعدد الثوار والروح التي سادتهم ، فكتب إلى الملك : « لم أكن أدرك قبل وصولي كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة ، على حين أن جلالتم لم تستطع الإنفاق على أسطول واحد فقط . ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن الرجال الذين يقاثلون من أجل حياتهم وديارهم وأملآكهم وعقيدتهم الزائفة ، وجملة القول عن قضيتهم - يقنعون بالطعام دون أجور^(٣٧) . ورجا فيليب في أن يرخص له في إصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدين ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة في المائة على البيوع . ولم ير ولم أورانج في هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت ، ووسيلة جديدة لاستئصال البربر تستأنتية من الأراضي الوطية ، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة ، واستعادة امتيازات المقاطعات ، وانسحاب الأسبان من الوظائف المدنية والعسكرية . واستمرت الحرب . وفي معركة (١٣ أبريل ١٥٧٧) قضى نحبه كل من أخوى ولیم : لويس في سن السادسة والثلاثين ، وهنرى في سن الرابعة والعشرين .

وثمة حادثان شدا من أزر الثورة في هذه الآونة : أفلاس فيليب (١٥٧٥)

وموت ركويسانس في أثناء حصار زيركزي (٥ مارس ١٥٧٦) . عين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النموسى ، في هذا المنصب البغيض . ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج إلا في نوفمبر . وفي هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده ، في دلفت (٢٥ أبريل) ، قانون التهدة ، الذى خول وليم السلطة العليا فى البر والبحر ، وحق التعيين فى الوظائف السياسية . وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبي . وأهاب وليم ، من مركز السلطان الجديد ، بسائر المقاطعات أن تشارك فى طرد الأسبان من الأراضى الوطية . ووعد بحرية الفكر والعميدة للكاثوليك وللبروتستانت على حد سواء .

وربما لقى نداؤه بعض الاستجابة فى المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والنهب فى زيركزي ، ترمدوا (يولية) وبدأوا ، دون تمييز ، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت . ووجه إليهم مجلس الدولة فى بروكسل تأنيبا قاسيا ولكنهم تحدوه ، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون ، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها . فعرض وليم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد ، وجدد تعهده بالحرية الدينية . وتردد المجلس ، فأطاح به أهالى بروكسل ، وشكلوا مجلسا آخر تحت رياسة فيليب دى كروى الذى بدأ المفاوضات مع الأمير . وفى ٢٦ سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها وليم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان . واجتمع فى غنت فى ١٩ أكتوبر ، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت ، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون ، ولكن فى ٢٠ أكتوبر اجتاح المتمردون ماسترخت ، وفى ٢٨ منه ، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة فى حماية قوات وليم لهم ، ، د قانون التهدة ، الذى صدر فى غنت ، والذى اعترف بوام حاكما على هولنده وزيلنده ، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة ، واتفقوا على التعاون فى طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم . ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التى انعقدت فى بروكسل ، التوقيع على د قانون التهدة ، ، حيث اعتبرته اعلانا للحرب ضد الملك .

ودعم المتمردون مرة أخرى من حجج وليم ، ذلك أنهم في ٤ نوفمبر ١٥٧٦ استولوا على انتورب ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضى الوطيفة . وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وقتل منهم سبعة آلاف ، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة . وذبح الرجال والنساء والأطفال في طوفان من الدماء بأيدي الجنود وهم يرددون الصيحات : د سان جيمس ، أسبانيا ، الدم . الموت . النار . السلب ، النهب ، وطوال تلك الليلة عاث الجنود في المدينة الغنية ، وسلبوا كل بيت فيها تقريبا ، ورغبة في انتزاع الاعتراف بالذخائر الخبأة ، أصيلة أو زائفة ، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم ، وذبحوا الصبية وهم في أحضان أمهاتهم ، وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن . واستمر هذا العنف الأسباني ديومين ، حتى أتخم الجنود بالذهب والحلى والملابس الثمينة ، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه في الشوارع المكتظة بجثث الموتى . وفي ٢٨ نوفمبر صدقت الجمعية العمومية على « قانون التهذئة » ، الذي وضع في غنت .

وكان هذا نصرا مبينا أحرزه الأمير في الوقت المناسب . وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل ، أجاتت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكما إلا إذا وافق على « قانون التهذئة » ، وأعاد امتيازات المقاطعات ، وطرد كل القوات الأسبانية من الأراضى الوطيفة . وقضى دون جوان ، الباسل في ميدان المعركة ، القليل الخبرة بالسياسة والذي أعوزه الرجال والمال ، شتاءه متسلكما في لكسمبرج ، ثم وقع في ١٢ فبراير ١٥٧٧ « المرسموم الدائم » ، الذي أدى به إلى التهذئة وحريرات المقاطعات . وفي أول مارس دخل دون جوان بروكسل في احتفال رسمي ، وأغتبطت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف . ورحلت القوات الأسبانية . وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المخربة .

وكانت أحلام جوان أكبر من إمكانياته المالية . وبعدهما آثره وبطولاته في لينتو وتونس أوهنت العظمة اليائسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

البطولة . وعلى مقربة منه كانت ماري ستوارت الجميلة سجينته لدى الزابت العملاقة الرهيبة . فلم لا يحشد جوان جيشا وأسطولا ، ويعبر البحر ، ويطيح بعرش ملكة ويتزوج الأخرى ، ويصيح ملكا على إنجلترا وامسكتلنده ، ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكنيسة الأم ، أن فيليب الذي خشى الهوة بين الأموال والأحلام ، اعتبر أخاه ساذجا مخدوعا . وقدم جوان البرهان على ذلك ، فإنه غادر بروكسل فجأة (١١ يونية) ، على رأس فرقة من الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك ، وأنكر دقانون التهدئة ، . وبعد مفاوضات عقيمة مع جوان ، دعت الجمعية العمومية وليم إلى العاصمة ، ولدى وصوله (٢٣ سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك على أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يقود الأراضي الوطيئة إلى الحرية . وفي ٨ أكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به حاكما ولكن يمكن أن تقبل في مكانه أميرا من الأسرة المالكة . وفي ١٠ ديسمبر ١٥٧٧ انضمت المقاطعات كلها - عدا نامور - إلى اتحاد بروكسل ، . وطلب الأعضاء الكاثوليك في الجمعية العمومية ، الذين كانوا يخشون كلفنية وليم ، إلى ماتياس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكما على الأراضي الوطيئة . وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (١٨ يناير ١٥٧٨) ولكن أنصار وليم أغروا الحاكم الجديد بتعيين وليم نائبا له - ومن الوجهة الفعلية صاحب الأمر والنهي في الإدارة والسياسة .

وكان يمكن للتسامح المتبادل في الخلافات الدينية وحده إن يبقى على هذا الاتساع أو الترابط ، ولكن التعصب مزقه . فإن الكلفنيين في هولنده والكاثوليك في أسبانيا اعتقدوا جميعا بأن الكفار وحدهم هم الذين يستطيعون أن يبدوا تسامحا . وقال كثير منهم صراحة بأن وليم أورانج ملحد (٢٨) ، واتهمه الواعظ الكلفني بيتر داتينوس ، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد ، وأنه يغير عقيدته كي يغير الناس ملابسهم (٣٩) . وكان الكلفنيون (وظلوا

حتى ١٥٨٧) يشكلون عشر السكان فقط في مقاطعة هولندا ، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين . وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسية ، فأحلوا حكاما وقضاة بروتستانت محل الكاثوليك ، وفي ١٥٧٣ حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية في هولندا^(٤٠) ، على أساس أن أي فرد كاثوليكي يحتمل أن يكون خادما لأسبانيا . ولم تأت ١٥٧٨ . إلا وقد عمت الكلفنية زيلندة تقريبا ، وكانت من الوجهة السياسية - لا العدديّة - متسلطة في فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولنده وزيلنده ١٥٧٢ ، ومقاطعات أخرى ، حتى الفلاندرز وبرابانت ، بعد ١٥٧٦ . وأنكروا أي ربط بين الدين والفن باعتباره عملا وثنيا دنسا . وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف ، وصهرت الأواني الذهبية والفضية ، ولم يبق إلا الجدران العارية ، وعذب المتسولون ، القساوسة الكاثوليك ، وأعدموا نفرا منهم^(٤١) .

واستنكر ولیم كل هذه التصرفات ، ولكنّه تغاضى^(٤٢) عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة على السلطة السياسية في بروكسل وأير وبروجز وكل شمال الفلاندرز^(٤٣) . وفي غنت سجن الكلفنيون المنتصرون أعضاء المجلس ، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية ، وصادروا أملاك الكنيسة ، وحرّموا إقامة الطقوس الكاثوليكية ، وأحرقوا الرهبان في ساحة السوق^(٤٤) ، وأقاموا جمهورية ثورية (١٥٧٧) . وفي امستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (٢٤ مايو ١٥٧٨) ، وطرّدوا القضاة والموظفين ، وأحلوا محلهم كلفنيين ، وخصصوا الكنائس التي جردوها لمذهب الإصلاح . وفي اليوم التالي قامت ثورة نائلة بمثل هذا العمل في هارلم . وفي أنتورب التي كانت آنذاك مقر قيادة ولیم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (٢٨ مايو) ، وأنب الأُمير أتباعه نائبا شديدا على هذا العنف . وخصمهم على السباح بائستناف الطقوس الكاثوليكية . ولكن في ١٥٨١ حرمت كل عبادة كاثوليكية في أنتورب وأوترخت . واتهم الكلفنيون

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخلفات الزائفة والكرامات التي يفتعلونها - عرض قطع من الصليب الحقيقي ، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القديسين ، وإخفاء الزيت في رؤوس التماثيل حتى ترشح في الوقت المناسب (٥٥) .

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختتم بالفرقة والفوضى والبغضاء . إن الديموقراطية الكفنية التي كانت قد استولت على جملة مدن تتردى الآن في وهدة من الفوضى ، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتسامون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالاً عليهم من الديانة القديمة . وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبة المتزايدة في إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحاكم العام بدلا من ماتياس الماجز التافه . ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير . وزاد الطين بلة في محنة وليم ، أن جيشا أسبانيا جديدا قوامه عشرون ألفا من الجنود المدربين أحسن تدريب ، كان يتجه شمالا بقيادة أقدر قواد العصر . ذلك أنه في ديسمبر ١٥٧٧ قدم الساندر و فارنيزي دوق بارما بجيشه إلى دون جوان في لوكسمبرج . وفي ٣١ يناير ١٥٧٨ هزموا القوات التي كان يعوزها النظام ، التابعة للجمعية العمومية ، في جمبلو . وفتحت لوفان واثنتي عشرة مدينة صغيرة أخرى ، أبوابها أمام الفاتح الجديد ، وفرت الجمعية العمومية للأراضي الوطنية من بروكسل إلى أنتورب . إلا أن دون جوان الذي استشعر مجداً جديداً ، انتابته حمى خبيثة ، وقضى نحيبه في نامور ، في أول أكتوبر ١٥٧٨ ، وهو في سن الثالثة والثلاثين . وعين فيليب دوق بارما حاكما عاما مكانه ، وبدأ فصل جديد .

٥ - بارما وأورانج

١٥٧٨ - ١٥٨٤

الساندرو فارينزي، الذي يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة من جريت بارما . تربى في أسبانيا وأقيم يمين الولاء لفياب ، وحارب في لينستر وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته في الإبقاء على الأراضي الوطية الجنوبية في حوزة الملك فيليب . وفي ١٥٨٦ ورث دوقية بارما ولقبها ، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط . وكان له عينان حادثان ، ووجه أسمر ، وشعر أسود قصير ، وأنف كأنف الذئب ، ولحية كثيفة ، كل أولئك كشف عن شيء يسير من مقدرته وشجاعته وبراعته . وجمع بين كل الفن العسكري الذي امتاز به دوق ألفا ، مع إثارة من قسوته ، وقدر أكبر بكثير من المهارة في المفاوضة والحديث . وبات القتال من أجل الأراضي الوطية ، آنذاك ، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تسانده أموال الكاثوليك وآمالهم . بين صمود أمير أورانج البطولي ، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره . ويعرقل جهوده ، في وقت معاً ، تعصب أصدقائه .

وفي ٥ يناير ١٥٧٩ شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك ، من هينوت ودوا وأرتوا وليل ، بإيحاء من أسقف آراس ، شكوا عصابة آراس لحماية عقيدتهم وممتلكاتهم وفي ٢٩ يناير شكلت مقاطعات هولنده وزيلنده وجروننجن وأوترخت وجلدلند ، د اتحاد أوترخت ، للدفاع عن عقيدتهم وحرياتهم . وسرعان ما انضم إليها فريزلند ، وأوفريسل . ومن هذه المقاطعات المتحدة ، السبع تتكون اليوم الأراضي الوطية الهولندية ، وأصبحت المقاطعات الباقية هي الأراضي الوطية الأسبانية ، وصارت في القرن التاسع عشر بلجيكا وحدد تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو . سيطرة الكاثوليكية في الجنوب والبروتستانتية في الشمال ، من ناحية ، إلى جانب الفصل الجغرافي بينهما ، لوجود الخلجان والأنهار الكبيرة التي هيأ اتساعها

وسدودها التي يسهل التحكم فيها ، ثغورا يمكن الدفاع عنها ، وتأوى إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية .

وفي ١٩ مايو وقعت عصابة آراسى مع بارما اتفقا ، التزمت فيه بالألتقبل غير الكاثوليكية مذهباً ، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (الكوميونات) وسرعان ما أعاد الدوق ، بالإغراء أو الرشوة أو القوة ، كل المقاطعات الجنوبية تقريباً إلى حظيرة أسبانيا ، وتخلي الزعماء الكلفنيون في بروكسل وغنت وإيبر عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتى . وفي ١٢ مارس ١٥٧٩ قاد بارما جيشاً كبيراً ضد ماسترخت الواقعة في موقع حصين على النهر المسمى باسمها . وأتى الفريقان كلاهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالاً من الممرات تحت الأرض ليبتشوا الألغام ويفتحوا المدينة ، كما حفر المدافعون - النساء والرجال جنباً إلى جنب - عمارات ليقابلوهم ؛ ودارت رحى القتال حتى الموت في باطن الأرض . وسب الماء المغلى في الأنفاق ، وأشعلت الحرائق لتفأها بالدخان . واحترق مئات المحاصرين المهاجمين أو اختنقوا حتى الموت . وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما . وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة ، وقدفت حول أعناقهم أطواق النار الملتهبة . وبعد أربعة أشهر من الجهد المضنى والضرارة والعنف ، أحدث المحاصرون ثغرة في السور ، نفذوا منها خفية في الليل ، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبخوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء ولم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً ، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعائة . وعمرها بارما من بعدهم بالموالون الكاثوليك .

تلك كانت كارثة عظمت حلت بالبروتستانت . ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما ، إلى وإيم الذي حاول عبثاً إنقاذ المدينة ، لعجزه وإبطائه . واتهمه

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التي اتهموها ، بتعصّبهم وعنفهم - أتموه بخيانة قضيتهم في مفاوضاته مع دوق أنجو الكاثوليكي ، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضي ، واتهم الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أوراج (١٥ مارس ١٥٨١) . وبعد أن أسهب فيليب في بيان عقوف الأمير وخيائته وزيجاته وجرائمه ، استرسل يقول :

ومن ثم ... نسبة الأعمال السيئة الشريفة التي رتبها وأنه يعكس صفو السلام العام ، وأنه شخص بغيض ، فإننا نحرمه من حماية القانون ، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به في السر أو العلن ، أو أن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية . أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشري . وندين بملكاته لمن يضع يده عليها . ورغبة في الإسراع في تخليص شعبنا من ظغيبانه وظلمه ، فإننا نعد ، وعد ملك خادم للرب ، أي فرد من رعايانا ، وأتى من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم ، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض ، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً ، أو بإزهاق روحه على الفور ، نعد بأن نمنحه هو أو ورثته من الأرض أو المال ، وفق مشيئته ، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً . واسوف نصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أيا كان نوعها ، وترفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبيلاً (٤٦) .

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا الجرم ، تعيين ولیم حاكماً عاماً على هولنده وزيلنده (٣٤ يولية ١٥٨١) وبعد ذلك بيومين وقع ممثلو هولنده وزيلندرز وجلد رلند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت ، في لاهاي قرار الاستنكار الذي طرحوا فيه بشكل مهيب ولاءهم لملك أسبانيا . وفي وثيقة مشهورة في التاريخ الهولندي ، شهرة وثيقة إعلان الحقوق ، التي أصدرها برلمان إنجلترا في ١٦٨٩ في التاريخ الانجليزي ، أعلنوا أن الحاكم الذي يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضى على حرياتهم ، يجب ألا يعتبر بعد اليوم مليكهم الشرعي ويحق قانوناً

عزله (٧). وكان رد وليم على هذا الحرمان في صيغة دفاع حرره له قسيسه ، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط في أوروبا ، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له . واتهم فيليب بسفاح ذوى القربى والزنى وقتل زوجته وابنه . وأبدى استعداده للتخلي عن كل مناصبه ومغادرة الأراضى الوطیئة بل حتى للتضحية بحياته ، إذا كان هذا فى مصلحة بلده ، ومهر الوثيقة بشعاره « سوف أثبت » .

ولم يلبث فيليب طويلا حتى جنى ثمار الحرمان ، الذى أصدره (١٨ مارس ١٥٨٢) . فان جين جوريجى أغرته الجائزة الموعودة ، فسلح بمسدس واستعان بالله ، ونذر للعذراء بعض الغنيمة . واتخذ سبيله إلى وليم أورانج فى أنتورب . وأطلق الرصاص على رأسه ، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم ، ثم إلى الخد الأيسر . ولقى القاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم ، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت . ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت . ودعا فاريزى المقاطعات الثائرة ، وقدمات زعيمها العنيد ، إلى المصالحة مع مليكهم الرحيم . ولكن وليم تمائل للشفاء فى بطء بفضل سهر زوجته شارلوت على العناية به . وهى التى قضت نجحها فى ه يونية بسبب الإرهاق والحمى . وفى يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجو كليهما . واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما فى السجن ، وأرسل الثانى إلى باريس وحوكم وأدين ، ومزق أربا بربطه فى أربعة خيول ، تتجاذبه فى كل اتجاه .

وفى أثناء عام ١٥٨٢ جمع انجو حوله بعض قوات فرنسية فى أنتورب . ولم يكن الدوق ليقنع بلقبه ، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكا . وهب أتباعه جأة فى ١٧ يناير ١٥٨٣ ، وهم يهتفون « فيلجى القداس ، وحاولوا أن يسيطروا على المدينة . فقاومهم الأهالى ، وهلك فى هذه الثورة الفرنسية ، قرابة ألفى شخص . وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو . وعانى وليم من

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلا يؤيد أنجوى ويسانده . ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه . فلم يطمئن للاقامة في أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت . عندئذ عقدت مقاطعتا جرونينجن وجلدزلاند الصلح مع بارما ، ولم يبق مع وليم إلا اثنتين من المقاطعات المتحدة : وهما هولنده وزيلنده . ولكلتهما اثبتتا ولاءهما بأن جعلتا منصب الحاكم العام ، وراثيا في أسرته (ديسمبر ١٥٨٣) ، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذي كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف إنجلترا في ١٦٨٨ .

وأصر القتلة ولم تفتقر عزيمتهم . وفي أبريل ١٥٨٤ حاول هانز هانزون من فلشنج أن يودي بحياة الأمير ، ولكنه أخفق وأعدم . واستبد الحواس الديني بيلتازار جيرار من برجندى ، كما اشتهر به التفكير في الخمسة والعشرين ألف كراونه وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج ، ولكن الدوق قدر أن شابا في العشرين من عمره غير صالح للاضطلاع بهذه المهمة ، وأبى عليه المبلغ المتواضع الذي طلبه سلفا ، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق . وقصد جيرار إلى دلفت ، وتسكر في زى كلفى مسكين تقي ، وتلقى من وليم اثني عشر كراون صدقة . وصوب إلى جده ثلاث رضاصات (١٠ يولية ١٥٨٤) فصرخ وليم يا الهى ، رحمتك بى وبالشعب المسكين ، . وفاضت روحه في بضع دقائق . وقبض على جيرار وحوكم أمام قضاة المدينة ، وأبدى فرحه واعتباطه بنجاحه فيما قصد لإليه ، ثم لقي أشد العذاب وقتل شر قتلة . وورى وليم التراب في دلفت ، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه «أبا البلاد» . ولما كان قد ضحى بكل ما يملك في سبيل الثورة فإنه لم يخلف لابنائه الاثني عشر شيئا تقريبا . وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف .

* أكد رانك في كتابه «تاريخ البابوات» (١ - ص ٤٧٢) أن أحد الجزويت شجع جيرارد على فعلته . كما أكد موتلى في كتابه «قيام الجمهورية الهولندية» ولكن أنكره باستور في كتابه : «تاريخ البابوات» (الفصل العشرون ص ١٩-٢٠) .
٣-٣ الحضارة

ودفعت الجائزة كاملة لأبوى جيرار ، وابتهج كاثوليك الأراضى الوطيئة ،
قائلين أن الجريمة انتقام إلهى لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة .
وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من الخلفات الثمينة ، ولمدة نصف
قرن بذلوا أقصى الجهد لإعلانه قديسا . (٤٩)

٦ - النصر

١٥٨٤ - ١٦٤٨

وهنت بموت وليم روح من بقى من أتباعه فى الفلاندرز وبرابانت .
واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل ومكلىن وأنتورب ، ولم ينته
١٥٨٥ حتى وقعت الأراضى الوطيئة جنوب نهر ماس - فيما عدا أوستند
وسلين - فى يد الأسبان ، على أن المتسولين ، ظلوا يسيطرون على
الشغور والبحر .

وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملسكة اليزابث لنجدتهم . واستجابت
الآن للنداء . فقد أدركت أن ثورة الأراضى الوطنية منعت أسبانيا من اعلان
الحرب على إنجلترا ، وما كان فى مقدورها أن توقف هذه الفرصة التى هياأتها
العناية الإلهية - منع أسبانيا عن اعلان الحرب - هذا بالإضافة إلى أن
الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزى . وفى ديسمبر ١٥٨٥
أرسلت إلى هولنده قوة كبيرة بقيادة ليستروسير فيليب سدنى . وأخذ ليستر
لنفسه ، باعتباره حاكما عاما للمقاطعات الثائرة ، كل سلطة الملك تقريبا .
ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من
المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية ، ولكن
التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة ، وصدروا بضائهم إلى
أسبانيا أثناء حربهم معها . ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر ،
الذى حلت به الهزيمة فى زوتفن (٢٢ سبتمبر ١٥٨٦) فغادر هولنده مشمئزا ،
شاعرا بالخزى والعار . وسادت الفوضى فى الشمال لعدة عام كامل . وأنقذت

الجمهورية الصغيرة بفضل اشتراك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو إنجلترا ،
وبفضل هجمات بارما المضللة ضد هنرى نافار في فرنسا ، وتحكم الهولنديين
في البحار ، وثروة التجار الهولنديين و صمودهم ، وعبقريه جان فان أولدفار
السياسية ، ثم بفضل ما أوتى موريس فاسو ، ابن وليم الصامت ، من
عبقريه عسكريه .

وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكما عاما على هولنده
وزيلنده وفي ١٥٨٨ ، وهو في الحادية والعشرين ، عين قائدا عاما وأميرا للبحر
في المقاطعات المتحدة . وفي ١٥٩٠ أسلمته أوترخت وأفرجسجل وجلدزاند
مقاليد الحكم فيها . وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن في الرياضيات
في ليدن . فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار . ودرّب الجيش
الهولندي على أساليب جديدة للالتحام والنظام . وفي سلسلة من الحملات التي
اشتهرت بسرعة الحركة والاسراتيجية المفاجئة (١٥٩٠ - ١٥٩٤) استرد
موريس زوتفن ودفنتر وتيميغن وجروتجن . أما بارما الذي ضيع مهاراته
وأمواله في هجمات فيليب العقيمة على إنجلترا وعلى هنرى الرابع ، فإنه قضى
نحبه في دسبا ، بسبب الاعياء والجراح (٢٠ فبراير ١٩٥٢) .

وعين فيليب خلفا له الأرشيدوق ارنست النمساوي الذي لم يلبث أن
أدركته المنية ، ثم الكاردينال الأرشيدوق البرت الذي تخلى عن منصبه
الديني ، وتزوج ايزابل كلارا أوجينيا ، ابنة الملك . وقبل وفاة فيليب
(١٥٩٨) بفترة وجيزه ، منح البرت وايزابل حق السيادة على الأراضى
الوطنية ، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب . وأثبت
الاثنان أنهما حاكمان قديران رحمان . عجزا عن اخضاع المقاطعات الشمالية ،
ولكنهما أقاما في الجنوب حكما متحصرا ازدهرت في ظله الفنون الكنسية
في انسجام جميل مع صور روبنز العارياة .

وظهر على مسرح الحوادث في ١٦٠٣ شخصية جديدة . وكان البرت قد
استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أى نجاح ، وجاء أحد

رجال المصارف الايطاليين ، هو امبروزيودى سبينولا ، ووضع كل ثروته في خدمة اسبانيا ، وجمع جيشا قوامه ثمانية آلاف رجل ، وجهزه بالسلاح وبالعتاد ، وحاصر اوستند واستولى عليها . ولكن ثراه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين ، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الاساطيل التي اقضت مضاجع البحرية الاسبانية ، وهددت بقطع شريان الذهب الذي يتدفق بين أمريكا واسبانيا . ولذا أرهق الحصار والقتل البرت وايزابل فانهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين ، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذي أرقه العسر والاملاق . وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار نفلدت الهولنديين على المصالحة . وفي ١٦٠٩ عقدت هدنة هيأت للأراضى الوطيشة الراحة من عناء الحرب لمدة اثني عشر عاما .

بيد أن الوثام في الداخل شئ . يختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجى . لقد حنق موريس على أولدنبار نفلدت هيمنته على مقاليد الأمور في الجمهورية . ومن الوجهة العملية كان الأكبر الموظفين راتبا في هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها ، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التي تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدفعه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة ، فان أولدنبار نفلدت مارس في الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة ، كما تتكافأ مع رجاحة عقله وشخصيته وخلقه . أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا السكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار نفلدت الذي نبذ الديموقراطية مثلهم ، وقال : انه لمن الأفضل أن يحكمنى سيد مطلق من أن يحكمنى الرعاع ، (٥٠) وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده ، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له .

وكانت القضية الدينية التي أهاجت الجمهورية الآن قضية مثاشة الجوانب : فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة والدولة ، وهناك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهناك أخيرا حرب النظريات بين البروتستانت

أنفسهم . وسعت المجالس الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسي ،
وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مذهبهم . وارتابت الجمعية العمومية في المجالس
الكلفنية على أنها نماذج سيئة وبذور خطيرة لمؤامرة الديمقراطية . وقد
جلب أولدنبار نفلدت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن
يتركوا الحكومة للسلطات المدنية . وقد يكون غريبا أن نقول أن الغالبية
الساحقة من السكان في ١٦٠٩ كانوا من الكاثوليك حتى في المقاطعات
الشبالية^(٥١) . كانت القوانين تحرم العبادة الكاثوليكية ، ولكنها لم تكن
تنفذ ، وكان هناك ٢٢٢ قسيسا يتلون الشعائر الكاثوليكية^(٥٢) ، وأمر مجلس
المقاطعة في أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللاتي يستخدمونهن
في إدارة شؤون منازلهم ، ولكن الامتثال لهذا الأمر لم يكن تاما ،
ولم يلق اقبالا .

وحدث الصراع داخل المجموعات البروتستانتية بين الكلفنيين
والمتهجرين ، وهم أقلية . وأطلق هذا الاسم على هؤلاء ، لأنهم
أباحيون في حياتهم . بل لأنهم جذبوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك ، كما
أيدوا تفسيراً إنسانياً متحرراً للاهوت البروتستانتى . هؤلاء هم ورثة تقاليد
ارزم (الذين كان ينتسب إليهم وليم أورانج) . وكان المتزمتون معتقوا
الكلفنية القديمة ، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة ، وأحسوا بأن
عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية في كل المقاطعات المتحدة^(٥٣) . نقول كان هؤلاء
المتزمتون يرمون المتهجرين بانهم «بابويون» ، في الخفاء . ودافع ديرك
كورنهرت الذى كان سكرتيراً لدى وليم أورانج عن حرية العبادة في كتاباته
التي أرست أسس اللغة الأدبية في هولندا . وانبرى واعظ من أمستردام ، هو
ج كوبس أرمنيوس . لفنيد آراء كورنهرت ، ولكنه تحول إليها واعتنقها
بينما كان يدرس ليرد عليها . وحينما عين أستاذاً للاهوت في ليدن ، صدم
المتزمتين بارتياحه في الجبرية ، وإثباته أن الإنسان تمقذه أعماله الصالحة بقدر
ما ينقذه إيمانه ، وهذا يخالف ما قال به لوثر وكلفن . وسلم بأن الوثنى المتمسك

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم . وذهب إلى أن كل الناس في النهاية سيخلصون ودمغه أستاذ زميل له في الجامعة ، فرانسيسكس جورماروس ، بأنه مهرطق ماكر .

ومات أرمنيوس ١٦٠٩ ، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعا من ذوى النفوذ ، من بينهم أولاد نبار نفلدت وهو جو جروتوس أكبر موظفي روتردام وفي ١٦١٠ صاغ هؤلاء المتحررون ، احتجاجا على نظريات الجبرية والاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار ، واقترحوا عقد مجلس وطني يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الاصلاح وتعريفها . وصاغ المتزمتون احتجاجا مضادا ، أكدوا فيه من جديد المذهب الكاثوليكي :

«إن الرب ، بعد خطيئة آدم ، حفظ نفرا معيننا من البشر من الدمار ، وقدر لهم الخلاص في المسيح . . . وفي هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد ، ولكنه يعمل كيف يشاء . وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم^(٥٤) .»

وأصر أتباع جورماروس على أن هذه القضايا لا يعالجها إلا رجال الدين وحدهم ، وبذلك نجحوا في دمج المحتجين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئة الأصلية ويرون أن الإنسان منحير) أو من الموحدين (الذين لا يدينون بالتثليث ، ، إلى حد أن أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتزمتين ، وكان موريس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقارها ، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتا جماعة المذهب القديم ، لأنهم يهيئون له ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية .

وأعقبت ذلك معركة بالخطب والعظات والشرارات قاربت أن تكون حربا . وعكزت الاضطرابات العنيفة صفو الهدنة . وهوجمت بيوت المتحررين

في لاهاي ، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام . وجهزت هولندا جيشا للدفاع عن ديارتها ، وسرعان ماتبعتها مقاطعات أخرى ، وبدأن الحرب الأهلية توشك أن تقضى على الجمهورية في مهدها ، وفي ٤ أغسطس ١٦١٧ اتخذ أولدنبار نفلدت في مجلس هولنده قراراً خطيراً — رآه موريس خطيراً حقاً — يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية ، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية ، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعداد القوات لتأييد هولنده . وفي ٢٥ يولية ١٦١٨ دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعى للجيش ، أوترخت على رأس قوة مسلحة . وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا . وفي ٢٩ أغسطس أصدرت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة أمراً بالقبض على أولدنبار نفلدت وجروتويس وغيرهما من زعماء المحتجين . وفي ١٣ نوفمبر اجتمع مجمع كنيسة الإصلاح في دور درخت (دورت) ، واستمع لأراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرضقون ، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكنيسة والتعليم . وصبت اللعنة على أنصار أرمنيوس — مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك — وحرّم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة . وفر كثيرون منهم إلى انجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقباهم ودعمواهم مركز الأنجليكانيين المتحررين .

وحكم أولدنبار نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهيم له أى سند قانونى . واتهم بأنه بطريفة مدموعة بالخيانة أشاع الفرقة في الاتحاد وعرضه للخطر ، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة . وفي خارج المحكمة انهال سيل من النشرات تذيع على الملأ أخطاء حياته الخاصة . ودافع هو عن نفسه دفاعاً قويا بليغاً إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه ، وكلهم ثقة في ذلك . وفي ١٢ مايو ١٦١٩ أقرت المحكمة إدانته ونفذ فيه حكم الإعدام في اليوم التالى . وحكم على

جروتيوس بالسجن مدى الحياة ، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذي أحرزه التعصب ، نمت الحرية في المقاطعات . وبلغ الكاثوليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم . ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التي صدرت عن مجلس دورت . وفي عام ١٦١٩ نفسه أسس المنونايتين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأبطال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة) ، في حرية تامة ، طائفة الطلبة الجامعيين ، وهي تشبه الكويكرز ، في ريجنسبرج وقد وجد عندهم سينيوزا ملجأ آمناً . وفي ١٦٢٩ امتدح ديكرات حرية الفكر التي نعم بها في أمستردام ، وفي نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولنده ملاذ المهرة الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة .

وفي ٩ أغسطس ١٦٢١ استؤنفت الحرب مع أسبانيا . ذلك أن الأرشيديوق ألبرت مات دون أن يخلف عقباً . فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا . وأغار سينيولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود . فسار إليه موريس ناسو ، واسكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه ، فبات فجأة (١٦٢٥) وهو في سن السابعة والخمسين . واستولى سينيولا على بريدا ، وبذلك فتح الطريق إلى أمستردام ، وهياً للمصور فيلاسكوز موضوع لوحة .

ونمض الهولنديون من كبوتهم واستردوا قوتهم في إصرار وعناد . وأدهش فرديك هنري الذي خلف أخاه في منصب الحاكم العام ، الأعداء والأصدقاء على السواء ، بما كان يخفي حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلوماسمية فرانسيس آرمنز استطاع أن يحصل من ريشيايو على متحة سنيوية قدرها مليون ايرة ، وجمع جيشاً جديداً ، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وما سترخت وبريدا . ولحسن الحظ كان سينيولا قد استدعى إلى لومبارديا .

وفي نفس الوقت استخدام التجار الهولنديون أموالهم في بناء السفن ،
لأن كل انتصار في البحر كان يعنى توسيع مجال التجارة . وفي عام ١٦٢٨
أسر أسطول هولندي صغير تحت أمره ييبست هين أسطولا أسبانيا كان يحمل
الذهب من المكسيك وهاجم أسطول هولندي آخر قوة أسبانية مكونة من
١٣ سفينة في نهر سلاك ، فدمرها وأسر ٥٠٠٠ رجل (١٦٣١) . ولكن
أروع هذه الانتصارات البحرية هي المعركة التي خاضها قائمقام أمير البحر
مارتن هاروتزون ترومب في القنال الإنجليزي (بين دوفر ودبل) وكان
الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضي الرطبة من
الهولنديين . فأعدوا أسطولا ضخما جديداً من ٧٧ سفينة عليها ٢٤ ألف رجل
فلما أبصر به ترومب في القنال ، أرسل في طلب المدد ، وفي ٢٦ أكتوبر ١٦٣٩
أبحر ومعه ٧٥ سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو ، فأغرق أو أعطب
أو أسر كل الأسطول الأسباني فيما عدا سبع سمن . وقتل ١٥ ألفاً من الملاحين
الأسبان في المعركة أو أغرقوا . وتحتل معركة القنال الإنجليزي في تاريخ
هولنده نفس المكانة التي تحتلها هزيمة الأرمادا (١٥٨٨) في تاريخ إنجلترا .
فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا في السيادة على البحار ، وقطعت شريان
الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها ، وأسهمت مع انتصار فرنسا على أسبانيا
في معركة روكروا (١٦٤٣) واحتتمت العقبة التي هيمنت فيها أسبانيا على أوروبا .
منذ انهمكت أسبانيا انهماكاً تاماً في حرب الثلاثين عاماً فإنها قررت أن
تنزل للهولنديين عن كل شيء ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا . وفي مونستر
في ٣٠ يناير ١٦٤٨ وقع المندوبون الأسبان معاهدة وستفاليا التي أنهت ثمانين
عاماً من الحرب في الأراضي الوطية . وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير
متقيدة بأى رباط مع أسبانيا . وتم الاعتراف بفتوحاتها . ولا تصل تجارة
الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها . وخول التجار
الهولنديون حرية التجارة في جزر الهند الشرقية والغربية . وهكذا انتهى أطول
وأشجع وأقسى صراع من أجل الحرية في التاريخ بأسره .

الفصل الثامن عشر

من روبرت إلى رمبرانت

١٥٥٥ - ١٦٦٠

١ - الفلمنكيون :

أنه لما يثير الدهشة أنه في قطعة صغيرة من أوروبا ، مثل الأراضي الوطيفة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية ، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والكلمنية ، وفنانان مختلفان كل الإختلاف في المزاج والأسلوب مثل روبرت ورمبرانت ، وفانديك وهاس .

ولانستطيع أن نفسر التباين بإختلاف اللغة لأن نصف الفلاندرز* ، مثل كل المقاطعات المتحدة ، تحدثوا اللغة الهولندية . وربما نبغ بعض التباين من اقتراب هولنده من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية . وربما ينجم جزء من الإختلاف من إرتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الارستقراطية إرتباطا وثيقا بروكسل وأنتورب . وورث إقليم الفلاندرز ديانة العصور الوسطى وفنها وأصاليها ، على حين كانت هولندا أفر ، حتى هذا الوقت ، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ويمكن أن تكون الشمس المشرقة في المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق ، على حين أن الغيوم والمصاعب في الشمال شجعت أهله على اعتناق عقيدة صارمة وواقية رزينة . أو على الأرجح ،

(*) تستخدم هنا ، تيسيرا ، لفظتا الفلاندرز والفلمنكيين Flanders , Flemish

للدلالة على الأراضي الوطيفة الأسبانية ، ولفظتا هولندا والهولنديين Hoesep Outeh

للدلالة على المقاطعات الشمالية أو المتحدة .

أن الجيوش الأسبانية انتصرت في الجنوب ، وأندحرت في الشمال نتيجة الأناهر
المعترضة والثروة الهولندية ؟

لا بد أن أنتورب كانت جميلة عندما اكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها
وواجهاتها وفنها الزخرفي ، على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل
حيوية التجارة وحيلها ، ورقصت المياه بكل سفن العالم . ولكن الحرب
أندلعت بعد ذلك ، فإن ضراوة دوق ألفا ومحاكم التفتيش أخرجت الصناع
المهرة والتجار البروتستانت إلى هولندا وألمانيا وإنجلترا ، وصرامة الكلفنية
أتلقت الكنائس ، وعذب الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور ، كأن ضراوة
فرنسا أفرغت عجزها في الدماء ، والحصار الذي ضربه فانز لمدة أربعة عشر
شهرًا أهات الكاثوليك والبروتستانت جوعًا على حد سواء . وأخيرًا انصم
الكاثوليك إلى البروتستانت في الخروج من المدينة ، وانقلت نجارة أنتورب
إلى إمستردام وروتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان .

ولكن وحشية الإنسان متقطعة ، وسهولة التكيف عنده باقية .
وقد يكون لنا بعض السلوى في أن تتسع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت
بسرعة أن تنهض من دمار الحرب ووبلاتها . وتلك كانت حال الفلاندرز
بعد ١٥٧٩ . بقيت صناعة النسيج ، وظل الطلب كبيرًا على المنخرمات الفلمنكية ،
وظلت الأمطار تحيي الأرض وأضفى كدح الناس البهائم والفخامة على الحاشية .
واستمتعت أنتورب وبروكسل ، تحت حكم الأدواق الذين أحبوا حياة الترف
ولكن مع روح إنسانية ، بيعت ونشور جديرين بالذكر . وعادت الفلاندرز
إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية . وربما بالغ روبنز
في هذا في مهرجان اللوفر العاصف ، ولكن استمع أيها القارئ إلى تقرير
الكاردينال أنفانت فرديناند ، من أنتورب إلى فيليب الرابع ١٦٣٩ :
« أقاموا بالأمس لإحتفالهم الكبير . . . أتتقل موكب طويل إلى الريف
مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر . وبعد العرض هرع للناس إلى الطعام
والشراب ، حتى شمل الجميع آخر الأمر ، وبدون هذا لا يعتبرون أنه احتفال

أو عيد^(١) ، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (١٦٣٥) استقبلوه بالمهرجانات التي دامت لعدة أيام ، وسط زخارف ضخمة صممها روبنز نفسه . ووصف زائر إيطالي مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها « سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص ، مع أنغام الموسيقى والأغاني المرححة في الشوارع^(٢) ، ولم تستسلم كل هذه الروح للحرب . فإن الألعاب التي صورها بروجل كانت لا تزال تقام في الشوارع ، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداسات المتعددة النغمات والأصوات التي كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين ، يوها ، مرغوبا فيهم في كل بلاد . ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها .

٢ — الفن الفلمنكي :

تضافرت الحاشية والكنيسة ، والنبلاء وأبناء الشعب في البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكي ، ورعى البرت وايزابل وشجعوا كثيرا من الفنانين ، إلى جانب روبنز . وكانت أنتورب لهتره من الزمن مركز الفن في أوروبا ، واستعاد قماش بروكسل المزركش (النسيج المنطرز بالسكانفاه) امتيازه وتفوقه ، مستعينا برسوم روبنز البطولية . وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنهم إلى الأراضي الوطنية في ١٥٤١ ، وأنتج الصانع المهرة المحليون منه الآن قطعاً هشة آية في الإعجاز ، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونا من الفتنة والشغب فغلبتها ، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم ، مثل الآنية المعدنية الفاخرة التي تحفظ فيها الذخائر الدينية ، التي يمكن أن توجد في الكنائس الكاثوليكية في بلجيكا ، وألحت الارستقراطية التجارية في طلب القطع الفنية : وجلسوا أمام المصورون ، وشيدوا قصورا ضخمة ، ودورا للبلدية ، لمثل تلك التي شادها كرنيل دي فرندت تمجيدا لأنتورب (١٥٦١ - ١٥٦٥) قبل العاصفة . ولما جرد المتعصب الذميم الكنائس من

آيات الفن ، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها في لطفة وحماس ، يلجئون في طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب .

ولم يزدهر فن النحت هنا ، لأن فرانسوا دو كيسنوى ، ابن بروكسل ، أنجز معظم أعماله في رومه حيث نحت تماثلاً ضخماً لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس ، وإن نفراً قليلاً من السائحين الذين يحرصون على رؤية «أقدم مواطني بروكسل» ، نافورة مانكن بس Manneken Pis (١٦١٩) - تمثال برونزى لصبي يزيد في مياه المدينة من موارده الخاصة - يعلمون أن هذا هو أبقي روائع دو كيسنوى على الأزمن .

أما المصورون الفلمنكيون فإتهم يجلون عن الحصر ، وواضح أن كل بيت في الأراضي الوطيفة كان عليه أن يقطن لوحه أصلية ، وأكب ألف فنان في مائة مرسم على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمؤن والأساطير والعائلات المقدسة وصلب المسيح ، أما إسهامهم المتميز في تاريخ الفن فهو صور جماعية للبيشات البلدية ، وصور تمثل الحياة المنزلية أو القروية وتأثر هؤلاء الفنانون في أول الأمر بالطرز الإيطالية ، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب ، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها . وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا ليرسموا ، وقصد كثير من الرسامين الفلمنكيين إلى إيطاليا للدراسة ، واستقر المقام ببعضهم هناك ، ومن هؤلاء جوستوس سوسترمانزا أحد أبناء أنتورب ، الذي أصبح مصوراً للأشخاص ، مقر باوذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام ، وأن بعضاً من أجمل اللوحات في قصر بتي هي بريشة هذا الفلمنكي المقيم بالحيوية ، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلانجلو في رومه ، وأطلق على نفسه بصراحة أنه «رومانى» ، واستساغ التشریح وأخضع اللون للنخط ، وظل مرسمه في أنتورب لمدة جيل (١٥٤٧ - ١٥٧٠) كعبه للتصوير الفلمنكى وذروته ، وقد يكون

جديرا أن نصور كاي انرى في مة حقمها لوحته الرائعة الضخمة « زوجة صيادالباز ، وعاش فرانس في ببحوحة من العيش . وشاد لنفسه قصرا ، وأسرف في العطاء وفي الشراب ، وبات فقيرا ، وكان كورنلس دى فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين ، وعندما كان يتزاحم ذوى المسكاة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز ، مؤكدا لهم أنهم سيظهرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه ، ولا يزال في مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثل كورنلس وزوجته وابتين جميلتين لهما ، معلنة في متحف بروكسل .

وذبلت الفتنة الإيطالية حوالى نهاية القرن السادس عشر ، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأساليبهم المحلية . وعاد دافيد تنيير الأكبر إلى أنتورب . برغم أنه درس في رومه ليرسم «المطبخ الهولندي» و«مهرجان القرية»^(٢) ، ثم علم ابنه حتى تفوق عليه ، وشكل سليل العجوز درول بيزانته بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية، ومنها ولداه بيتر بروجل «الجحيم» ، وجان بروجل «المحمل» ، وحفيدها جان الثانى وأمبروز ، وحفيد حفيده أبراهام ، وحفيده الأكبر جان بابتست بروجل ، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (١٥٢٥ - ١٧١٩) ، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القروية ، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثقل بالممل .

وأخرج فنانون الأراضى الوطيفة الفن من الكنيسته والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانييل سيجرز الأزهار والفاكهة في تفصيل محبب إلى للنفس ، وخص العذراء بأكاليله المصورة ، وانضم إلى الجزويت ، وبعث فرانس ستيدرز الحياة والتعبير في جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المثيرة ، والمفرعة أحيانا ، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة ،

ولا يزال ، كما وصفه روبنز ، أعظم مصوري الحيوان ؛ لم ينافس أحد في روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير .

وعاد أدريان بروور Brouwer إلى فلاحى بروجل ، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويرقصون ، ويلعبون الورق ، والنرد ، ويقاثلون أو يعر بدون فى احتفال صاحب ، أو يغطون فى النوم . ومر أدريان نفسه بألوار كثيرة فى حياته التى لم تتعد اثنين وثلاثين عاماً ، فأفانه درس مع هالس لفترة وجيزة ؛ وفى سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذاً مسجلاً فى نقابة الرسامين فى أنتورب ، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله ، وسرعان ما غرق فى اللديون ، وأودعه الاسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن ، ولكنه كان يحيا فيه مترفة ، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة . زاخرة بالحياة ممتازة فنيا من ناحية الرسم الحسى وحركة الضوء الرقيقة ، إلى حد أن روننز ابتاع منها سبعة عشرة رسماً ، ورميرانت ثمانية ، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا أملوا بالنبيج القوى أو الخمر الرحيصة ، على أن بروور آثر فلاحا يغنى مع كأسه على أمير منافق يرفل فى الحرير ، وفى سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات .

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقارا واتزاناً ، نقش فى إحدى لوحاته « تحذيراً للظلمة » : « إن أشبه شىء بالمجنون هو المخمور » . واختار أن يرسم رجالاً يستطعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل ، ونساء برفلن فى حفيف الحرير فى إجلال وعظمة . ولد جاكوب فى ١٥٩٣ وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعي والإدراك . ورسم لنا شخصه فى لوحة « الفنان وأسرته » (٤٠) ، رجل منتصب القامة . واثقاً بنفسه ، رشيقاً ، ثرياً ، يمسك بزهرة ، وزوجته مطمئنة فى الطوق المكشكش الخانق حول رقبتها ، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابهما كابتداً تتفتح أزهار الغلاندرز ، وبتناً صغيرة سعيدة بالبيت الهادى والمذهب المريح انظر إلى الصليب المتدلى على صدرها . وتحول جوردانز إلى البروتستانتية ، ولكن فى سن الثانية والستين . ورسم عدة لوحات دينية ،

ولكنه آثر مشاهد الحياة اليومية والأساطير ، وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التي كان قد رآها في أروقة البيوت في أنتورب ، مثل لوحة د الملك يحنسى الخمر (٥) ، أو أفضل منها ارحمة د قصة الخصب (٦) ، وهنا ، وسط الفاكمة (التي رسمها سنيدرز صديق جاكوب) والفرشات تروعتنا فتاة عارية فائنة ، تشاهد من مسقط خلني فقط ، ولكنها في كل نضارة الشباب ورشاقته ، ترى أين عثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه في الفلاندرز على عهد روينز ؟

٣ - روينز

١٥٧٧ - ١٦٤٠

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين في ١٥٧٧ ، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين ، وتابع هو السلسلة . ودرس أبوه ، جان روينز ، القانون في بادوا ، وتزوج من ماريا بيلنسكس . وانتخب عضوا في المجلس التشريعي في أنتورب وهو في سن الحادية والثلاثين وأتهم بالبروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذي صدر ١٥٧٤ ، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولين ، وهناك اختارته مستشارا قانونيا ، آن السكسونية (روجة وليم أورانج التي أفرقت عنه) ، وارتكب معها الفحشاء ، فأودعه الأمير السجن في ولنبرج ولكن ماريا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة*) ،

(*) مثال ذلك : زوجي العزيز الحبيب ، إن خطابا منك . . . أنالج صدرى ، لأنني علمت منه أنك واض عن صفحي عنك ، ولم يدر بحلدي قط أنك اعتقدت أن هناك أية عقبة تحول دون ذلك من جانبي ، والحق أني لم أعتد إلى شيء من هذا . وكيف يطاوعني قلبي أن أعضب عليك في هذه اللحظة ، في الوقت الذي أضحي فيه بحياتي لأنفذك ؟ . . . وكيف تنجح أية كراهية مريية ، بمنزل هذه السرعة في القضاء على حيننا العميق ، حتى تجعل من المستحيل أن أعفرك هذه الخطيئة اليسيرة التي ارتكبتها ضدي ، على حين أنه يجدر بي أن أدعو الله أن يغفر لي الخطايا الجسام الكثيرة التي اقترفتها ضده في كل حين (٧) .

وقدمت الالتماسات وكلفت من أجل الإفراج عنه ، حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة ، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة في سجن في وستاليا ولحقت به هناك في ١٥٧٣ ، ومن المحتمل أن يتربول رأى النور هناك ، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية ، ولكن . وهو لا يزال في المهدي ، تحولت الأسرة إلى الكشلكة . وفي ١٥٧٨ انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر ، وعند موته (١٥٨٧) قصدت ماريا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها .

وتلقى روبنز تعليمه الرسمي حتى سن الخامسة عشر فحسب ، ولكنه زاد عليه بالهدأب على القراءة والخبرة والتجربة . وظل لمدة عامين وصيفا في خدمة كوتس لا لنج في أودينار ، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذي تميز به عن معظم فناني عصره . ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم ، ألحقته للتدريب على يد طوييا فرهاخت ، ثم آدم فان نورت ، وأخيراً أوتوفانيوس ، وكان رجلا واسع الثقافة لطيف الحديث ، وبعد قضاء ثمان سنوات في كنف هذا المعلم الممتاز ، قصد روينز ، وهو الآن في سن الثالثة والعشرين ، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التي هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير . وفي فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل في حاشية فنسوزو جوزاجا دوق مانتوا . وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق في مانتوا ، رساما للبلاد وهناك أبدع لوحين قاربنا الكمال الفني : « جوستوس لبيوس وتلاميذه » (٨) وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب ، ثم لوحة تمثله هو نفسه (٩) ، أمى روبنز ، وهو نصف أصلع في الخامسة والعشرين . ولكنه ملتج جرى . ويقظ . وقام برحلات قصيرة إلى روب لينسخ للدوق بعض الصور ، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالي) زواج ماريا مديشى من هنرى الرابع الغائب . وفي ١٦٠٣ أوفده الدوق في مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما ، وتقبل الوزير الرسوم التي كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية ، وعاد الفنان إلى مانتوا دبلوماسيا فاجحا .

وفي رحلة ثائية إلى رومه استقر به المقام فيها مع أخيه الذي كان أمين مكتبة كاردينال ، وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقديسين ، منها لوحة د القديس جريجورى يصلى للعرزاء^(١٠) ، وقد اعتبرها أولى روائعه . وفي ١٦٠٨ سمع بمرض أمه ، فاستحث السير شمالا إلى أنتورب ، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة . وكان حبها الموسوم بالحكمة والصبر قد ساعد على خلق مزاجه المرخ الذي سعدت به حياته . وفي نفس الوقت كان قد تعلم الكثير في إيطاليا . فإن لون البنادقة المغربي البديع ، والشهوانية الحسية في لوحات جيوليو رومانو الجصية في مانتوا . والجمال الأخاذ الهادىء في رسوم النساء التي أبدعتها يد كوريجيو في بارما ، والفن الوثني في رومه الوثنية المسيحية معا وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالخمر والنساء والغناء — كل أولئك امتزج بدمه وفنه . حتى أنه عندما عينه الأرشيدوق ألبرث مصور البلاط ، في أنتورب ١٦٠٩ ، اختفت كل بقايا الفن القوطى في التصوير الفلمنكى ، واكتمل انصهار الفن الفلمنكى والفن الإيطالى معا .

وكان ضربا من الحكمة على غير قصد منه أنه كان متغيباً عن الأراضى الوطنية طوال ثمانية أعوام الحرب ، وأنه تلقى قرار تعيينه في أول أعوام الهدنة ، ففي السنوات الإثنتى عشرة التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية . ولم يكن روبنز بالعنصر اليسير في هذا البعث . ويحصى مؤرخ سيرنه ١٢٠٤ من اللوحات الزيتية و ٣٨٠ من الرسوم له^(١١) ، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ . وليس لهذا الخصب مثيل في تاريخ الفن . ويكاد الأمر يكون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ . وكتب روبنز يقول : « إن موهبتي من طراز معين ، ولم تروغنى معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها^(١٢) » — لقد أنجز في خمسة وعشرين يوماً اللوحات الثلاث التي تمثل النزول عن الصليب ، لسكائدرائية أنتورب ، وفي ثلاثة عشر يوماً لوحة د عبادة الملوك ، الضخمة الموجودة الآن في متحف اللوفر . وبالإضافة إلى رانبه السنوى في البلاط

وقدره ٥٠٠ فلورين كان يتقاضى أجرأ عن كل إنتاج فردى . لأنه قبض مبلغاً ضخماً ، ٣٨٠٠ فلورين (٤٧,٥٠٠ دولاراً) عن التمثيلتين السابق ذكرهما ، أى بمعدل أجر يومية قدره ١٠٠ فلورين (١٢٥٠ دولاراً) . وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثير منهم مسجلاً في نقابة الفنانين بوصفهم أساتذة . ورسم جان بروجل ، المخمل ، الأزهار في لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشي الثانوية ، ورسم بول دي فونز المعادن والفاكهة ، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب في لوحة «ديانا عائدة من الصيد»^(١٤) وللسنا ندرى نصيب سنيدرز ونصيب روبنز في مناظر الصيد الهائلة في قاعات درسدن وميونخ ومتحف المتربوليتان في نيويورك . وفي بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص ، وترك لمساعديه الدهان . وكان روبنز يقدم لربائته بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه في اللوحات التي باعهم إياها^(١٥) . وهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التي انتهت عليه . وأصبح مرصمه مصنفاً يعكس أساليب العمل في اقتصاد الأراضي الوطیئة ، وأدى الخصب في الإنتاج والسرعة في الإنجاز إلى الخط من نوعيته ، ولسكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه إله الفن الفلمنكى .

وأحس روبنز بالظلمة نبتة فتزوج في ١٦٩٠ . وكانت إيزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعى في أنتورب ، ومن ثم كانت شريكة صالحة لابن محام وعضو في المجلس التشريعى في المدينة نفسها . وأقام روبنز في بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المطللة على قناة وابنز . وفي واحدة من أجمل لوحاته^(١٦) نرى بيتر وايزبللا تنمرها معادة الأيام الأولى من الزواج ، أما هي فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مردان برسوم الأزهار ، وقد وضعت يدها على يده في ثقة واستئثار ، وبرز وجهها المنعم بالحيوية من طوق رقية مكشكش أزرق هائل ، وتوج رأسها بقبعة فارس ، أما هو فتراها مكتمل الرجولة والنجاح ، ذا ساقين قويين واحة بيضاء وعلاخ

وصيعة ، يرتدى قبة مزدانة بالأشرطة . ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر
سبعة عشر عاماً ، ولسكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم في حب
ولإعزاز ، فهناك لوحة الولد المجدد الشعر في متحف قيصر فردريك ، برلين ،
وهو ممتلئ الجسم جميل سعيد ، يلعب ببيامة ، ويمكن أن نراه مرة أخرى
في لوحة « أبناء الفنان » ، (١٧) ، وقد كسسته السنوات السبع التي سلخها من عمره
بالرصانة ، وما يدسنى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات .

وكان روبنز في نفس الوقت وثنياً أساساً ، ولو عاد دون تورخ أو خجل
بجسم الإنسان ذكراً أو أنثى ، في كل نشوة الفتوة عند الرياضى القوى ، أو
في هدوء المتقوس المنحنى ، وكان معروفًا عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها
استمتعت بأساطير الوثنية الدنسة - طقوس وعادات الجسم الطليق - على
حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها . ولم يستطع
أن يفرق بين مريم العذراء وفينوس : ولعله لم يحس بأى تعارض بينهما ،
فكلتاها جلبت له المال . وفي لوحة « عبادة فينوس » ، (١٨) كان العنصر الوثني
غير مقيد - مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس ، يخفين في تواضع وخفر
معصماً أو ركبة ، يعانقهن إلهة معربدون شهوانيون ، على حين يرقص اثني عشر
غلاماً حول تمثال إلهة الحب . ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر
مقامه في إيطاليا ، إلا أن صور فينوس يعوزها الخط الكلاسيكى ، فهى لا تستطيع
الحياة في الشمال ، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها في الجنوب ، بل
أنها يجب أن تأكل وتشرب لتقى المطر والضباب والبرد . والطبيعة البشرية
التيوتونية ، مثل الويسكى البريطانى - - انجليزى أو اسكتلندى - دفاع مناخى
وكان عنوان إحدى لوحات روبنز - وفيها ثلاث نساء عاريات متورمات -
« قينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعر بالبرد والضعف » (١٩) ، وتلطف الفنان فلم يقل
« بلا لحم ولا جعة » ، وكذلك لم ير مجافاة للياقة في لوحته « راع يغازل » ، (٢٠)
وهى تمثل راعياً يحاول أن يغوى فتاة بدينة تن ثلثمائة رطل ، فليس ثمة حسن
أوردى ، جميل أو قبيح ، ولكن البيئة هى التي تحدد هذا أو ذلك : وليس

في لوحة د اغتصاب السابين ،^(٢١) الأكل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان
رومانيان ليرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أمراهم . وحتى في لوحة
د عواقب الحرب ،^(٢٢) ليس ثمة ضعف . و ديانا عائدة من الصيد^(٢٣) ، لم
تكن إلهة أغريقية أنيقة طاهرة ، بل ربة بيت فلمنيكية عريضة الكتفين قوية
العضلات ذات مكانة اجتماعية ، وفي كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى
تحجلا إلا الكلب . وغابات روبنز ملأى بأطسة يعتصرون أنقالا ، كما في
د أكسيون وهير^(٢٤) ، و د أربعة أركان الدنيا^(٢٥) ، ، وكما يمكن أن نكون
قد توقعنا لم يكن د أصل المجرة^(٢٦) ، - فرضية مستديمة ، بل ربة بيت بدينة
تفيض سيلا من اللبن من ثديى تمتلىء . أما د الرباب الأخوات الثلاث^(٢٧) ،
فهن تحيلات رشيقات ، نسبياً ، على أية حال . وفي د محاكمة باريس^(٢٨) ، (ابن
ملك ترواده الذى خطف هيلانه - فى الأساطير اليونانية) نرى سيدتين فقط -
يشا كل زيهما الأزياء المتأخرة ، وأخرى تعد من أجمل صور النساء فى الفن .
وفى هذه الرسوم الوثنية عادة يوجد شيء أبعد كثيراً من الجسد ، فإن روبنز
أصبح عليها من فيض خياله الخصب الممتلىء بالحيوية والمرح ، فهناك مائة من
الملحقات السكالية تملأ المنظر ، مخططة فى حرص ولكن دون دراسة ، تبهر
عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة . كما أنه ليس ثمة شيء يشير الشهوة
فى العرض المنتفخ ، وأنه مجرد حيوية حيوانية ، فليس هناك رسم واحد يشير
الشهوة الجنسية . أن روبنز نفسه كان يتجلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسى ،
بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل ، وعرف عنه
أنه زوج فاضل و د رب أسرة موثوق ، لم تمسه شائبة من التودد للنساء
أو المخادعة^(٢٩) .

واعترف رجال الكنيسة فى الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية فى رسوم
روبنز ، فلم يحسو بالحرج أو بوخز الضمير فى أن يطلبوا منه أن يصور ثانية
قصص العذراء والمسيح والقديسين ، وقد أجابهم إلى سؤلهم ، ولكن بطريقته

غير المهتذلة ، ومن خلفائه الذين لا يحصى عددهم استطاع أن يهوى في خيال أوسع ، أو يرسم في مهارة أدق ، الفكرة القديمة « عبادة الملوك »* ، ومن كان يجرؤ على تركيز العمل في تشكيل البطن السمين للأثيوبي المعمم ذي اللون البرونزي ، وهو ينظر في ازدراء واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله ، ومن كان يحلم أن الوثني الذي يحدق النظر بعينه وبفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية في جسم المرأة ، يمكن أن يحب الجزويت وينضم إلى طائفتهم المريمية ، ويؤدى القارين التي وضعها أجنات لهولا لتطهير النفس برؤى الجحيم (٣١) .

وفي مارس ١٦٢٠ تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصرم العام ، تصميمات التسعة وثلاثين رسماً تغطي مقوف كنيسة الباروك الفخمة التي كانوا قد بدأوا تشييدها في أنتورب في ١٦١٤ . وأنجز روبنز الرسوم التي حولها فإن ديلز ، وآخرون معه إلى لوحات ، دمرت كلها تقريباً في ١٧١٨ ، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين مخطمتين للمذبح الرئيسي : إحداهما « أجنات يبرىء الذين صههم الشيطان » ، والثانية « معجزات سانت فرانسيس » . وكتباها الآن في متحف تاريخ الفن في فيينا .

مع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكياً على النحو الذي كانت تعنيه الكنيسة في عصر النهضة ، ومسيحياً بحكم الموطن . وعاشت وثنيتته في ظل تقواه . ولم تكن مريماته (صور السيدة العذراء في لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحاً أنهن أصلح لإيقاع الرجال في حباتهن . منهن لإنجاب إله . وفي لوحة « العذراء في إكليل من الزهو » (٣٢) ، تمثل السيد المسيح صبياً أجمع الرأس ، ومريم في زى ربة بيت فلمنكية ترتدى قبعة جديدة في زهوة يوم الأحد في أحد المنزهات . وحتى في لوحة « رفع الصليب » (الموجودة في كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضي مكتمل القوة والنشاط ، لا إلهاً يعاني سكرات الموت .

* بلغ ثمن هذه اللوحة ألف دولار في مزاد علني أقيم في لندن ١٩٥٩ .

وفي طعنة الرمح (٣٤) ، مرة أخرى نجد التشريح هو كل شيء : فالمسيح
واللصان شخوص ضخمة ، والنساء تحمى الصليب يتخذن وضعاً خاصاً أمام
فنان ، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن ، فإن روبنز لم يستشعر هول
الموقف .

وفي خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسي تيشيان في صعود
العدراء ، ، وفي أشهر هذه المحاولات (٣٥) ، تبدو العذراء ميةة لآحياة فيها ،
والأفراد الأحياء هم المجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية ، وأجمل
منها اللوحة الثلاثية (٣٦) التي أهدتها الأرشيدوقة إيزابل إلى جمعية الدفونسو
الدينية في بروكسل : ففي الصورة الوسطى نزلت العذراء من السماء لتقدم لرئيس
أساقفة توليدو . رداءا من الجنة مباشرة ، والقديس في خشوع تام ديلت من
العبادة ، ، على حين أنه في الصورتين الجانبيتين نرى إيزابل وألبرت قد وضعا
تاجيهما جانبا د وركما للصلاة ، وهنا في هذه اللوحة الثلاثية . أضفى روبنز
لوهلة قصيرة . بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير . وفي لوحة
سانت أمبروزو الإمبراطور تيودوسيوس (٣٧) ، - أدرك روبنز ونقل إلى
الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين : ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان
الذي لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وقندلفت (مساعد كاهن) ، ولكنه متمسم
بالجلال والعظمة ، يطرد من الكاتدرائية الإمبراطور الذي يحف به حرس
رهيب ، ولكنه مثقل بالقساوة التي لا تتغير وقلما أخفق روبنز مع كبار
السن من الرجال ، ففهم ، وبخاصة في الوجه ، تبرز قصة حياتهم ، كما أن الوجه
يعرض الشخصية والخلق واضحين أمام الفن المدرك الواعي . انظر إلى رأس
الآب في لوحة دلوط وأسرته يغادرون سودوم (٣٨) ، . وهي واحدة من أروع
لوحات روبنز في أمريكا .

وعاد في حيوية بالغة إلى الموضوعات الدنيوية ، مختلطة بالأساطير ،
عندما عرضت عليه ماري دي مديشى أكثر العقود إغراء في حياته ، ووقع

في ١٦ فبراير ١٦٢٢ اتفاقية ، يرسم بمقتضاها ، في مدى أربعة أعوام ، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية ، تخذل ذكرى الأحداث في حياة ماري وزوجها هنري الرابع ، ودعته الملكة للحضور ليعيش في البلاط الفرنسي ولكن هداه تفكيره السليم إلى البقاء في وطنه . وفي مايو ١٦٢٣ صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى ، وأحببت ماري هذه اللوحات . كما أعجب بها ريشليو . وأكلت المجموعة في ١٦٢٤ ، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة في قصر لوكسمبرج . وفي ٢٨٠٢ نقلت اللوحات إلى اللوفر ، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها . وإن ينكر كل من رآها أو درسها على روبنز العشرين ألف كراون (٢٥٠٠٠٠ دولار) التي تقاضاها في مقابل عمله ، أو يحسده عليها ، ولا ريب أن مساعديه قاسموه فيها . وهذه اللوحات في جملتها هي أسمى منجزاته . وإذا تجاوزنا عن بعض هبات السرعة ، وارتضينا القصة التي لا تصدق - كما تفعل في أوفيد ، وشكسبير وفردى - فإننا سنجد هنا روبنز بكل سماته ، اللهم إلا تقواه العارضة . لقد أحب غمامة طقوس البلاط ، وجلال السلطة الملكية ، ولم يسأم قط النساء الممتلئات الأجسام ، والثياب الفاخرة ، والستائر وأغطية الأثاث البهية ، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والربات في الأساطير القديمة ، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً في قصص فياض ، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة ، وغزارة في اللون وبراعة فائقة في التأليف والتصميم ، وما جعل هذه المجموعة ملهمة وأوبرا في تاريخ الرسم .

ولم يكن بعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليبلغ ذروة التمجيد - التعيين في الوظائف الدبلوماسية ، والحصول على براءة النبالة . وفي ١٦٢٣ أوفدته الأرشيدوقة إيزابيل ليفاوض ، على أمل تجديد الهدنة مع هولندا ، وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام ، فإن زوجته كانت طموحة في أن ترث عن عمها الهولندي مالا^(٣٩) . وأخفقت هذه الجهود ، ومع ذلك أقنعت إيزابيل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النبالة (١٦٢٤)

وعينه ، رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة ، . أى إيزابل نفسها . ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضيع ذى المحند غير الكريم ، فى استقبال البعثات الأجنبية ، وبحث مسائل على قدر كبير من الأهمية^(٤٠) ، ومع ذلك أوفدت إيزابل روبنز بعد ذلك بعام (١٦٢٨) إلى مدريد ليساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول . وأخذ الفنان معه بعض رسومه ، وعدل الملك من رأيه فى موضوع الحسب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس صور شخصية ، وكان الفنان الأسباني فيلا كوين لم يقم بما يكفى الملك فى هذا الصدد . وتوثقت أواصر الصداقة بين الفنانين ، وأسلم الفنان الأسباني ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين ، القيادة للفلمنكى العبقري الأنيس ، وهو إذ ذاك فى سن الواحدة والخمسين . وأخيرا عين فيليب روبنز الوصيح النسب ، مبعوثا له فى إنجلترا ، وفى لندن نجح روبنز فى عقد معاهدة صلح ، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من حواسيس لعرقلة الصلح . وفى لندن رسم روبنز بعض صور شخصية انجليزية درق ودوقة بكنجهام^(٤١) ، والوجه المهيب لتوماس هوارد أرنل أروندل ولحيته ودرعه^(٤٢) . وبعد أن مهد الطريق أمام فاندريك عاد إلى أنتورب (مارس ١٦٣٠) وقد منحته جامعة كمبرج درجة علمية ، ومنحه شارل لقب فارس .

وفى الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (١٦٢٦) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بجنائزتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسى الفنان ٢٠٤ فلورينات (٢٥٠٠ دولار) أنفقها على الطعام والشراب وأدوات المائدة^(٤٣) ، فالموت فى المجتمع الفلمنكى كان ترفا يورث الحرمان والفقر . وأغرق روبنز شعوره بالوحشة والوحدة فى الدبلوماسية . وفى ١٦٣٠ ، وكان قد بلغ الثالثة والخمسين ، تزوج من هيلينا فورمنت ذات الستة عشر ربيعا . أنه كان فى مسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به ، وكان له بالفعل من حقها ودعتها ما فاض على فنه وأحلامه . ورسمها المرة بعد المرة ، فى أى زى ، ودون ثياب : فى ثوب الزفاف^(٤٤) ، وهى ممسكة بققاز^(٤٥) ، تلوها ابتسامة السعادة

في قبعة أنيقة^(٤٦)، وهي تخفى تركيبها فقط تحت معطف من الفراء^(٤٧). أما أروع الصور فهي تلك التي تمثلها تتنزه مع روبنز في حديقتيها^(٤٨) - وهذه الأخيرة هي إحدى القمم في التصوير الفلمنكي، ثم صورها مع وليدها الأول^(٤٩)، وبعد ذلك مع طفليهما^(٥٠) - مباشرة بالفنان دنوار (مصور فرنسي ١١٤٩ - ١٩١٩). وحدث ولا حرج عن اللوحات التي تمثلها في وضع مثير للشهوة مثل فينوس، أو متسم بالحشمة مثل أم الإله - العذراء.

ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل، بغير ما نفاق ولا رياء. وإذا نراها في متحف فيينا وبتى، في أغلب الظن كما كانا - يحكان بلدا قلقا مضطربا، بكل النيات الطيبة التي تلتئم مع المثل العليا الأسبانية، لقد عثر الفنان في الفلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء، فرسمها في تصويره لجان تشارلز دي كورد وزوجته الجميلة المتجهمة^(٥١)، وفي صورة ميكايل أو فوفينوس^(٥٢) أسقف هرتوجنيوخ، وترك لنا صورة ضخمة لاسينولا الجبار^(٥٣). ولكن رسم الصور الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز في روبنز، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إيحاءات صادرة من الأعماق، كما فعل رامبرانت. وأعظم صور الشخصية هي تلك التي رسمها لنفسه في ١٦٢٤ من أجل من صار فيما بعد شارل الأول^(٥٤): قبعه ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلح، مع عيني محددتين في نظرة فضولية. والأنت الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية، والشارب المتصاب الحشن واللحية الحمراء الجميلة، وهذا يمثل رجلا يدرك كل الإدراك أنه في ذروة البراعة في حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيويته الطبيعية. ومتعته الحسية وقباعته المهادنة، مما أشرق وتألقت في صورته مع إيزابلا برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين. إن الإخفاق وحده هو الذي يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح.

كان روبنز رديا، وعاش عيشة باذخة، وكان بيته الفخم في أتوربي أحد

مشاهد المدينة . وفي ١٦٣٥ اشترى بمبلغ ٩٣ ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً لإقطاعيا في مقاطعة ستين ، تمتد ١٨ ميلا ، واتخذ لقب لورد ستين ، وقضى الصيف هناك ، ورسم المناظر الطبيعية وجرب يده المتعددة المهارات في رسم أحداث الحياة اليومية . ووسط ضروب الترف والرفاهية ، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جياذ ، استمر يبذل أقصى الجهد في العمل ، وهو يجد مسعاده في أسرته وفي عمله ، وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العظيمة (٥٥) .

ويحذر من هم أقدر منا أن يحلوا المزايا الفنية في فنه ، ولسكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسي لتصوير الباروك : أى اللون الحسى ، والحركة التى لا تحصى ، والخيال الخصب ، والزخرفة المنمقة المترفة ، على عكس ما عرف في التصوير القديم من الهدوء وتقيد الفكر والخط . ولكن في فوضى الجمال هذه ، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة في التخطيط والتصميم وغدت صور روبنز مدرسة من الحفارين والتقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة في أوروبا المسيحية ، كما فعل ريموندى مع رسوم رافائيل ، ومن يدروبنز أو من رسمه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساجى الأقمشة المزركشة في باريس وبروكسل ، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيدوقة إيزابيل .

وشهد العقد الأخير من سنى حياته نصرا مبينا عكسه انحطاط قواه الجسمية ولم يضارغه في شهرته الغنية سوى برنينى ، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه في الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء ، ووفدت عليه بعثات البلاط من ست ممالك ، حتى من الحاكم فردريك هنرى عبر خطوط القتال . وفي ١٦٣٦ طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد دمتامور فوزس ، للشاعر الرومانى أوفيد لقصر الصيد فى باردو . وأنجز مرسم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة ، منها واحد ولاثرن مشهدا فى متحف برادو ، وبدا للكاردينال

انفانت فرديناند أن مشهداً منها هو د محاكمة باريس ، أروع ما أبدعته يدأ روبنز على الإطلاق^(٥٦) . وقد نوثر عليه د المهرجان^(٥٧) ، الصاحب الذي كان قد صوره في ١٦٣٦ - وهو مطاردة مسعورة ، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما .

أما صورته الشخصية في سن الستين^(٥٨) فهي الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهواً . يقبض بيده على سيف النبالة ، ولكن التحول يعبرو وجهه النحيل ، ويتبدل جلده ، وتحيط التجاعيد بعينيه - وهو رسم أنيق أمين وفي ١٦٣٥ أزمه داه النقرس الفراش شهراً . وفي ١٦٣٧ شل يده لفترة من الزمن ، وفي ١٦٣٩ عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه . وفي ١٦٤٠ ضلت كلتا يديه . وفي ٣٠ مايو ١٦٤٠ ، وقد بلغ الثالثة والستين ، قصى نخبه متأثراً بالتهاب المفصل وتصلب الشرايين .

لقد كانت حياة روبنز تدعوا إلى الدهشة . أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوروبية ، ولكننه حقق طموحه في أن يلعب دوراً في الدولة . وفي الرسم على حد سواء . ولم يكن فناً شاملاً مثل ليونارد وميكلائجلو ، فلم يخلف لنا نحتاً ، ولم يصمم أى منى سوى داره . ولكننه في الرسم بلغ ذروة الامتياز في كل مجال . فإن الصور الدينية ، والصخب الوثني والإلهة والإلهات ، والعماريات والمكتسيات ، والملوك والملكات ، والأطفال والعجائز ، والمناظر الطبيعية والمعارك - كانت كلها تنساب من فرشاته ، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل . لقد وضع روبنز حداً لخضوع الرسم الفلمنكى للرسم الإيطالى ، ولكن بدون الثورة أو التمرد ، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد .

ولم يكن روبنز في مثل عمق رمبرانت ، ولكن أوسع أفقا ، لقد نقر من الأعماق الخفية التي كشف عنها رمبرانت ، وآثر عليها الشمس والهواء الطلق ، وتراقص الضوء ، واللون ، وامتعة الحياة وسحرها ، وكافاً حظه السعيد

بالإبتسام للدينا ، إن فنه تعبير عن الصحة ، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة . ويمكن ، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حويتنا أن نفتح كتاب روبنز في أى مكان لننتعش ونجدد قوانا .

٤ - فانديك

١٥٩٩ - ١٦٤١

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع الوسيم ، الذى التحق برسمه حوالى ١٦١٧ . وكان أنطونى فانديك قد بدأ تدريبه وهو فى سن الثامنة عند هندريك فإن بالمن ، معلم سنيدرز . وفى سن السادسة عشرة كان له تلاميذه هو نفسه . وفى سن التاسعة عشرة سجل أستاذا فى نقابة الفنانين ، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعدا ذا قيمة كبيرة له . وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوى فى قيمته لوحة « دانيال ، التى أنجزها روبنز فى نفس العام . واحتفظ فى مجموعته الخاصة بلوحة فانديك « المسيح يتوج بالاشواك » ، ثم تنازل عنها فى وقت متأخر ، وهو كاره ، لفيليب الرابع . ليضعها فى الأسكوريال^(٦٩) . وتأثر فانديك فى شغف بالغ بروبنز ، ولكننه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز فى الحركة واللون ، ومن ثم قصر عن اللحاق به فى كل شىء ، فيما عدا رسم الأشخاض . وفى صورته الشخصية الأولى (١٦١٥) (٦٠) كشف عن الخصائص التى كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته - رقة ورشاقة وجمال ناعم ، مما لا يكاد يليق برجل . وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكوين الصور التى يرسمها لهم ، سيما إذا ضاقوا بحميتهم من نسيان الناس لهم . وقد رسم صورا شخصية محبة لسنيديرز^(٦١) ودوكونسوى^(٦٢) وجان ويلدنز^(٦٣) تروجان دى وال^(٦٤) - وجساردى كريبير^(٦٥) ومارتن بين^(٦٦) ، وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه . وتوحى تلك الصور الشخصية فى مرسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائما فى مملكة الفن .

وفي ١٦٢٠ تلقى أرل أرونديل من أنتورب رسالة جاء فيها : « أن فانديك يقيم مع روبنز ، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه (٦٧) ، فدعا الفنان الشاب إلى إنجلترا ، فذهب فانديك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشاً زهيدا قدره مائة جنيه ، ورسم قليلا من الصور الشخصية ، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصيلة ، وطلب منحه أجازة لمدة ثمانية أشهر يتغيب فيها عن البلاد ، فأجيب إلى طلبه . ولكنه مد الغياب إلى إثني عشر عاما . وفي أنتورب دبر لزوجته وطفلها سبل العيش ، ثم أسرع إلى إيطاليا (١٦٢١) .

وهناك لأول مرة أسرع الخطى وشمر عن ساعد الجهد ، وترك صوراً شخصية رائعة في كل مكان نزل به تقريبا ، وعكف على تأمل أعمال البناذقة العظام ، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم ، كما فعل روبنز من قبل ، ولكن ليكتشف الأسرار الشعرية في الرسوم الشخصية عند جيورجيوني وتيشيان وفيرونيز . وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة ورومه ، بل حتى إلى صقلية . وفي رومه أقام مع الكاردينال جيد وبنيتيفوجليو ، وكافأه بصورة شخصية (٦٨) وكره الفنانون العلمنكيون الذين كانوا يتضورون جوعا في إيطاليا ، من فانديك كياسته ، وإن شئت تملقه وتودده ، فنهتوه بأنه « مصور الفرسان » ، وأنوا بأعمال قبيحة ، إلى حد أنه رحل مسرورا بصحبة ليدى أرونديل إلى تورين . وكان الترحيب به كبيرا بصفة خاصة في جنوة التي تذكرت روبنز ، وكانت قد سمعت بميل فانديك إلى تمجيد النبلاء ، حتى ليجعل من كل جالس أمامه أميرا . وفي متحف متروبوليتان للفن في نيويورك نموذج لهؤلاء الاستقراطيين الجنوبيين : « المركيزة دورازو » : وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائما في رسوم فانديك) ، كما يحتفظ المتحف الوطني في واشنطن بلوحتي « المركيزة بالي » ، و « المركيزة جريما لذي » - وهي مزهوة حبلى . وفي برلين ولندن نماذج أخرى . واستطاعت جنوه أن

تحتفظ في قصر روضو فيها بلوحة د المركيز والمركيزة ، برينولى صالى د وعاذ فاندريك إلى أتورب (١٦٢٨) ، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتأنق في مظهره .

وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين ، وحتى يهيء نفسه لهؤلاء ندم على ما اقترف من فحشاء ، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات ، وانضم إلى د الرابطة الجزويتية لغير المتزوجين ، ، وتحول إلى الموضوعات الدينية . ولم يستطع أن يناقش روبرت في هذا المضمار ، ولكنه تجنب مبالغات الأستاذ الغزير الإنتاج وتآلقه الشهوانى ، وأضفى على رسومه هو لمسات من الأناقة التي تعلمها في إيطاليا . وذهب رينولدز إلى أن لوحة فاندريك د صلب المسيح ، في كاتدرائية مكايين واحدة من أعظم الصور في العالم ، وعلى أية حال ربما كانت هذه هي طريقة سيرجوشوا في الوفاء بالدين .

وجرب فاندريك بده في صور الأساطير . وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه . وكان موطن قوته وامتيازها في الصور الشخصية . وفي هذه السنوات الأربع في أتورب أقدم من زوايا النسيان ، بما رسم من لوحات د البارون فيليب لروى والسكلب الأمين (٦٩) ، ود الجنرال فرانسيسكو دي مونكادا وجواده (٧٠) ، ود التكونت رودوكافاكس (٧١) الذي بدا كأنه سوينبرن ، ود جان منتغورت ، الذي بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير) ، وأروع رسوم فاندريك في فيينا هي صورة د روبرت الشاب أمير البلاطين القاتن ، الذي سرعان ما خاض غمار الحرب دفاعا عن شارل الأول في إنجلترا . ومن الرسوم القاتنة كذلك صورة د ماريا لوبزا أوف تأسيس (٧٣) ، غارقة في ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحرير الأبيض . ولا يقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فاندريك لبيتر د الجحيم ، بروجل (الأصغر) ، وهو رجل عجوز لا يزال يضطرم قلبه بهيوية لم ينضب معينا في أسرة تثير الدهشة .

وأخذ فانديك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليحرب حظه فيها ثانية . وكان شارل - على عكس أبيه - ذواقه للفن . وظن أن هذا الفلمنكى الوسيم هو الرجل الذى يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسبانى للملك فيليب الرابع . وذهب فانديك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملاكمة هنريتا ماريا وأطفالهما ، وهى صور برزت فيها روعة فن فانديك بشكل لا يمحى أثره . وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس ، هى اللوحة الموجودة فى متحف اللوفر - وهى تمثل الملك المزهو العاجز مرتديا زى الفروسية ، واضعاً يده على خصره ، شاهراً سيفه ، وعلى رأسه قبعة أنيقة ، بالإضافة إلى لحية فانديك ، ولكن الجواد المنهوك الذى يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد ، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكبه . وتوجد فى درسدن وتورين لوحات تبارى هذه ، وهى تمثل أبناء شارل ، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى . وكان شارل أكثر إنسانية فى مخبره منه فى مظهره . وبرزت حرارة العاطفة عنده فى تعلقه بفانديك وإعزازه له ، فقد ضمه إلى طبقة الفرسان ، ووهبه دوراً فخمة فى لندن وفى الريف ومنحه معاشاً سنوياً قدره مائتا جنيه ، ومبالغاً إضافياً عن كل رسم ، وعن كل زيارة للبلاط .

وعاش الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله ، فأولع بالثياب الأنيقة ، وكانت له عربته التى تجرها أربعة من الخيل ، وجياده الأصيلة وخليلاته ، وملا بيوته بالموسيقى والفن . وبز توجهات روبنز فى تفويض غيره فى العمل - فترك رسم الملابس لمساعديه ، وأنجز صورة شخصية فى ساعة واحدة من رسم تخطيطى تم فى جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الأوان ويروى أن شارل الأول ، حين كان يعانى من تقدير البرلمان عليه ، سأل الفنان المبذر مرة : هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال ؟ فأجاب فانديك ، نعم يا مولاي ، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه ، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته ، فسرعان ما يصل المرء إلى قاع الكيس ليجمده فارغاً (٧٤) .

وإذا كان فانديك قد غرق في الديون أحيانا ، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصرء والمحبين ورعاة فنه . فقد انتظر الارستقراطيون الإنجليز دورهم في الحصول على موافقته : مثل جيمس ستيوارت ، ودوق لينوكس^(٧٥) ، الوصييم مثل كلبه ، وروبرت رتشي أرل ودروك^(٧٦) ، ولورد دريتي وأسرته^(٧٧) وتوماس وتورت أرل سترافورد^(٧٨) الذي تحدى القدر . كذلك جاء دور الشعراء من كارو ، وكليجرو ، وسكلنج . وأخير اءاء دور أولدبار^(٧٩) الذي زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاما ، وكان يبدو عليه ذلك . اتعد رسم فانديك ٣٠٠ صورة شخصية في إنجلترا ، تميزت كلها تقريبا بالكياسة والوقار اللذين رأهما في أحد اللوردات ، حتى ولو لم يوجد شيء منهما .

وتبارت خليلته مرجريت ليمون مع الارستقراطية في توفير الخدمات له بما كلفه غالبا . واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة ، وعاونه (١٦٣٩) في طلب يد ليدى ماري روثفن وهي سائلة أسرة مشهورة في تاريخ اسكتلنده ورسم الفنان لعروسه صورة جميلة^(٨٠) ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذي رسمه لنفسه في الصورة الشخصية للفنان^(٨١) التي يعرفها العالم كله - شعر غزير متموج ، وعينان حادتان ، وتقاطيع دقيقة ، ولحية مقصوصة ، وسلسلة ذهبية تنهى بأنه فارس . هل كان فانديك يتملق سير أنطوني (نفسه) إذا كان الأمر كذلك ، فليس ثمة جدوى ، لأن صحته التي أسرف في استنزائها ، بدأت الآن تتدهور ، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب ، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة اللواتم في قصر هويتول ، ولكن الملك كان يعانى العوز . فمير فانديك البحر إلى باريس (١٦٤٠) أملا في تكليفه بتصوير القاعة الكبرى في اللوفر ، وكان لويس الثالث عشر قد اختار بالفعل بوسان لهذه المهمة ، ولكنها تخلى عنها بعد فوات الأوان ، فقد مرض فانديك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (١٦٤١) ، بعد أحد عشر يوما من مولد ابنته ، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين .

لم يؤسس فانديك مدرسة ، ولم يترك بصمات على الفن في القارة ، ولكن أثره في إنجلترا كان بالغا . فإن الرسامين المحليين مثل وليم دويسون ، وروبرت ووكر ، وصمويل كوبر ، أسرعوا في تقليد أسلوبه المتملق الذي يدر ربعا . وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور رينولدز وجينزبرو . فإن تراث فانديك كان مصدر كل تعليم وثقيف وإثارة . ولم تسكن الصور الشخصية التي رسمها فانديك عميقة . لقد كان متعجلا إلى درجة لم تنح له البحت عن الروح . وتوقف في بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية . إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الحميد ، وما كان متوقعا أن يبدو كثير منهم وكأنهم شعراء ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ، من خلال عيني فانديك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التي نجدها في وقفاتهم إلى جانب مليسكهم . وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب المزيحل المحظوظ حيوية روبنز العارمة ، أو عمق رويرانت الماثر . ولكننا سنبقى على اعتزاننا بهذه الصور الشخصية الجنوبية والفلانكية والإنجليزية ، على أنها معالم دقيقة ثمينة ، متألفة في تراثنا .

ه - الاقتصاد الهولندي

أية قفزة تلك التي تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطني هارلم ولاهاي وأمستردام الإجلال الأفوياء : هناك عالم فريد خلف السدود ، عالم ماء أكثر منه عالم أرض ، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية . ولا يكاد يوجد في تاريخ الاقتصاد شيء أشد إزعاجا من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية ، أو في تاريخ الثقافة شيء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن .

وفي ١٦٠٠ بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة ، كان نصفهم فقط يفلج الأرض ، وفي ١٥٢٣ أقام نصفهم في المدن ، وصار كثير

من الأرض ملكا ملاك من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم للتجارية يمكن أن تزال رأتحتها السكرية باستثمارها في الأرض . وحتى في مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديان قصب السبق على أوروبا ، وكانت السودان والخزانات الجديدة تستصلح دواما الأرض من البحر ، وأخصبت القنوات المزارع وأنعمت التجارة ، وقامت فلاحه البساتين جنبا إلى جنب ، مع تربية الماشية ، وكلتاها على نطاق واسع ، لتكمل كل منهما الأخرى . وفي آخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطاحونة الهواء ذروة الإتقان مثلما فعل الرسامون الهولنديون بالفن . وكان نصف الصناعة لا يزال يدويا اللهم إلا في التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجمعة ، فإن هذه الصناعات كانت تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحا وأقل لإسعاداً للناس ، وأبحر في كل عام من الثغور الهولندية ١٥٠٠ سفينة ذات صاريين لصيد السردين وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة . وفي أثناء الهدنة مع أسبانيا (١٦٠٩ - ١٦٢١) أرسلت الأراضي الوطية ١٦ ألف سفينة حاملة كل منها ٥٧ طننا في المتوسط ، علمها من الملاحين نحو ١٦٠ ألفا - أكثر من انجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة (٨٢) .

وتلف الرابنة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجهولة . وفي ١٥٨٤ وطد التجار الهولنديون أنفسهم في أركنجل ، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة في محاولة عقيمة للعشور على طريق شمالي شرقي ، إلى الصين ، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها ٢٥ ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية . وإن الأسماء الهولندية في الخرائط الحديثة لأرخييل سبتسبرجن (في الزويج) لتعيده إلى الذاكرة رحلات تولايم بارنت الذي فقد حياته في الشتاء على ثلوج جزر فوفايا زيليا (١٦٩٧) . وفي ١٥٩٣ أبحر الهولنديون للمغامرون صبر أنهار غانة (ساحل الذهب) في أفريقية ، وعقدوا أواصر للصدقة مع المواطنين هناك ، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة .

وحتى ١٥٩١ كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها في أوروبا الشمالية . ولكن فيليب الثاني غزا البرتغال في ذلك العام فحرم الاتجار مع الهولنديين ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم أنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى . وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذرايهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال في الشرق ، فاتفق الهولنديون بعلمهم (٨٣) . وعبر التجار الهولنديون ، حتى أثناء الحرب مع أسبانيا مضائق جبل طارق ، وسرعان ما اتجروا مع إيطاليا ، ثم مع العرب ، متجاهلين الفوارق الدينية في أصرار وثبات . وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وعقدوا معاهدة مع السلطان ، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس ، على حد سواء ، ثم ساروا إلى الهند . وفي ١٥٩٥ قاد كورنيلس دي هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية . وفي ١٦٠٢ قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند . وفي ١٦٠١ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمائة ألف فلورين — خمسة أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التي أسست قبلها بثلاثة شهور (٨٤) . وفي ١٦١٠ بدأ التجار الهولنديون التجارة مع اليابان ، وفي ١٦١٣ مع سيام ، وفي ١٦١٥ سيطروا على جزر ملقا ، وفي ١٦٢٣ على فرموزا . أنهم في جيل واحد فتحوا أمبراطورية من الجزر حكموها من عاصمة جاوة : جاكرتا التي سموها باتافيا . وفي هذه الحقبة أدت الشركة لحملة الأسهم ربحا سنويا قدره ٢٢٪ وكان الفلفل يستورد من جزر البهار ، ويباع في أوروبا بمشرة أمثال الثمن الذي يدفع للمنتجين المحليين (٨٥) .

وحسب الهولنديون أن الأرض ملك خاص لهم . فاسلوا سفنا للبحث عن طريق شمالي غربي إلى الصين . وفي ١٦٠٩ استأجروا ربانا انجليزيا هو هنري هدمن ، ليرتاد نهر هدمن . وبعد ذلك باثني عشر عاما كونوا شركة الهند الغربية الهولندية . وفي ١٦٢٣ أسسوا مستعمرة الإراضى الوطنية الجديدة

وكانت تضم الولايات الحالية : كنكتيكت ونيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا ودلاوير . وفي ١٦٣٦ اشتروا من الهنود «أمستردام الجديدة» ، (منهاتان) مقابل بعض الحلى الصغيرة التي قدرت قيمتها بأربعة وعشرون دولارا . وكانوا جادين في تطهير وتطوير هذه الأراضى ، واسكن كل ممتلكاتهم في أمريكا الشمالية وقعت غنيمة في أيدى الإنجليز (١٦٦٤) نتيجة للحرب ، وكذلك وقعت ممتلكاتهم في أمريكا الجنوبية في أيدي الأسبان والبرتغال ، ولم يتبق لهم إلا سورينام ، تحت اسم غيانا الهولندية .

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندا في أوروبا في تهيئة دعامة هائلة للسلطان السياسى للتجار الهولنديين ، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون . وطوال النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوروبا ، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها في سائر بلاد العالم . وقد انزعج رالى من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشروعات (٨٦) وقال أحد سفراء فينيسيا (١٦١٨) أن كل هولندى عاش في رخاء ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا ، التي أدرك رمبرانت فقرها إدراكا تاما . أن أصحاب الملايين كثروا في هولنده ، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفايات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين اللذين يدافعان عن هولنده (٨٧) ، ومثل هؤلاء كالخو جاهدبن للحيلولة دون إقرار السلام (٨٨) .

وتركزت معظم الروة الهولندية في مقاطعة هولنده التي كانت تجارتها في المياه المجاورة أضعاف تجارة سائر المقاطعات الشمالية . وكان ثمة برجوازية مزدهرة في عدة مدن في مقاطعة هولنده - روتردام ، لاهاى ، هارلم ، أوترخت - ولكن أيا منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام . وأن نمو عدد سكانها ليحكى قصتها ، فقد كان ٧٥ ألفا في ١٥٠٠ ، وقفز إلى ٣٠٠ ألف في ١٦٢٠ ، وهرع

إليها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجا من أنتورب التي دمرتها الحرب . وبعد ١٥٧٦ نقل يهود أنتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الخليء ولا يزال صياغ الماس في هذه المدينة يتزعمون هذه الصناعة في العالم . وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة ، وكان بنك أمستردام الذي أسس ١٦٠٩ ، أقوى مؤسسة ماله في أوروبا في ذلك العصر . وكانت العملة الهولندية مطلوبة وموضع ثقة في كل الأنحاء .

٦- الحياة والأدب في هولنده

اتهم الهولنديين منافسوم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال ، وبطباع جافة خشنة ، ترتبط أحياناً بالانهماك في الحياة الاقتصادية ، ويسلم المؤرخون الهولنديون بهذة المزاعم عن طيب خاطر (٨٩) . ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافة بأنها تجارية ، مع أنها أولعت ولعا كبيراً بالنظافة والزنبق (التوليب) والموسيقى والفن ، وشيدت مدرسة في كل قرية ومحت الأمية ، وخلقت جواً فكرياً مكره بالجدل والأفكار ، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة ، حتى أن هولنده سرعان ما أصبحت ملجأ عالمياً للعقول الثائرة ؟ المتمردة وقال ديكارت :

ليس ثمة بلد غير هذا البلد ، فيه الحرية أكمل . والأمن أعظم ، والجريمة أندر ، ويساطة العادات القديمة أروع (٩٠) . وفي ١٦٦٠ كتب فرنسي آخر : ليس في العالم مقاطعة تنعم بمثل هذا القدر من الحرية مثل ماتنعم هولنده وفي اللحظة التي يأتي فيها أي سيد إلى هذا البلد بأي أرقاء أو عبيد ، فإنهم يصبحون أحراراً ، ويستطيع أي فرد أن يغادر البلد متى شاء ويأخذ معه من الأموال ما يشاء . والطارق آمنة ليل نهار ، حتى لو سار الإنسان بمفرده . ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته . ولا يضار إنسان بسبب دينه . وكل إنسان حر في أن يتفوه بما يشاء حتى عن الحكام (٩١) .

وكان أساس هذه الحرية هو النظام . ويعكس صفاء الذهن في أناقة المنزل وحسن ترتيبه . وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد ، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة في الأعمال المنزلية . ويتسم الجنسان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح . واعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقولة ، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجوانف * والموسيقى والهناء المنزلية . وكتب لودوفيكو جوتيشياردينى ، إن الهولنديين يفزعون من الزنى ، وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر ، ومن ثم منحون قسطا كبيرا من الحرية ، فيخرجون وحدهم للقيام بالزيارات بل والرحلات ، دون أن يأتين بما يחדش سمعتهن . . . إنهن مديرات المنازل ، وإنهن يحبن بيوتهن^(٩٣) . وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة ، مثل ماريا شورمان ، منيرفا هولنده (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراع عند الرومان) التي قرأت إحدى عشرة لغة ، وتحدثت وكتبت بسبع لغات ، ومارست الرسم والنحت جيدا ، وبرعت في الرياضيات والفلسفة . ونظمت مارياتسليد شعرا جميلا في مثل جمال شخصها . وترجمت قصيدة تاسو «تحوير أورشليم» ترجمة فالت ثناء العالم ، ورسمت ونحتت وحفرت ، وعزفت على القيثارة . وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز ، وجوست فان دن فوندل ، وجرير اندريديرو ، كانوا يركعون تحت قدمها متوسلين إليها أن تغني لهم . وتزوجت قبطانا بحريا ، وأصبحت ربة بيت وأما مخلصه وفيه . وتركت وراءها ذكريات لا زالت عزيزة لدى الهولنديين ، عن الذكاء والمآثر والنبيل^(٩٤) .

وكان حب الموسيقى أوسع انتشارا من تقدير الفن . إن جاك بيتزون سويلنك أحد أبناء أمستردام ، وأعظم عازف هولندي على الآرغن هو الذى علم هنريج تسيديمان ، الذى علم بدوره جوهان آدم رينكن . وهذا الأخير هو الذى درس على يديه جوهان سبستيان باخ . ومع كل هذا التفوق والامتياز

(*) وبما كانت هذه اللعبة من أصل هولندي ، وانتقلت إلى اسكتلندا في القرن الخامس عشر^(٩١)

دب في التجارة الهولندية بعض الفساد ، والإدمان على الخمر ، والبغاء ، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله^(٩٥) إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلية^(٩٦) . وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق . وكانت الأبخال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا ، حوالي نهاية القرن الخامس عشر ، كذلك انتشرت الزهرة في باريس وصارت بدعة محببة ورمزا للامتياز والسمو . حتى أنه في ١٦٢٣ رفض أحد الهواة اثني عشر ألف فرنك (٣٠ ألف دولار) ثمنا لاثني عشرة بصلة من الزنبق^(٩٧) . وفي ١٦٣٦ صار كل السكان تقريبا يضاربون في أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأي إنسان أن يشتري أو يبيع فيها محاصيل الزنبق الحاضرة أو المستقبلية وكان للتوليب د انهياره ، المالي ١٦٣٧ ، ففى تلك السنة بيعت نحو ١٢٠ زهرة توليب ثمينة في مزاد علني لمصلحة أحد ملاجيء الأيتام بمبلغ ٩٠ ألف فلورين .

وللى هذا الجو البهيج جاء اللاجئون من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجار الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مثيرة من الأساليب الغربية الدخيلة ، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردريك وأوترخت وجروننجن مشاهير علماء العالم ، وأنجبت بدورها آخرين . فكان جوستوس لبيوسى وجوزيف سكاليجر ودانيل هنسيوسى وجيرار فوسيوسى يعملون جميعا في ليدن في النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (١٥٧٥ - ١٦٢٥) وما جاءت سنة ١٦٤٠ حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس في أوروبا . وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها في أى مكان آخر في العالم . وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة . وكانت صحيفة « الأخبار ، الأسبوعية في ليدن ، وصحيفة «الجازيت» في أمستردام تقرأن في سائر أنحاء أوروبا الغربية ، لأنهما كانتا تتحدثان في حرية تامة ، على حين كانت الصحافة في تلك الأيام في أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها . وكانت الدمشة تتولى أى ملك فرنسى يطلب كبح جماح أى صحفى هولندى أو وقفه عند حده ، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه^(٩٨) وكان رجال الأدب في هولنده كثيرين ، ولكن كان من سوء حظهم

أنهم كتبوا باللاتينية التي كانت في طريقها إلى الفناء ، أو بالهولندية التي ضيقت
فضاق قرائهم . فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم ، على غرار بحريتهم
واسطه مشتركة لنقل الأدب والفكر . واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك
سبيجل أن اللغة الوطنية المفعمه بالحوية أداة لنقل الفكر والادب ، وكافحا
لتنقيتها من الإضافات الغريبة الدخيلة غير المتجانسه وغير الملائمة — وكان
كورنهرت — وهو فنان ، وكاتب ، ورجل دولة وسياسه ، وفيلسوف — أول
وأقوى شخصيه في التفتح الثقافي الذي توج الثورة السياسيّه . وبوصفه أمينا
عاما للمديته صاغ بيان ١٥٦٦ لوليم أورنج ، فأودع السجن في لاهاي ، ثم هرب
إلى كليفز وكسب قوته من مهارته في الحفر غلى الخشب والمعادن ، وترجم
الادوبيسيه وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الانجيل) . ولما عاد
إلى هولنده كافح في سبيل نشر التسامح الديني ، ورمز إلى التاريخ الفكري في
القرن التالي — السابع عشر — حين تخلى عن عقيدته التي رأى أنها قد تشوهت
وتلوّثت بالصراعات الداميه إلى حد كبير . وأصبح د لا أدريا ، معترفا بأن
الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة^(٩٩) ، وعرض في كتابه الاساسي د فن
الحياة الطيبه ، مسيحيه بغير لاهوت ، أي منهجا أخلاقيا مستقلا عن المذاهب
الدينيه . ونتيجته اشيء من الاغضاء أتيح له أن يموت ميتة طيعيه (١٥٩٠) .
وتميزت هولنده بأن رجال الاعمال فيها كثيرا ما خلطوا بين الادب وبين
شؤونهم الماديه ، من ذلك أن رومرفسكرو . وهو تاجر ثرى في أمستردام ،
ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم ، وجعل من بيته منتدى (صالونا)
يبارى منتديات فرنسا ، ونظم هو نفسه شعرا أكسبه لقب «الهولندي الشجاع» ،
أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره في بيدون على الزينرزي ملاذا لعصر النهضه
في هولنده ، فاستقبل بالترحاب في د حلقه ميودين ، الشعراء ورجال العلم
والدبلوماسيين والقواد والأطباء . وفي العشرين سنه الأخرية من حياته ،
كتب هو نفسه د تاريخ الأراضى الوطيئة ، روى فيه قصة ثورة الأراضى في
نثر قوى رائع ، جعل هولنده تكبره وتحتفل به وكأنه يمثل المؤرخ الروماني
« تاسيتس » في هولنده .

ومن بين مائة شاعر في هولنده سما ثلاثة باللغة العامية إلى ذروتها الأدبية .
منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنين وعشرين عاما ، الذى بسط
حكمة الأمثال السائرة في شعر شعبي متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحياة ،
حتى ظلت كتابات « الأب كاتس » ، لعدة قرون ، من مقتنيات كل بيت يعرف
أهله القراءة والكتابة في هولنده ، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على
كل المحن وكل الأعداء ، حتى تبوأ مكانة عالية في الأدب الهولندى . وكان
أبوه صانع قبعات نفي من أنتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العباد .
وولد جوست في كولون . وفي ١٥٩٧ استقر بالأسرة المقام في أمستردام ،
وافتح والده ، الذى تغلب من مذهب إلى مذهب ، محلا لصناعة الجوارب ،
وورث جوست عمل أبيه ولما ترك إدارته لزوجه وابنه ، على حين عمل
هو على تعويض ما فاتته من التعليم الرسمى بدراسة اللاتينية والإيطالية
والفرنسية والألمانية ، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج أغريقية
وفرنسية ، وحرص فيها على انماح نظام الوحدات بدقة . وسخر من فكرة
الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية . وافتن بجمال
الشعائر الكاثوليكية ، وبمباريات تساكاد التى كانت كاثوليكية وجميلة معا .
وبعد موت زوجها (١٦٣٤) وموت زوجته هو (١٦٣٥) توثقت أواصر
الصداقة بينهما : وفي ١٦٤٠ اعتنق المذهب الكاثولىسكى . واستمر ينتقد بشدة
الأحقاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسى ، وكسب
قلوب الهولنديين بالتمغنى بشجاعة الأراض الوطيمة ومجدها . وفي ١٦٥٧
أفلست صناعة الجوارب التى أساء ابنه إدارتها ، وهرب الابن إلى جزر الهند
الشرقية ، وباع الشاعر كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دائئيه ، وظل لعشر
سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرر نفود ، وأخيراً
أجرت عليه حكومته معاشا ، وقضى في هدوء الثلاثة عشر عاما الأخيره من
عمره الذى بلغ اثنين وتسعين عاما .

أما أعظم الشخصيات جاذبية في أدب الأراض الوطيمة في هذا العصر ،

فهو قسطنطين هيوجنس ، وهو هولندي جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة في إيطاليا . وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة في لاهاي أما ابنه كريستيان فسكان أعظم رجال العلم في القارة على عهد نيوتن ، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين في لاهاي في ١٥٩٦ . وُلِقي فيها وفي ليند وأكسفورد وكمبرج قسطا وإفرا من التعليم ، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية ، وبرع في الألعاب الرياضية ، وأصبح موسيقيا وفنانا عظيما . وفي سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى إنجلترا ، وعزف على العود أمام جيمس الأول ، وأحب جون دون الذي ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية . وفي سن الثالثة والعشرين أرسل في بعثة دبلوماسية إلى البندقية ، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قسمة برج الكماندراثة في ستراسبورج . وأصبح في ١٦٢٥ سكرتيرا لطاقفة من الحكام على التعاقب . وفي ١٦٣٠ عين في المجلس المخصوص . وفي نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بجزالة الأسلوب ورقة الشعور . وآذن موته في سن التسعين (١٦٨٧) بانتهاء أزهى عصور الأراضي الوطيئة .

٧ - الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأن عمارة كنييسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذي النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها ، وتنبط الفكر وتعوقه ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعبادات . لا بالفن ، ولم يحتفظوا في طقوسهم إلا بفن الانشاد . ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة . بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا في المقاطعات المتحدة كنائس جديدة بالذکر وفي القرن السادس عشر جلب تجار ما وراء البحار ، ربما من سوريا أو من

مصر ، ففكرة القباب البصلية الشكل . وانتشر هذا الطراز من هولنده وروسيا إلى ألمانيا ، وأصبح أحد معالم عصر الباروك في أوروبا الوسطى .

إن رجال الأعمال ، لرجال الدين ، هم الذين سيطروا على هندسة البناء . وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم — تكاد تكون كلها متشابهة ، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسه ، ولا تثير الحقد والحسد ، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت ، وفي حدائق الزهور التي عنوا بها أكبر عناية . أما المئذنتان المدنية فقد أباحوا فيها بعض الزخرف والآبهة . ففي دار البلدية التي شادها ليفن دي كى لمدينة أنتورب ، جمع في انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة ، ودار نقابة القصابين في هارلم ، التي شادها ليفن نفسه ، تضارع في فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطية . وتظهر دار البلدية في هارلم كيف أن هولنده طوحت الطراز الكلاسيكي (القديم) تماما حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها .

وكان ميكلانجلو هولنده في العبارة والنحت في ذلك العصر هو هندريك دي كيزر الذي أصبح وهو في سن التاسعة والعشرين المهندس المعماري لمدينة أمستردام (١٤٩٤) ، وهناك صمم الكنيسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية في طراز يجمع بين طرز إيطاليا وهولنده وعصر النهضة . وفي دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكاري لوليم الأول ، وفي ١٦٢٧ في روتردام ، صب من البرونز تحفته الرائعة . ألا وهي تمثال أرزم الرانع الذي قبع مساكننا لم يمض بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية . ودمر بعض من أجمل المئذنتان الهولندية التي يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الاخفاق في إدارة شؤون الدولة .

وتألفت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة . وفي روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فنا . وأقبل الناس على

استخدام خزف دلفت المزخرف في كل بيت في الأراضي الوطيئة تقريبا .
وحوالى ١٦١٠ ، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق ، بدأخزافو دلفت
في تقليد الخزف الصيني ، وأنتجوا نوعا من السيوليق (خزف مزخرف مطلى
بالمينا) الرقيق الأزرق أسموه د البورسلين الهولندي^(١٠٠) ، وسرعان ما عرض
تصف أوروبا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف .

أما أعظم الفنون جميعا في الأراضي الوطيئة فكان الرسم . وليس في
التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد - ولا نستثنى من ذلك إيطاليا النهضة -
حظى فيه أى فن يمثل هذه الشعبية العارمة . وتضم فهارس الفن فيما بين عامى
١٥٨٠ - ١٧٠٠ خمسة عشر ألف رسم هولندي^(١٠١) ، وتأثر الفن الفلمنكى تأثرا
شديدا بالفن الإيطالى ، ولكن في المقاطعات الشمالية أثارت المقاومة الموقفة
لسلطان أسبانيا روحا قومية وكبرياء قومية . لم تكونا تحتاحان إلا إلى الثروة
المستعمدة من التجارة فيما وراء البحار ، لتحدثنا انفجارا ثقافيا . فتحولوا بالفن
إلى معارج جديدة من التطويع لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كاهت تنقلص عنه
تماما الرعاية الكنسية والأرستقراطية ، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم
التجار وعمد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات
والمستشفيات ، بل حتى المنشآت الخيرية ، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية
والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية . وكان لكل مدينة هولندية تقريبا
مدرسة الفنانين الخاصة بها ، تحت رعاية محلية : هارلم ، ليدن ، أوترخت ،
أمستردام ، دوردرخت ، دلفت ، لاهاى . أما المواطنون البسطاء الذين ربما
كانوا في بلاد أخرى أميين من حيث الفن ، عالة على الكنيسة ، فإنهم هنا
زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحيانا بثمن عال ، من ذلك أن خبازا أثبت
سلامة ذوقه ، بدفع ٦٠٠ فلورين (٥٧٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لصورة واحدة
للفنان فرمير^(١٠٢) ، وكادت النزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة ، فلم يعد
للقديسين وجود في الرسوم ، وجاء التجار ، وانتصرت رسوم البيت والحقل
على الكنيسة وازدهرت الواقعية ، فنظر البرجوازي بشئ قليل من التقدير

إلى لوحة تمثله هو وزوجته ، ولكن السدود والكشبان الرملية وطواحين الهواء والآكواخ والسفن الشراعية والأرصفة الزاخرة بالبضائع ، كل هذه أحيت صورها على الجدران في سرور بالغ ، ذكريات أشياء فعلية عامة . ولقيت مناظر السكارى المرحين ورواد الحانات بل حتى المواخير ، ترحيبا في بيوت ربما كانت تعاق منذ قرن مضى صبور الشهداء القديسين وأبطال التاريخ أو آلهة الوثنيين . ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر ، حيث لم يبتهج لها الناس في مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة . وبدا في هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل لما تميز به الفن الإيطالي من عبادة الجمال والرقّة والتهذيب والوقار ، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئا أكثر من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة .

وثمة جانب كئيب حزين في صورة الأئمة التي أغرمت بالرسوم إلى حد الجنون . وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا في أغلب الأحيان من الفقر ولم يحظوا إلا بأقل التقدير . على حين أن الأرشيديوق واللوردات والأساقفة في الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين . أما في هولنده فكانت المنافسة بين الفنانين فردية ، فأتجروا للسوق العامة ، ووصلوا في معظم الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتجين والمستهلكين المشترين ، وعرفوا كيف يشترون بضمن بخس ويبيعون بسعر عال . وقلما حصل الفنانون الهولنديون أثمنا عالية ، فإن رهبرائت في ذروة شهرته لم يقبض إلا ١٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « حراسة الليل » ، ولم يحصل فان جوريين إلا على ٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « منظر لاهاي » ، وحصل الباقون على أقل من هذا بكثير ، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل ٢٧ جيلدر ، وباع ايزاك فان أومستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مائل . وكان على الفنانين الهولنديين أن يلبجوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم ، فباع فان جوريين الزنق ، واشتغل هو بيا بعباية الضرائب ، وأدار ستين فرزلا ،

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأتخموها .
أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لثلاث صفحات ، وأن ثبتا بأعمالهم المكبوزة ليزحم
كتابا ، فهلا أزوجينا لهم الشكر في الهامش (*) .

(*) - ألبرت كيب : رعاة يمزفون على المزمار (بيورورك)

- كارل فبريتوس : صورة شاب (روتردام)

- جان فان جويين ، وهو أعظم هذه المجموعة : مناظر طبيعية غاية في الزوعة ،
محفوطة في كثير من المتاحف ، من بينها قاعة كوركوران في واشنطن .

- ديرك هالس - الأخ الأصغر لفرانس : الصحبة المرحة (لندن)

- جيرار فان هنتورست : حفلة موسيقية (لنتجراد)

- توماس دي كيزر - ابن هندريك : صور شخصية جميلة في درسدن ، نابلي ،

اللوفر ، نيورورك وسيفت لوحته « درس التشريح للدكتور فريج » ١٦١٩

بزم من طويل ، لوحة رميرانت « درس التشريح للأستاذ تولب » ١٦٣٢

- كارل فان ماندر : كتب في ١٦٠٤ « كتاب رسامى الأراضى الوطنية »

الذى كاد ينافس التوذج الذى احتذاه فاسارى .

- ميشيل فان ميرفانت : صور شخصية في كثير من المتاحف

- أدريان فان أوستاد : عازفو الكمان المجرأ والممدخون (كلاهما في نيورورك)

- ايزاك فان أوستاد : السوق (مجموعة ولاس)

- فرانس بوريس الأكبر : صورة سيد مهذب (مجموعة ولاس)

- فرانس بوريس الأصغر : صورة شاب (قاعة بقى)

- بيتر بوريس : وليمة معجازية (مجموعة ولاس)

- هر كبوليز بيجرز : منظر رينين (برلين)

٨ - فرانس هالس

(١٥٨٠ - ١٦٦٦)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان في هارلم . وكان أبوه قاضياً هناك ، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس في أنتورب ، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر . ولم نسمع عنه شيئاً قط إلا في ١٦١١ ، حيث سجلت إحدى كتائب هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجه آنك . أما ما عرف عنه بعد ذلك ، فكان من سجلات محكمة شرطه (١٦١٦) حيث تروى أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحاً ، فأنب تأنيباً قاسياً ، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى . وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور . وبعد خمسة أشهر أخرى (١٦١٧) تزوج فرانس من إيزبت رينيرز . وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة (١٠٤) . وقد خلف لنا لوحه رائعة تمثله مع زوجته الثانية (١٠٥) التي عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التي بقيت في حياته ، واحتملت أملاكه وعوزه وسكره وعربدته . وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيماً ذا روح مرحة .

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحاً هائلاً في لوحته «مأدبة نقابة رماة سانت جوربس» (١٠٦) ، وهي إحدى لوحات «دولين ، الخمس التي هيأت لفرانس مكاتته العالية ، ويقصد بلفظ «دولين ، مقر المتطوعين ، الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا التبادلات الاجتماعية ، وكانوا بمثابة قوات نظامية في الكوميونات . وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فناناً ليرسم لهم صورة جماعية ، ولكن يصر كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه في الصورة مع رتبته في الجماعة ومع إسهامه في تكلفتها . فهنا هؤلاء الضباط في أبهى حلة ، يتجمعون حول مأدبة ، ويرفع أحدهم علم فرقة الغنى بالألوان . وحصل هالس على أجره لأن كلامه هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية ، تختلف عن الأخرى ، كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة.

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشر سنة من ذلك التاريخ،
ولكن هالس أنتج في هذه الحقبة رسوما تعد من روائع الفن الهولندي . من
ذلك « بائع السردين »^(١٠٧)، وهي مرة أخرى تاريخ يتمثل في وجه، ود الثالوث
المرح ، « ديونكر رامب وصديقتة » وكلاهما في نيويورك، واللوحة المشهورة
« الفارس الضاحك »^(١٠٨) . - تتجسد فيها الثقة بالنفس ، في ثياب ذات أهداب
مع طوف مكشكش حول العنق . وعلامة مزدانة بالأزهار ، وابتسامة تكاد تشبه
ابتسامة الجيوكندا في رقها . وفي هذه الفترة (١٦٥٤ ؟) رسم فزانس « صورته
الشخصية »^(١٠٩) ، وجه قوى مابح ، وعينان حزینتان تنكران زهو الملابس
الجميلة والذراعين المطويين . لقد كان الرجل منهوكا تتقاذفه الهممة على الإتيان
والسكال ، والظما إلى الخمر .

وفي ١٦٢٧ جماعت مجموعة دولين الثانية : لوحة أخرى « لنقابة ضباط
سان جوريس »^(١١٠) ، ولم تسكن في صفاء وإشراق اللوحة الأولى ، فإن هالس
تحول عمدا ، ولبعض الوقت ، عن البريق الهاديء للألوان القوية إلى التلاعب
الاشق بالأساليب الثانوية - الألوان النصفية (لاداكن ولا فاتح) والظلال
الرمادية ومخطوط الكفافية الرقيقة . وثمة لوحة دولين أخرى في هذا العام
« نقابة رماة سانت أوريان »^(١١١) ، وهي كذلك في أساليب مخففة . ولا بد
أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى^(١١٢) . وهنا
استرد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئا متمعا فريدا . وفي
١٦٣٩ رسم لوحة أخرى « لضباط نقابة سانت جوريس »^(١١٣) ولكن في هذه
اللوحة ضاع الفرد في زحمة المجموع . ولكن لوحات الدولان هذه في جملتها
أروع صور المجموعات في كل العصور ، هي توضح انطلاق الطبقة الوسطى
على مد لزوج الظهور الموسوم بالفخار والزهو ،

وفي الفترة الثانية (١٦٣٦ - ١٦٥٠) رسم هالس صورا تنادى بتخليد
ذكرها . منها « السكير المرح »^(١١٤) ، يضع فوق رأسه قبعة كبيرة تكفي لتغطية

رؤوس حشد من السكارى : ود الذى يعدو فوق الرمال ، (١١٥) ، وهو أشعت
أخبر ، فى أسمال بالية ، ولكنه فأت ، ود المتشردة أو العجرية ، تبسم وتنتفخ
فى اللوفر ، ود المهرج ، فى أمستردام ، وبلتازار كريمان الوهمى ، فى واشنطن
أها تحفة فترة ذروة النضج هذه ، فهمى لوحة هالس البانغة الاهتياز ، القائمون
على مسنشفى سانت اليزابت (١١٦) ، وهى تماثل ، أولا تماثل لوحة رمبرانت
مذوبو نقابة تجار الأقمشة التى رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة .

أن إسراف هالس فى الشراب بغير حدود . ولو أفة يبدو أنه لم يسيء إلى
فنه ، أضر بموقفه حتى فى بلد وفى عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين
والحين ابتعانا للرح والفرح . وظل يرسم صوراً ربما كانت كبقية بأن ترفع
أى فنان إلى قمة الشهرة : د ساحرة هارلم (١١٧) ، ، ود ديكرات (١١٨) ، الذى
يحرر من الوهم ، فى حاجبين كبيرين وأنف ضخمة وعينين تمان عن الشك ، ثم
رسم فى سن الثمانين صورة د شاب فى قبعة مترهلة (١١٩) ، . ولسكن فى الوقت
نفسه تكاثر الأرزاء على الفنان ، ففى ١٦٣٩ أرسل ابنه بيترا إلى مصحة
الأمراض العقلية على نفقة البلدية ، وفى ١٦٤١ وضعت ابنته الكبرى المتمردة
فى إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كان فرانس
معدماً . وفى ١٦٥٤ أقام الخباز المحلى ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتى جلد
وحجز على أدوات الرسام . وفى ١٦٦٢ توسل الشيخ الهرم المهتم للحصول
على معونة وأجيب إلى طلبه . وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشا
سنويا ، ووهبه فوراً ثلاثة أحمال من الخث ليو قد مدفأته .

ويحتمل أنه رغبة فى منح فرانس مزيداً من الصدقات ، كلف فى هذا العام
(١٦٦٤) برسم لوحتين : د مدير واملجأ الفقراء ، ود مديرات ملجأ الفقراء ، .
ويظهر فى لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان فى سن الرابعة والثمانين ، فإن
معظم التقاطيع والملاحح فيها ملطخة بشكل غامض ، على تقيض اللوحة الأخرى
التي تمثل النساء ، فإنه مما يشير الدهشة أن المهارة القديمة عادت سيرتها الأولى :

فهنأ خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممثلة مذعنة ، خمس نساء عجائز أرهقتهن الأعمال غير العادية ، عابسات متجهبات متزومات ، كما يقتضى نظامهن البيوريتانى ، وقد نسين مرح الشباب وبهفته . ومع ذلك ، يلقى بشكل ما فى هذه التقاطيع الكالحة عطف هادىء ومشاركه وجدانية حزينة . وهاتان الصورتان الأخيرتان هما آخر لمسات جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت فى فنه ، وهما الآن ، إلى جانب لوحات مجموعات الدولين ، موجودتان فى متحف فرانس هالس الذى شادته مدينة هارلم فى مكان هلجأ الفقراء .

مات هالس فقيراً معدماً (١٦٦٦) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً فى هيككل كنيسة سانت بافون فى المدينة التى اعتمدت شهرتها على الحصار الذى قاومه طويلاً ، وعلى أعمال أعظم أبنائها . ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته كاد النسيان يحجر عليه ذبوله ، ويبيع لوحاته بأبخس الأمان ، أو فى المزادات ، أو بلا شىء مطلقاً ، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه ، فإذآك إلا لأنهم تنبهوا إلى ضيق مجال فنه . فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية ولا مشاهد طبيعية ولا عصور عارية . أو إلى العجلة المدموغة بالإهال والتهاون فى طريقة عمله ، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية ، بل لطخات من ألوان متناثرة اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرأى ليملاها بالتماصيل . واليوم يتعالى الهتاف للفنان ، بشكل قد يكون مبالغاً فيه ، مما يتوازن مع طول إغفال شأنه كما يعتبر نقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم (١٢٠) . ومادام الزمن ، وهو أجدر القضاة بالثقة ، يتذبذب فى حكمه ، فلنقنع نحن بالإعجاب .

٩ - رمبرانت هارمنزفان رين

١٦٠٦ - ١٦٦٩

ولد في ليدن لأب طحان ثرى . هو جريجيت هامنز الذى أضاف إلى اسمه « فان رين » ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين . ولا بد أن الفنان أحب أباه حبا جما لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر ، فى قبعة وسلسلة ضخمتين (١) وكصراف تقود (١٢٢) وكسلا فى نبيل (١٢٣) - وجه قوى حسن التقاطع يحف به الوقار - ورسمه فى ١٦٢٩ رجلا علتة السنون بالسكابة والإرهاق (١٢٤) . كما رسم أمه اثنتى عشرة مرة ، أجدرها بالذكر لوحة « المرأة العجوز » فى متحف فيينا قاقمة منهو كوزها فى متحف أمستردام منكبة على الكتاب المقدس . وإذا كانت الأم - كما يعتقد البعض - « منونية » (تنسب إلى طائفة بروتستانتية مزمومة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة ، وصلته الوثيقة باليهود .

وفى سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدن ولكنه أنعم النظر فى أشكال أخرى غير الأفكار أو الالفاظ ، وترك الجامعة بعد عام واحد ، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن . وخيرا ما فعل ، فإنه فى ١٦٢٣ أرسل إلى أمستردام ليتلمذ على بيتر لاستمان الذى كان يعتبر آنذاك آبلز (رسام إغريقى) العصر وكان لاستمان قد عاد من رومه إلى هولنده بتوكيد كلاسيكى على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططا ممتازا . ولكن بعد قضاء عام واحد فى أمستردام عاد الشاب القلق مسرعا إلى ليدن « متلهما على الرسم بطريقته الخاصة . فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريبا ، بما فى ذلك الحمامات الصاخبة والقذارات المخزية (١٥٢) ، وتابع النهوض بفنه عن طريق تجارب عزيزة لديه فى تصوير شخصه فكانت المرأة هى النموذج أمامه وترك لنا صورا شخصية (٦٢ على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور . ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل فى لاهاي : وهى لوحة تمثل رمبرانت فى الثالثة والعشرين ، وسيا مليحا بطبيعة الحال (وهذا هو

شأن كل المرايا - تظهرنا في أجمل صورة) يتطاير شعره هنا وهناك دون مبالاة ، في ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف ، تنهى عيناه عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفائته .

والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزه . وفي ١٦٢٩ نقده أحد الخبراء ١٠٠ فلورين اجراً للصورة - وهذا أجر مناسب لمناس صغير في بلد كان فيه عدد الرسامين كبيراً مثل عدد الخبازين ، ولكنهم لا يشبهون بطونهم مثلهم . وكانت موضوعاته - بعد شخصه ووالديه - مأخوذة من الكتاب المقدس . وفي لوحته دأرميا - يرثي لخراب أورشليم^(١٢٦) ، تجلت الهالة الصوفية التي تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية . أما لوحة ، سمعان في الهيكل^(١٢٧) ، فإنها تعبر توبيخاً صادقا عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ في الإنجيل : « الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام ، (إنجيل لوقا ٥ : ٥٩) . وكلف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها في ١٦٣٨١ . وقضى هناك بقية أيام حياته .

وفي خلال سنة من وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهي « درس التشريح للأستاذ نيقولا تولب^(١٢٨) » ، وكان ثمة تشريحات كثيرة في التصوير الهولندي ، ولم تتمهن السوابق ، أو يخدش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذي كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام ، رمبرانت أن يرسمه ، وهو يقدم عرضاً في التشريح في قاعة نقابة الجراحين ، معتزماً أن يهدي الصورة إلى النقابة تذكاراً لأمناذيته ، وربما كان دكتور تولب هو الذي اختار سبعة من الطلبة ، ليكونوا معه في الصورة ، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة ، بل رجالاً ناضجين من ذوى المسكنة في الطب أو في مجال آخر ، واتهن رمبرانت الفرصة ، كل الفرصة ، ليرز الوجوه منالقة بالشخصية والذكاء . وتبدو اللجنة منفتحة على نحو غير ملائمة ، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشبه الأجيال القادمة ، ويمضى دكتور تولب في عمله في هدوء رجل متمرس واثق . أما الرجلان اللذان

يحددان النظر فوق رأس الجثة فكانا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى ممانهما ، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق لإعلانا عن ميزة رمبرانت .

وانهالت الطلبات على رمبرانت ، حتى بلغت أربعين في عامين . أما وقد امتلأت الآن جيويه بالمال، واستبد به الظمأ إلى النساء وفقد حان الأوان للزواج (١٦٣٤) . وكانت ساسكيا أولنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريري ناعم ذهبي اللون وقوام أهيئ و ثراء كاف ، وما أجمل صورة «ساسكيا» في مدينة كاسل الألمانية ، وكانت الابنة اليتيمة لمحام وقاض نرى . وربما كان عمها - وهو وسيط في تجارة التحف الفنيه - هو الذي أغراها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها ، وكانت جلستان فقط كإفيتين للتقدم لطلب يدها . وقدمت العروس صدقا قدره أربعون ألف جيلدر ، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحدا من أغنى الفنانين في التاريخ . وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها . وتحملت في صبر وجهد عبقرية شريك حياتها المستغرقة في العمل . وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة ، ولو أنها أبرزت جسمها الآخذ في التفتح والامتلاء ، وكان يدثرها في أزياء غريبة ليرسم لها «فلورا آلهة الأزهار» المشرفة الباسمة الموجودة الآن في لندن ، و «فلورا» الحزينة ، الأيسط شكلا ، الموجودة الآن في نيو يورك . وفي إحدى اللوحات في درس دن نراه وقد غمرته السعادة ، وهو يمسك بها وهي جالسة على ركبته ، تفيض منه الابتسامة على الوجه ، رافعا كأسا عالية ابتهاجا بموفور الصحة والمال .

وفي سنين اليسر هذه (١٦٣٤ - ١٦٤٣) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة . واستمر يرسم نفسه . فنراه في «صورة الفنان» (١٦٣٤) وهي الآن في اللوفر - وسيا مبهتجا ، في قبعة مزدائه بالجواهر . وسلسلة ذهبية على صدره ، ورسم في السنة نفسها «الضابط» (١٦٣٩) ، - وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبعة تغزو العالم ، ورسم لنفسه في ١٦٣٥ صورة في قبعة رائعة يكاد ريشها يداعب

السماء . ومسييا وراء الشخصية الأجل ، (١٦٣٤ د السيدة العجوز ، التي لا تبالى بنا وهي معلقة في المتحف الوطني بلندن في وجه ملأته السنون بالتجاويد . وبعد ذلك بعام واحد رسم د المرأه العجوز على الكرسي ذى الذراعين ، وهي موجوده في نيويورك . وعثر في خرائب أمستردام على رجل في الثمانينات ، ألبسه عمامة وثيابا ورسم له لوحة د رجل شرقي (١٣٠) ، وكان له ولع بجمع الثياب والمجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغربية ، تستطيع أن تراها جميعا ، فيما عدا السيف في لوحة د مليرتن داي (١٣١) ، بالأربطة والأشرطة على قفازه ، والأهداب على ثيابه والتروس فوق خذائه . والآن أيضا ، رسم موضوعات دينيه عتيقة في صورة صادقة جديدة متخذة نماذجه من الرجال العجائز والشابات اللاتي فابلهن في الشوارع - كل منها تلفت النظر في أسلوب من معالجة التفاصيل ، تأخذ بالألباب في التلاعب بالضوء ، وتثير المشاعر بتدفق العاطفة فيها الى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبداع مارسم الفنان ، ومثال ذلك لوحة «تضحية إبراهيم» (١٣٢) ، الملك روفائيل يهجر طوبيا (١٣٣) . وجاءت هذه السنوات المباركة بعدد من أشهر الصور والشخصية مثل د السيدة ذات المروحة (١٣٤) ، و د الرجل ذو القفاز (١٣٥) ، وكلتاها تجل عن الوصف ، وتقتصر عنها أية ألفاظ .

وآخر الرسوم في هذه الحقبة ، وربما أعظم انجازات رمبرانت على الإطلاق ، هي اللوحة الضخمة (١٤ × ١٢ قدما) تعرف في التاريخ باسم د حراسة الليل ، والأكثر احتمالا أن اسمها د جماعة كابتن كوك الرماة (١٣٦) (١٦٤٣) . ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل ، وليس فيها أى ظل للظلام أو أى مسقط للضوء إلا حسب حسابه ، أو أى تباين في اللون إلا وهو مدروس . ويقف الكابتن المزهو في الوسط في لون أسمر وأبيض وأحمر ، وإلى يساره قائمقام في أحذية عالية وسترة وقبعة صفراء ذهبية اللون ، والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف ، وإلى يمين الكابتن فرقة

النأي والطبول . وتغادر الجماعة مقرها إلى ما يبدو واضحا أنه عرض في أحد المهرجانات . وتعاقد رمبرانت مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم ، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين . وأحس كثير منهم بأن المساواة في الأجر لم تقابلها مساواة في التألق والعظمة في الوحة ، وشكا بعضهم من أنه وضعهم في الظل ولم يسلط عليهم الأضواء ، أو أنه قصر في تحديد ملاحظهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم . ولم يشتد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية في رسمه ، وبدأ نجمه يأفل .

ولابد أن المال كان وفيراً لديه في ١٦٣٩ لآنة اشترى في تلك السنة داراً فسيحة في شارع جودن - بريد الذي كان يقطنه أثرياء اليهود . وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين . وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط في دفعه كاملاً . وربما قصد ألا تتسع لأسرته فحسب ، بل لتلاميذه ولرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن . وبعد دفع نصف ثمن الشراء في السنة الأولى من شغل الدار ، وبقاء النصف الثاني دينا عليه ، ارتفعت فائدته التي لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الافلاس .

وفي الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا آخذة في التدهور ، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد ، مات كل منهم في سن الطفولة . وهدت ولادتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيانها . وفي ١٦٤١ أنجبت له إبناً أسماه تيتوس ، وقد بقي على قيد الحياة ، وسكن أمه فأرقت الحياة في ١٦٤٢ . وأوصت بكل ما تملك إلى رمبرانت ، شريطة أن تزول ببقية التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية . وبعد سنة من وفاتها رسم لها رمبرانت صورة من الذاكرة العامرة بحبها . وكدرت هذه الخسارة صفو حياته . وبدأ منذ ذلك الوقت أن يفكر الموت تستبد به وتقلقه . وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته ، فإنه كان دائماً يؤثر الوحدة على الرفقة ، أما الآن فقد ، أوى إلى عزلة كشيبة . وكان وهو يرسم يصرف المشاهدين الأغرار عنه قائلاً : أن رائحة الطلاء

تضر بالصحة (١٣٧) ، . ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المهذب مثل روبنز .
وقرأ قليلا : ولم يكذب يقرأ شيئا سوى الكتاب المقدس ، وعاش في ملكة
اللون والظل والضوء التي لا تنبس ببنت شفة . وهي متنوعة مثل دنيا الأدب
ولكنها غريبة عنها فريدة . وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات
الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم ، أو أن يتبادل معهم
أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكونهم وهدوئهم . وقل المترددون
عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه ، لم يكن يرضى أن يرسم
لهم رسما تخطيطيا في جلسة أو جاستين ، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم
التخطيطي ، بل آثر أن يرسم مباشرة على القماش ، الأمر الذي يتطلب جلسات
كثيرة ، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية في أن يرسم ما يفكر فيه
أو يحس به ، لا مجرد ما يرى ، ولم تكن النتيجة دائما مرضية .

ولم يكن عونا له أن تقع داره في حى اليهود . وكان قد عقد منذ ذلك
الوقت صداقات مع كثير منهم . وكان قد نقش صورة لنفسه بن إسرائيل
(١٦٣٦) . والآن في ١٦٤٧ حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودي
افرايم بونس . ولما كان الفنان محاطا باليهود من كل جانب تقريبا ، وواضح
أنه أحبهم ، فإنه وجد موضوعات تزايد يوما بعد يوم ، بين اليهود الأسباب
والبرتغاليين في أمستردام . وربما تعرف على باروخ سبينوزا الذي عاش في
هذه المدينة من ١٦٣٥ . وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهوديا .
وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتى . وكانت ملاحظته
تنطق بأنه هولندي ، ولكن لم يعرف عنه أى تحيز ملحوظ بالنسبة للدين
أو الجنس . وثمة عمق خاص لتفاهمه الموسوم بالعطف في رسومه لليهود .
لقد اذنت بشيوخهم ولحاهم التي تقطر منها الحكمة وعيونهم التي تشف عن الحزن
والأسى . وإنك لتجد نصف العذاب النفسى عند العبرانيين ماثلا في وجه
اليهودى العجوز ، وهي اللوحة التي رسمها رمبرانت ١٦٥٤ والموجودة الآن

في الارميتاج (لننجراد) ، وفي لوحة «الخبز» (الخاصة) (١٦٥٧) في لندن
وفي هذه اللوحة الأخيرة صورة الخبز الذي وأسى رمبرانت بعد وقوعه في
الضائقة المالية وأمدته بمعونة مادية .

وتراه في ١٦٤٩ يرسم هندريكا ستفلز في المخدع ، (١٣٨) ، وتدرك أنه
أخذ خليفة . وكانت وصيفة ماسكيا ، وبقيت مع الفنان الأرميل وعينت به
عناية فائقة ، وسرعان ما سرت عنه بجملة جسمها . أنه لم يتزوجها لأنه كره
أن يتخلى عن تركه ماسكيا لآبنة تيتس الذي كان بعد صبياً في الثامنة من العمر .
وعندما رسم هندريكا في ١٦٥٥ (١٣٩) ، كانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عيني
تلازمها هفة مكتئبة ، وربما كانت هي التي جلست أمامه مرتين لتجربة
أو دراسة فن رسم العاريات : في ١٦٥٤ «باشيا في الحمام» (١٤٠) و «امرأة
تخوض» (١٤١) وكلتاها آية في العظمة من حيث الألوان والاتساع . وفي يولية
من هذا العام دعيت للمثول أمام شيخ الكنيسة ، حيث أنبت تأنيبا قاسيا على
اقترافها الزنى ، وحرمت من تناول القربان المقدس . وفي أكتوبر وضعت له
طفلا اعترف رمبرانت ببذوته ، ودبر أمر تعميده بسلام ، وعرف كيف يجب
خليلته حبا عميقا كما أحب زوجته ، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها
بكل هذه الرقة حين صورها ١٦٥٨ في رداء أحمر يلتئم مع شعرها (١٤٢) .
وكانت زوجة أب فاضلة لتيتس الذي أخذ يتزعزع صبيا فائنا . ويمكن أن
تراه في متحف متربوليتان للفن ، وهو في الرابعة عشرة ، جميلا كالبنات ،
ذا عيني تتمثل فيهما حيرة الشباب ، تريكة الحياة ، يجد شيئا من الطمأنينة
والآمان في حب أبيه ، وتراه مرة أخرى في مجموعة ولاس ، وقد سلخ عاما
آخر من العمر . وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه
رمبرانت الذي انصبت على رأسه الكوارث المالية في هذه السنة .

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقتصد في الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده
ونفقاته . وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقيقة - حقبة

الزنى والديون (١٦٤٩ - ١٦٥٦) منها ديعقوب يبارك حفيدته (١٤٣) ، ،
و د المسيح عند التبوع (١٤٤) ، ، و د المسيح وامرأة سامرأ (١٤٥) ، ، و د النزول
من الصليب (١٤٦) ، . ومهما يكن من أمن فإن الصور الكنسية لم تكن مطلوبة
في هولنده البروتستانتية ، ومن ثم جرب يده في الأساطير ، ولكنه لم ينجح
إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص . ولم تكن لوحة داناى (١٤٧) ،
جذابة . أما د أتينا (١٤٨) ، و د مارس (١٤٩) ، فسكانتا فريدتين في باهما .
وظل يرسم صوراً شخصية تأخذ بمجامع الألباب . فإن صورة د نيقولا
بروننج (١٥٠) ، قد التقطت في لحظة مشرقة بالحياة والفكر ، وصور د جان
سكس (١٥١) ، تمثل عمدة المدينة الهولندى في ذروة قوته وأسعد أوقاته ، كذلك
فإن رمبرانت رسم في هذه الفترة بعض أشخاص غير ذوات أسماء ، بعد دراسة
عميقة : د الرجل ذو الخوذة الذهبية (١٥٢) ، ، و د الراكب البولندى (١٥٣) ، ،
و د كوزيلوس فاند المائة (١٥٤) ، ، وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى
إلى جانب هذه ، ذات بريق سطحي .

وكان رمبرانت في سن الخمسين حين وقعت الكارثة . أنه قلما اهتم بأن
يحسب ماله وما عليه ، واشترى دون مبالاة الدار والفن ، بل أسهم شركة الهند
الشرقية (١٥٥) . والآن وقد تخلفت معونات نصرائه ورعانه كثيراً عن الوفاء
بمتطلباته ، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس . وفي
١٦٥٦ ، ورغبة في حماية تيتس ، نقلت د محكمة الأيتام ، في أمستردام ، ملكية
البيت الأبيض إلى الابن ، ولو أنه سمح للوالد في الإقامة هناك لبعض الوقت .
وفي شهر يولية أعلن افلاس رمبرانت ، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته
في عجلة كلفته كثيراً (١٥٦٧ - ١٦٥٨) . ولكن العائدات كانت أقل كثيراً
من أن تفي بالتزاماته . وفي ٤ ديسمبر ١٦٥٧ طرد من الدار ، فتنقل من بيت
إلى بيت حتى استقر به المقام في روزنبراخت في د حارة اليهود ، . وأخذ من
هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تيتس ، الذى كون مع هندريكا
رغبة منهما في حماية رمبرانت ، شركة أمكن بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

أن تؤول إلى دائنيه . ويبدو أنهما أوليا الفنان الذي تقدم به السنون ،
عناية كبيرة .

واستمر زمبرانت وسط هذه البلايا والحن ينتج الروائع : درجل على
ظهر جواد ، وقد بيعت حديثا إلى المتحف الوطنى فى لندن مقابل ٤٠٠ ألف
دولار ، واللوحة العجيبة د رأس رجل عجوز (١٥٦) ، - وكأنه كارل ماركس
فى الثمانينات متحرر آمن الأوهام ، واللوحة الطبيعية المنعمة بالحوية بدرجة
مدهشه د امرأة تقص أظافرها (١٥٧) ، - وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية
تنظيف الجسم كله ليلة السبت . وربما رسم آنذاك أيضا بعض صور مروعة
للفنان نفسه مثل : د زمبرانت وكراسة رسومه التخطيطية ، (١٦٥٧) ، وهى
موجودة فى درسدن ، ثم اللوحة الأكثر شهرة التى يبدو فيها وجهه العائس المتحهم
وجسمه البدين المدر (١٦٥٨) وهى فى مجموعة فريك فى نيويورك ، وصورته
بكامل جسمه (١٦٥٩) وهى فى فيينا ، وصورة الوجه الذى يعرفه القلق
والهموم (١٦٥٩) فى واشنطن .

وفى العقد الأخير من عمره (١٦٦٠ - ١٦٦٩) سهر للبقاء على حياته
ابنه وخليلته . ولكن كان مسكمنه ضيقا ومرسمه سىء الإصاءة ، ولا بد أن
يديه فقدتا بعض أترانهما وثباتهما نتيجة كبر السن والشراب ، فلوحة د القديس
متى الإيجيلى (١٥٨) ، غير مصقولة فى تركيبها ، ولكن الملاك الذى يهمس فى أذنه
لم يكن سوى تيتس الذى بلغ الآن العشرين من العمر ، ولا يزال جميلا
كالعروس . ثم جاءت فى تلك السنة (١٦٦١) آخر رواائع الفنان : د خبراء
نقابة تجار الأقمشة (١٥٩) ، فإن فاحصى القماش والمرافدين كلفوا الفنان بأن يخلد
ذكرهم بصورة جماعية تعلق فى دار رابطتهم . وربما كنا نغتمر بعض التردد
فى التركيب ، وبعض الفجاجة فى التفاصيل وبعض التقصير فى إسقاط الضوء
ولكن النقد فى حيرة من الأمر ليعثر على غلطة فى الصورة . فإن أمامية الصورة
وخلفيتها اللتين تمسكن منهما الرسام جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

عين الرائي دكل منها شخص واحد منفصل ، ، ولكنهم جميعا التقطوا في نفس اللحظة الحية التي التقى فيها تفكيرهم . وفي كثير من الوحات التي رسمت في سنوات النهدم والتدهور هذه ، يجد الخبراء علامات على إلتئار الطاقة وإلتحطاط الأسلوب بساطة الألوان ، إهمال التفاصيل ، العجلة في جريان الفرشاة وعدم الصقل . ولكننا ، حتى في هذه الأيام نجد صوراً أخاذة ، مثل دعود السخى (١٦٠) ، - وهي تشخيص لاينسى للصفح المحبب إلى النفس ، ود العروس اليهودية (١٦١) ، وتلك ثمرة عجيبة مدهشة تأتي من شجرة تذوى وتذبل .

ولكننا لم نذكر شيئاً عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره . ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الطبيعية ، ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران : د مشهد أمستردام ، بالقلم والخبر . الموجود في فيينا . ود المرأة المعجوز جالسة ، في برلين . ويعد إنتاجه في الحفر مضارعا لأحسن ما أنتج في ، اونج هذا الفن الشاق المجهد . وعرف أحد أعماله في هذا الفن د المسيح يشفى المرضى ، ، بأسم د القطعة ذات المائة جيلدر ، لأنها اشترت بثمن لم يسبق له مثيل (١٢٠٠ دولار ؟) . على أن نسخة منها على أيه حال قدرت في ١٨٦٧ بمبلغ ٣٥ ألف فرنك (٢٠ ألف دولار ؟) .

أن ٣٠٠ من أعمال الحفر ، ٢٠٠ من الرسوم و٦٥٠ من اللوحات منجزات مبرأنت لاتزال باقية ، تكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير ، وتكاد تكون متنوعة أصيلة عميقة مثلها . وكلها تقريبا من صنع يديه . فعلى الرغم من أنه كان له مساعدون ، فإن أحدا منهم لم يشاركه سره في الكشف عما خفى وما لا يرى (١٦٢) . وكانت بعض أعماله رديئة وبعضها منفرأ ، مثل د الثور المسلوخ ، في اللوفر . وكان أحيانا يستنفد كل جهده في الأسلوب الفني وفي أحيان أخرى يتجاوزه من أجل الرؤيا ، أي رؤيا الفنان نفسه . . . وكان ، مثل الطبيعة ، يتخذ موقفا محايدا بين الجمال والقبح ، لأن الصدق عنده كان قوة

الجمال، وإن الصورة التي تمثل القبح حقا وصدقا هي صورة جميلة . وأبى أن يضيف أشكالا مثالية على الشخوص في لوحاته الدينية ، وأرتاب في أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم في التوراه على مستوى جمال اليهود في أمستردام ، فصورهم على هذا النسق، ومن ثم أنبعثوا من عالم الاساطير أو التاريخ إلى الحياة . ولزاد شيئا وشيئا مع تقدمه في السن ، حبه للسطاء من الناس حرله ، لاجب من جردهم السعي وراء الكسب من الروح الإنسانية . وعلى حين أن بعض الفنانين ، مثل روبنز ، التمسوا موضوعاتهم بين أبواب الجمال أو السعداء أو الأفوياء وأصحاب السلطان ، فإن رمبرانت كان يسخر بفننه الخنون على المنبوذين والمرضى والمؤساء ، حتى المشوهين ذوى العاهات ، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو يهزأ به ، فقد بدا أنه على غير وعى منه ، يجسد موقف السيد المسيح وويتان تجاه أولئك الذين أحققوا ، أو أبوا أن يشتركو ، في صراع كل إنسان مع سائر بني الإنسان .

ولدى نظرة أخيرة عليه في صورته الشخصية في شيخوخته . وليس هنا زهو أو خيلاء ، بل على النقيض ، أنها قصة حياة الفنان بمرشاته هو ، في أيام الحنية والهزيمة . أنه عندما صور نفسه ١٦٦٠ ،^(١٦٣) كان لا يزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام ، فإن الوجه القصير السمين غير الخلق كان ساخرا ولم يكن حزينا ، وكان لا يزال يتحرك قدما . ولكن في صورة أخرى^(١٧٤) في نفس العام ، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه ويكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفي ١٦٦١ رأى نفسه^(١٧٥) في نفس الحيرة والإرتباك . ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية . وصور نفسه في عامه الأخير^(١٦٦) ، وكأنما وجد الظلمة وهدوء البال في إرتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر . وماتت هندريكا ١٦٦٢ ، ولكن ظل تبس بمتعه بمنظر الشباب ، وفي ١٦٦٨ ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه . ولما لحق الابن بالخلبة في هذا العام نفسه ، فقد الفنان قدرته على التشبث بالحياة . وجاء في سجل

الوفيات في الكنيسة الغربية في ٨ أكتوبر ١٦٦٩ مبرانت فان رين - الرسام...
يترك طفلين . .

وكاد معاصروه ألا يلحظوا وفاته . وليلحلم أحد منهم قط بوضعه في مرتبة
روبنز ، أو حتى فانديك . وكتب عنسه معاصره - جويشم (يواقيم)
فون ساندرات أن ما كان يعوزه أساسا هو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن
التي تهىء الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن . (ويبدو لنا الآن أن هذا
هو سر عظمته) . ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل ، وأبدى
مزيدا من اللباقة في المجتمع ، فلربما أصبح أكثر ثراء ، ولقد عانى فنه من ميله
إلى صحبة السوقة (١٦٧) . وانفق رسكدين مع مؤرخ الفن الألماني حيث قال :
« أن الفظاظلة والتبلد والتجرد من التقوى تعبر دائما عن نفسها في الألوان السمراء
والرمادية ، كما هو الحال مع مبرانت أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا
ما تقع عليه أعينهم في وضع النهار أو في ضوء الشمس ، ولكن مبرانت
كان يسعى إلى رسم أقدر الأشياء التي يراها وأبشعها - في ضوء شمعة ، (١٦٨) .
ولكن يوجين دى لاكروا الذي عكس التطورات الديمقراطية في فرنسا
قال د ربما يأتي يوم نجد فيه مبرانت رساما أعظم من رافاييل . وأنى لأكتب
الآن - دون تحيز - هذا التجديف الذي لا بد سوف يسبب إلتصاف شعر
الأكاديميين غضبا ودهشة (١٦٩) . وينزع النقد اليوم إلى رفع مبرانت فوق
مرتبة رافاييل وفلاكويز ومساواته فقط بالفنان الجريكو (١٧٠) وإنا لنذكر أن
« الصدق ، هو وظيفة الزمن وتابعه .

أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى مبرانت - بين الضوء البهيج والظل
الكثيب ، بين الهاوية والحاشية ، بين نبيل أتورب السعيد بانغماسه في اللهو
والفجور في وطنه في القصور مع الملوك ، ومفلس لمستردام الذي عرف أحط
الاعماق ، ولازم الحزن والأسى . إنك إذ ترى هذين الرجلين هلى أنهما عنصرى

طباق في تناغم قوى ، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمه صغيرة صارت
إمبراطورية عملاقة، كما تحس بتعقيد المدينة التي استطاعت أن تنتج ، في ناحية،
ثقافة كاثوليكية تزين إبتهاج مذهبها الذي لا يرقى إليه الشك ، بالأساطير
وأضرحتها العريضة عليها بالفن ، وفي الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية
استطاعت أن تفدى وتربى أعظم فنان وأعظم فيلسوف في ذلك العصر .

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

١٥٥٩ - ١٦٤٨

١ - الدمرك دولة عظمى :

فانلق نظرة على الخريطة . فإن الخرائط مثل الوجوه ، هى اشارات التاريخ وتوقعاته .

عندما ارتقى فردريك الثانى العرش ١٥٥٩ كانت الدمرك من أقوى الدول وأكثرها امتدادا فى أوربا ، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الخدق والحكمة أن تكون صغيرة . وفى الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق ، كانت الدمرك هى المنتصرة فى بداية الأمر ، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج ، وعبر السكاتينجات إلى ما هو الآن جنوب السويد . واستولت على المدن الاستراتيجية كونهاجن وهلسينور فى الجانب الغربى ، ودالمو وهلسنبورج فى الجانب الشرقى من الأوريسوند أو السوند - أى المياه العاصفة التى لا يزيد اتساعها فى مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل . والتى تفصل الآن الدمرك عن السويد . واستولت فى أقصى الشرق ، فى معظم هذه الفترة . على جزر بورنهم وجوتلاند وأوسل ، وبذلك تحكمت فى بحر البلطيق . وكانت تضم فى الجنوب دوقى شلزويج وهولستين ، كما حكمت فى أقصى الشمال الغربى أيسلنده وجرينلاند وكانت الضرائب والرسوم التى فرضتها الدمرك على التجارة المارة عبر المضائق بين البحار هى المصدر الأساسى لموارد المملكة والسبب الرئيسى فى حروبها . وكانت السلطة السياسية فى أيدي ثمانمائة من النبلاء ملكو نصف الأرض

وجعلوا من الفلاحين أرقاء ، وانتخبوا الملك ، وحكموا البلاد عن طريق
الريشستاخ أو الديت الوطنى (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة .
وأفادوا من حركة الإصلاح الدينى بامتصاص معظم الممتلكات التى كانت
تابعة للكنيسة من قبل . وفى مقابل إعفائهم من الضرائب ، كان متوقعا منهم
ولكنهم رفضوا فى أغلب الأحيان ، أن يسلموا فلاحهم ويقودهم إلى
الحرب ، إذا استنزم الملك . ولم يحظ رجال الدين البروتستانت المحرومين من
الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسى ضئيل ، ومهما يكن من أمر فإنهم
سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب ، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتا وتراتيل .
ونعم جمهور السكان . وقد بلغ عددهم نحو مليون ، بالاسراف فى الطعام
والشراب ، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلا : « إبه لمن الأفضل للناس
أن يشربوا الخمر إلى حد التل مرة فى كل شهر ، وعندى لهذا أسباب قوية ،
فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق ، ويسهل التبول والتنفس ويحلب
السعادة الرفاهية عامة (١) .

وظهر فى هذه الحقبة شخصيتان ديمقيتان من حقهما على التاريخ أن
يذكرهما : تيكوبراهى أعظم الفلاسكيين فى هذا الجيل ، وكريستيان الرابع
الذى لم يكن ملكا على الدنمرك لمدة متين عاما (١٥٨٨ - ١٦٤٨) فحسب ، بل كان
يمكن كذلك أن يتزعم الناس بصرف النظر عن الأصل الملكى . ولإنا نمر مرورا
بها براهب والده فردريك الثانى لتذكر أن المهندس المعمارى الفلمنكى أنطونيو س
فان أوبرجر صمم له (١٥٧٤ - ١٥٧٥) حصن قصر كرونبورج فى
هلسينور - « السينور هملت » .

وعنما مات فردريك ١٥٨٧ كان كريستيان صبيا فى الحادية عشرة ، فتولى
الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء ، ثم قبض كريستيان على
زمام الأمور ، وطيلة نصف القرن التالى . نعم بحياة مترفة فى بذخ وحيوية
ونشاط متعدد الجوانب ، بما أدهش كل أوروبا ، وبز الملك توجيهات الحلاق

الجراح سالف الذكر ، لأنه كان بانتظام في حاجة إلى من يعاونه في العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة . وبلغ دنسه وتهتكه جدا لم يتفوق عليه فيه إلا لقليل من رعاياه . وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة في علم المحاسبة . وغض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية ، وأجبهه لأنه كان يرقص في أعراسهم واشترك في أعمالهم وخطب بحياته كثيرا لخدمتهم ، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم ، وتدوفا مشقفا للفن ، وعقيدة دينية هيسرة لم تثر أى جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة ، أو أى وخز للضمير حول المزاح والهزل . وساعد في أوقات فرغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأ التجار) إحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة في أوروبا ، وضاعف برنامجه للبناء من محيط المدينة^(١٢) وفي عهده شيد قصر روزنبورج ، وسرعان ما قامت بعده سوق الأوراق المسالية (البورصة) بواجهتها الممتدة امتدادا كبيرا ، وارتفع برجها اللؤلؤي عاليا . وأصلح كريستيان حكومة الترويج وطور صناعتها وأعاد بناء عاصمتها التي حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون : دكريستيانا ، (سميت أوسلو ١٩٢٥) . وفي الدنمرك أصلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن ، ورفع من مستوى الفلاحين في الضياع الملكية .

وأضح الطمع بالملك ، ذلك أنه كان يروده حلم توحيد اسكنديناوه بأسرها تحت حكم رجل واحد ، أى تحت حكمه هو . ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد ، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساسا حرب الكلمار على السويد (١٦١١ - ١٦١٣) . وما أن قامت حرب الثلاثين عاما حتى وجد نفسه على كره منه ، متحالفا مع السويد ، دافعا عن قضية البروتستانت . وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (١٦٤٣) ولو أنه كان في السابعة والستين من العمر . وقاد قواته الهزيلة في حماسة رومانتيكية . وفي معركة كولبرج البحرية (١٦٤٤) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من أصابته بعشرين جرحا ، وفقد إحدى عينيه ،

وأحرز نصرا مؤقتا . وثبت في آخر الأمر أن السويد أقوى ، وحررها
صلح برومسيرو ١٦٤٥ من دفع الرسوم على تجارتها في مياه السويد ، وتخلي
لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات في شبه جزيرة اسكنديناوه . وعندما
مات كريستيان الرابع ، بعد خمسين عاما من أعمال بناءة وحروب هدامة
كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش . ودالت دولة الدنمرك
وسطوتها .

٢ - السويد : ١٥٦٠ - ١٦٥٤

١ - المذاهب المتصارعة : ١٥٦٠ - ١٦١١ :

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ
البروتستانتية ومخلصها ، تلبد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع الدينية
من أجل السلطة السياسية . وكان المليك (الفاسا) الأول قد حرر السويد من
نير الدنمرك . ووجد البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية . على حين أن
أولي جاركيات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولندية وعلى الاقطاع
فيهما . وكان الفلاحون في السويد أحراراً ، وكانوا يمثلون في مجلس الدنمرك
(الركدساج) مع النبلاء ورجال الدين ويمثل المدين . وكانت لفظه
بوند Bondo التي كانت تعني في الدنمرك الرقيق ، تعني في السويد لقباً كريماً
للرجل الحر الذي يفلح أرضه الخاصة به . ولكن المناخ كان يحد من موارد
الأرض بشكل قاس ، كما كان يحد منها قلة عدد السكان ، وسيطرة الدنمرك
على ثلاث مقاطعات في شبه الجزيرة الاسكنديناوية وعلى مياه السويد .
وامتلات قلوب النبلاء غيظاً بسبب خضوعهم من جديد للملك ، وكانت
الكنيسة قد جردت من أملاكها في السويد ، فدأبوا على تدبير المؤمرات
للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش .

ولم يكن أريك الرابع عشر - ابن جوستاف فاسا - (١٥٦٠ - ١٥٦٨)

مؤهلا لمواجهة هذه المشاكل . لقد كان يتحلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طبعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته ، وأدى به إلى القتل والجنون . وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم ، قتل هو أحدهم بيده . وواصل ضد الدنمرك د حرب السنين السبع الشمالية (١٥٦٣ - ١٥٧٠) . ومهد بغزو ليفونيا لحروب مقبلة . ونفر منه أخاه جون باعتراض سبيله في زيجة كان يمكن أن يجعل منه وريثا لعرش بولنדה ، فلما تزوج جون ، رغم أنف أخيه ، من الأميرة كاترين جاجللو ، احتجزه أريك في قلعة جريشولم . وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلات السجن ، وأغرت به باعتناق المذهب الكاثوليكي . وفي ١٥٦٨ أرغم أريك أخوته على التخلي عن العرش . وبعد ستة أعوام قضاه في السجن أعدم بأمر من الملك الجديد .

وعقد جون الثالث (١٥٦٨ - ١٥٩٢) صلحا مع الدنمرك ومع النبلاء ، وأذكى نار الخلاف الديني من جديد . فإن زوجته كانت تغريه في الليل ، أكثر منها بالنهار ، باعتناق الكاثوليكية . وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد متسكرين ، وأخذ أقدارهم ، وهو أنطونيو بوسيفون ، على عاتقه تحويل الملك إليها ، وكان وخز الضمير قاسيا كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه ، وأن عذاب النار هو العقاب الذي لامر منه لخطيئة مثل هذه . ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا منجاة من هذا الجحيم الذي ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران في الكنيسة التي يعتقد الناس جميعا بأن السيد المسيح هو الذي أقامها . وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية ، ووعد بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين في الزواج ، وأن يقام القداس باللغة الوطنية ، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والخبز على السواء . وقصد بوسيفون إلى رومه ولكن البابا رفض الشروط . فعاد الجزويتى صفر اليدين . وأصدر جون أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلانوعية وبتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا . وماتت كاترين الكاثوليكية في ١٥٨٤ . وبعد ذلك بعام واحد

تزوج جون من سيدة بروتسالتية رده ثانية إلى المذهب اللوثرى ، في الليل أكثر منها بالنهار .

وفي أغسطس انتخب لإبنه الكاثوليكي لعرش بولندا تحت اسم سيجسمند الثالث . ووفقا لقانون كالم اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سيجسمند ملكا على بولندا والسويد معا . ولكن سيجسمند آلى على نفسه أن يحترم استقلال السويد السياسي والمذهب البروتستانتى . وعند وفاة جون (١٥٩٢) انعقد مجلس الديت تحت رئاسة أخيه الدوق شارل في مدينة أبسالا (٢٥ فبراير ١٥٩٣) وكان يضم ٣٠٠ من رجال الدين و ٣٠٠ من العلمانيين - النبلاء ويمثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين ، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثرى ١٥٤٠ مذهباً رسمياً للكنيسة والدولة في السويد . وأعلن هذا المجتمع التاريخي (مجمع أبسالا) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية وان تتسامح مع غيرها ، وألا يعين في المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثريون الأقحاح وألا يتوج سيجسمند في السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادئ . وفي الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائبا للملك عند غيابه عن العرش .

ولكن سيجسمند الذي تلقى تعليمه على أيدي الجزويت ، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حظيرة الكاثوليكية . ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر ١٥٩٣) وجد كل الزعماء السويديين تقريرا بجمعين على طلب أوثق ضمان لإمثاله لإعلان أبسالا . وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط ، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم ، وجمع الدوق شارل جيشا . وأخيرا أعطى سيجسمند التعهد المطلوب ، وتوجه أسقف لوثرى في أبسالا (فبراير ١٥٩٤) . ولكن سرعان ما أصدر سيجسمند بيانا احتجاج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد ، وعين ستة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين في السويد ، وفي أغسطس عاد أدراجه إلى بولنده .

وأعد الدوق شارل وأنجر مانوس رئيس أساقفة أبسالا العدة لتنفيذ

قرارات المجمع . ودعا مجلس الديت في سودر كوينج (١٥٩٥) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية ، ونفى كل الطوائف المعارضة المذهب البروتستانتي ، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية ، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للسكناس (٣) . وأغلق كل ما بقي من الأديار ، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية .

وتوسل إلى مجسمند مستشاروه أن يغزو السويد بجيش كبير . ورأى هو أن خمسة آلاف جندي تفي بالغرض . وخط رحاله بهم في السويد (١٥٩٨) واشتبك معه شارل في ستجرج فهزم . وفي اشتباك آخر في ستانجبرو انتصر الدوق . ووافق مجسمند من جديد على إعلان أبسالو وعاد إلى بولنده . وفي يولية ١٥٩٩ خلعه الديت السويدي ، وأصبح الدوق شارل الذي ما زال نائبا للملك ، الحاكم الفعلي للدولة . وأقر مجلس الديت (١٦٠٤) قانون الوراثة الذي نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضى العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك في السويد . وفشل أمير ينحرف عن مبادئه أو جزبرج لا بد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه (٤) ، ومن ثم كان الطريق معبدا لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد ، ولتنحلي حفيدته كريستينا . وفي ١٦٠٧ توج شارل التاسع ملكا .

وأصلح شارل الحكومة المختلفة ، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة ، وأسس مدن كارلستاد فيليبستاد وماريستاد وجوتبورج ، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذا طيبا إلى بحر الشمال ، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرك على المضائق . وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل ١٦١١) وغزا السويد . وتحدى شارل ، وهو في الحادية والستين من العمر ، كريستيان لمبارزة فردية . فرفض هذا الأخير . ومات شارل في أكتوبر ١٦١١ ، والقتال على أشده ، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال « أنت لها ، . وقد كان لها فعلا (٥) .

٢ - جوستاف أدولف ١٦١١ - ١٦٣٠ :

وكان أعظم شخصية رومانتيكية في تاريخ السويد ، وهو في سن السادسة عشرة آنذاك . وكانت أمه ألمانية ، ابنة الدوق أدولفوس هولتين جوتورب . ولقنه أبوه وأمّه تعليماً صارماً في اللتين السويديّة والألمانية وفي المذهب البروتستانتي . وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية . والتقط بعد ذلك شيئاً من الإنجليزية والأسبانية ، بل حتى البولندية والروسية ، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه في الألعاب الرياضية والشئون العامة وفنون الحرب وبدأ في سن التاسعة يشهد جلسات الديت ، واستقبل السفراء في الثالثة عشرة وفي الخامسة عشرة حكم إحدى المقاطعات ، وفي السادسة عشرة اشترك في القتال . وكان طويل القامة وسيماً دمثاً كريماً رحيماً ذكياً ، بأسلاً . وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا في الرجل ؟ وكانت له في السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة ، سارعوا طائعين مختارين إلى خدمته .

ولم تبرز في جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردي والعنف ولكنها برزت في حبه للحروب . لقد ورث عن أبيه حرب الكلمر ضد الدنمرك ، ففاز الحرب عليها في حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك مسيلاً بعيداً عن الرشد والهدوء ، فدفع للدنمرك في ١٦١٣ مليون طالير (عملة ألمانية قديمة - ١٠ مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضائق ومياه السويد . وفي هذه المرحلة من نشاطه كان مهتماً بإبعاد روسيا عن البلطيق ، فكتب إلى أمه يقول : « إذا أدركت روسيا قوتها في أية لحظة ، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندا (وكانت آنذاك جزءاً من السويد) من الجانبين فحسب ، بل تستطيع كذلك حشد أسطول في البلطيق ، يعرض أرض الأجداد للخطر »^(٦) فأرسل أعظم قواده دهاء - جاكوب

دى لاجاردى - ليغزو انجريا ، وفي ١٦١٥ حاصر بنفسه بسكوف . وكانت المقاومة الروسية مرهقة ولكن بالتهديد بالتحالف مع بولنده ، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (١٦١٧) يعترف بسيطرة السويد على ليهونيا واستونيا وشمال غربى انجريا ، بما فى ذلك لشجراد الحالية . وسدت بذلك منافذ البلطيق أمام روسيا . وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسيير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد .

ثم ولى وجهه شطر بولنده حيث كان هلييكها سحجسمند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد . وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولنده ، ومتلفه على فرصة تسنح للسيطرة على السويد ، وفوق ذلك كانت بولنده بما لها من ثغور قوية فى دانزج وميل ولييو وريغا ، منافسا أقوى من روسيا ، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه . وفى ١٦٢١ قاد جوستاف ١٥٨ سفينة و ١٩ ألف جندى لحصار ريفا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولنده ، وكانت غالبية سكانها من البروتستانت ، وقد لا يستأون من غزو سيد أجنبي لها . فلما استسلمت دون مقاومة ، عاهاها جوستاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه ، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولنده ، استطاع هو أن يقوى روح جيشه وضمه ونظامه ، وجعل - مثل معاصره كرومويل - من التيق والورع أداة للخلق العسكرى . ودرس فن موريس ناسو العسكرى ، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة والاستراتيجية البعيدة النظر . واستقدم من هولنده خبراء فنيين ليعلما رجاله تكديك الحصار واستخدام المدفعية . وفى ١٦٢٥ عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوريات ، وثبت سيطرة السويد على ليهونيا ، وأوجد البلطيق تماما فى وجه لتوانيا . وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية ، وكانتا خاضعتين للتاج البولندى . ولم تصمد سوى دانزج . وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية وطردها الجزويت . وجعلت اللوثرية المذهب الرسمى . وكانت

أوروبا البروتستانتية ترنو إلى جوستاف ، على أنه منقذها المنتظر في الحرب
السكبرى التي كانت تحتاج ألمانيا آنذاك .

وفي أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلية بذكاء وحنكة
أقل منهما في الحرب . وكان أيام غيابه في المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء
وكان يبيع لهم ، ضمانا لولائهم ، احتكار المناصب وشراء أراضي التاج الشاسعة
لقاء ثمن زهيد . ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية
 وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء .
 وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات ، وأغدق بسخاء على جامعة أوبسالا ،
 ونهض بالتعدين وعلم المعادن . ولم يكن نجاحا يسيرا ، من بين ما حققه من
 نجاح في مجالات مختلفة ، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة
 لصناعة الأسلحة . وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات ،
 ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازاً . وروع وزيره أوكسنستيرنا ،
 الذي عرف بهدوئه في مواجهة الأزمات ، بطاقة مليسكة ونشاطه فقال : « إن
 الملك يشرف على المناجم والتجارة ، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير
 موجه الدفة سفينته »^(٧) ، وتوسل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه ، فأجابه
 الملك بقوله : « لو كنا جميعا في مثل برودتك لتجمدنا ، فرد عليه الوزير بقوله
 « ولو كنا جميعا في مثل حرارة جلالتيكم لاحترقنا »^(٨) .

وكان الآن لزاما أن تندس الحمى المدمرة التي تضطرم بين جنبي الفارس
السويدي إلى «حرب الثلاثين» ، فقد قال : « إن كل حروب أوروبا يعلق
 بعضها ببعض »^(٩) ، وكان قد لحظ بقلق بالغ انتصارات ولنشئين وتقدم جيوش
 آل هيسبرج في شمال ألمانيا وانهيار مقاومة الدنمرك ، وتحالف بولنده مع
 النمسا ، وهما كاثوليكيان ، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هيسبرج
 إلى السيطرة على البلطيق . وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعقيدتها وحياتها
 تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية . وفي ٢٠ مايو ١٦٢٩ أرسل جوستاف
 إلى مجلس الديت السويدي تحذير من خطه ولنشئين في أن يجعل من البلطيق

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج . وأوصى بالهجوم على أنه خير وسيلة للدفاع ، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتمويل دخوله في معركة فاصلة (هر مجدون مع سهل مجدو - العهد الجديد روثا يوحنا ١٦ : ١٦ - معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية . وكانت السويد مثقلة فعلا بأعباء حملاته ، ولما كان مجلس الديت والشعب إستجابا لندائه وبمونة ريشايو أقنع بولنده بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر ١٦٢٩) . وقضى أسعة شهور في جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء . وفي ٣٠ مايو ١٦٣٠ خطب في الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة ، وكأنما كان قلبه يحدثه بأنه لن يرى السويد ثانية . وفيما بين ٢٦ - ٢٨ يونية ألفت سفنه مراسيها على جزيرة على مسافة من شواطئ بوميرانيا ، وأنطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معا .

٣ - الملكة كريستينا ١٦٣٢ - ١٦٥٤ :

عين جوستاف ، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة في الرابعة - واحدا من أقدر رجال الدولة والسياسة في هذا العصر الزاخر بالعباقرة . هو الكونت أكسل أو كسنسترا ، وصيا . وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها : د لقد درس وتعلم كثيرا في شبابه ، ودأب على الدرس في زحمة العمل . وكانت قدرته ومعرفته بشئون العالم وأحواله عظيمتين جدا . وعرف مواطن القوة والضعف في كل دولة في أوروبا . وكان طموحا ، ولكنه كان كذلك مخلصا غير قابل للفساد أو الرشوة ، ومن ناحية أخرى بطيء متوان بارد المزاج لا يبالي ، إلى حد كبير ، (١٠) . وعرف عن الكونت أنه - صموت ، وأما عدم إفصاحه عن شيء . حتى وهو يتحدث ، فهذا هو نصف في الدبلوماسية . وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكما صالحا حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب في أماكن بعيدة . ثم ، بوصفه وصيا على كريستينا ، وجه جيوش السويد في ألمانيا ، كما أدار دفة الأمور في الداخل ، ولم تنعم أية دولة في أوروبا طيلة هذه الأعوام الاثني عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد . وفي ١٦٤٣ صاغ ما يعرف بشكل الحكومة ، حدد فيه تشيكيل كل فرع في الإدارة وصلاحياته وواجباته . وهذا هو أقدم نموذج معروف لدستور مسطور .

وفي ١٦٤٤ أحست كريستينا ، وهي الآن في ربيعها الثامن عشر ، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة ، والتي بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأنفس . والحق أنها تحملت بكل قدرات ومواهب رجل ذكي مبكر النضج . وقالت هي عن نفسها : « خرجت إلى الحياة وكل سلاحى شعمرى ، وكان صوتى قويا خشنا ، مما جعل النساء يفكرن أنى صبي ، وعبرن عن فرحن بهتافات ضللت الملك فى أول الأمر (١١) . » . وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى فى رجولة مهذبة ، وأحبها حبا عميقا حتى بدأ أنه راض عن أن تكون هى وريثة سلطانه وعرشه . على حين أن أمها ماريا الينورا أوف براندنبرج لم تغفر لها كونها أنثى . وربما أسهم استياء الأم فى أن كريستينا صارت أكثر شها بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك ، فأهملت شخصها عن عمد ، واحتقرت التزين ، وأقسمت كما يقسم الرجال ، وأحبت أن تترى بزيمهم ، واعتادت على ألعايمهم ، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة ، وأصطادت فى تمور واندفاع ، وجندلت فريستها من أول طليقة . ولكنها كانت تقول : لم أقتل مرة حيوانا إلا وأحسست بالشفقة نحوه (١٢) . » .

وعلى الرغم من هذا كله ، تحملت فى كريستينا بعض مفاتن النساء . وفى ١٦٥٣ كتب بيير هيوت الذى أصبح فيما بعد أسقف آفرانش يقول : « وجهها دقيق جميل ، وشعرها ذهبى وعيناها براقتان . . . يرسم التواضع على وجهها ، ويبدو عندما تحمر وجنتاها خجلا لدى سماع أية لفظة نابية (١٣) . » . وقال قسيس الاعتراف الجزويقى لدى السفير الأسباني : « ولم تكن تطيق فكرة الزواج ، لأنها ولدت حرة طليقة ، وسوف تموت حرة طليقة كذلك (١٤) . » . ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنسى ليس بالنسبة للمرأة إلا ضرابا من المذلة والهوان . ولا ريب فى أنها أدركت — كما أدركت اليزابث ملكة انجلترا ، أن زوجها لا بد أن يطمع فى أن يكون ملكا . وكانت تعى أخطاها بشكل بالغ الحساسية وتعترف بها فى شجاعة وجرأة . كسنت قليلة الثقة بالناس ،

شكا كل طموحة إلى حد الإفراط ، حادة الطبع ، غفورة مغرورة ، هزدرية للناس ، هجاء ، لم أرحم أحدا ، مغطورة على الشك ، قليلة التعصب أو التحمس للدين (١٥) ، ولكنها كانت كريمة إلى حد الإسراف ، مخلصه في عملها . ويقول القسيس الجزويتي ، كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات في القراءة . ولم تشرب قط إلا الماء القراح ، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها فهو جيد أم ردى الطهى وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام وانتابها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوما لم تهمل فيها قط شئون الدولة واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة ، فلم يمر وقت يوما على سكرتير أو وزير (١٦) .

ولم تتطلع إلى أن تنافس الشبان في ألعابهم ورياضتهم ، ورجال البلاط في مجال السياسة فحسب ، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء في علمهم ، لا في اللغات والآداب وحدها ، بل في العلوم والفلسفة أيضا . وما أن بلغت الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وفي الثامنة عشرة درست اللاتينية ، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية ، وقرأت للشعراء الفرنسيين والإيطاليين وأحبتهم ، وحسدت فرنسا على مدنيها التي تفيض حيوية ونشاطا ومرحا . وراسلت في لهفة وحماسة ، الباحثين ، ورجال العلم والفلسفة في عدة بلاد ، وجمعت مكتبة ضخمة تضم مخطوطات قديمة نادرة ، هرع الطلبة للرجوع إليها والتزود منها من كل حذب وصوب . وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذي تجلج في اقتناء اللوحات والتماثيل والقطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن ، والتحف الأثرية . لقد جمعت العلماء ، كما جمعت روائع الفن . وتاقت إلى رؤية العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها ، وجذبت إلى بلاطها كلوديوسى سالما سيوسى وايزان فوسيسوسى . وهــوجو جروشيوس ونيقولا هذسيوس ، وأجزلت لهم العطاء في سخاء . ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها كتبهم مع شكرهم وتقديرهم - مثل سكارون وجى دى بلزك ومد موازيل

دى سكوديرى . أما ملتون الوقور فإنه - على حين كان يشن هجوما عنيفا على سالما مبيوس سالف الذكر - صرح بأنها دصالحة لحكم العام بأسره ، لا أوربا وحدها^(١٧) . وأرسل إليها بسكال آلتة الحاسبة مع رسالة بالغة الرقة يهنئها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش بملسكة العقل والحكم معا^(١٨) .

وكان غرامها شديدا بالفلسفة ، وراسلت جاسندى ، الذى هناها - كما هناها مائة غيره ، بأنها حققت حلم أفلاطون فى وجود ملوك فلاسفة . وجاء فيلسوف العصر المشهور ، رينيه ديكارت ، ورأى ، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون^(١٩) . فلما حاول أن يقنعها بأن كل الحيوانات آلات ، ردت عليه بقولها أنها لم ترقط ساعة يدها تلد ساعات د أظفالا^(٢٠) ، أى ساعات صغيرة . ومثل هذا كثير فيما بعد .

ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية . فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحققة . فكان جورج ستجرنهم عالما لغويا . متضلعا فى القانون ، من رجال العلوم ، رياضيا ، مؤرخا ، فيلسوفا ، أبا للشعر السويدي . ومركزا للحياة العقلية فى هذا العصر . وأبجت به جوستاف أدولف فرغه إلى مرتبة النبلاء . وعيدته كريستينا شاعر البلاط ، حتى لحق بأعدائها^(٢١) .

وفتنت بنظريات جون كومنيوس فى التربية ، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصلح نظم التعليم فى السويد . ومثما فعلت إيزابيث بالنسبة لآ كسمورد وكبردج ، زارت كريستينا جامعة أفسالا لتشجع بحضورها الأساتذة والطلبة ، واستمعت إلى سترنهم وغيره يحاضرون فى النص العبرى للتوراة . وشادت كلية فى دوريات وأهدتها مكتبة ، وأسمت ست كليات أخرى . وطورت إلى جامعة ، الكلية التى كان أبوها قد أسسها فى آبو (توركو) فى فنلنده . وأرسلت الطلبة للدراسة فى الخارج ، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب يدرسوا علوم الشرق . واستقدمت بعض الهولنديين المشتغلين بالطباعة ليؤسسوا دارا للنشر فى ستوكهلم . وشجعت زجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

الوطنية ، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب . ولا نزاع في أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين في التاريخ .

وهل وهبت هذه الملكة عقلا خاصا بها ، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تتدفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التي تدور حولها ؟ لقد انعقد الاجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها ، وصنعت قراراتها بنفسها ، وحكمت وملكت سواء بسواء (٢٢٢) . وسنرى في فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترن العسكرية ، وكالفت من أجل السلام ، وساعدت على انهاء حرب الثلاثين عاما . أن قصاصات مذكراتها فاتنة مفعمة بالحياة ، وليس في الحكم والأمثال التي تركتها بخط يدها شيء مبتذل ، ومثال ذلك :

إن قيمة المرء على قدر ما يستطيع أن يحب .

ويجدر أن نخشى الحق البلاء أكثر مما نخشى الأوغاد .

إنك تدعى إلى الناس إذا لم تخدعهم .

المواهب الخارقة جريمة لا تغتفر .

هناك نجم يوحد بين الناس من الطراز الأول ، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم .

أن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب .

إن المرء ليرتفع فوق كل شيء إذا لم يخشى شيئا ، ولم يحسب لأي شيء

حسابا .

إن الذي يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ما تعلم دون هدف أو غاية .

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم (٢٢٣) .

وأخيرا ، وبعد اختيار عدد من الفلاسفات ، وربما بعد أن امتنع عن أن تكون مسيحية ، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها مهمة بأنها رضعت

لبان الإلحاد والكفر من طيبيها بورديلوت^(٢٤) . وذهب مؤرخ سويدي - وكرر فولتير قوله^(٢٥) - إلى أن تحولها إلى الكيشلوك كان تمثيلية هزلية مقصودة ، وبناء على هذه النظرية ، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التي تقول بأنه هادامت الحقيقة شيئاً لا يمكن معرفته أو الوصول إليه ، فللمرء أن يختار الديانة التي تستهوى قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها^(٢٦) ، وتوفر أكبر قدر من الطمأنينة للناس . ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط ، فقد يحفر التصوف جذوره في أعماق الشك . لقد كان في كريستينا عناصر صوفية خفية ، فكل مذكراتها موجهة إلى الله في إخلاص بالغ . إن الإيمان ثوب واق . وإن التجرد الكامل منه ليترك الإنسان في حالة عرى فكري يتطلع إلى السماء والدفء . وأي ثوب أذفاً من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة ؟ وتساءلت الملكة : وكيف يكون المرء مسيحياً دون أن يكون كاثوليكيًا^(٢٧) ؟ .

وفكرت كريستينا ملياً في هذه المسألة وفي المضاعفات التي ينطوي عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية ، فلا بد لها ، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب - أن تتخلي عن عرشها ، وأن تغادر بلادها كذلك . وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول في العقيدة لدفاع والدها البطولي عن أوروبا البروتستانتية ، ولكنها ضاقت ذرعا ولاقت نصيباً من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرنانة ، ومن الثالوث المتحذلق من العلماء والأثريين والمؤرخين . وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعا كذلك . وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضي التاج وهداياها وهباتها السخية لذوى الحظوة لديها والقربيين منها . وتكتملت أغلبية النبلاء ضدسياستها . وفي ١٦٥١ كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة . ولكن زعماءها أعدموا على عجل^(٢٨) . ولكنها خلقت وراها امتعاضاً شديداً ، ولكن انتابها المرض آخر الأمر ، لقد أضرت هي بصحتها . وربما كان السبب في ذلك كثرة العمل والدرس .

وكم من مرة أصابتها الحميات الخطيرة ، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين . وكم من مرة غشيتها اعماة ، وظلمت فاقدة الوعي لمدة ساعة . واشتد عليها المرض في ١٦٤٨ فقالت أنها أقسمت أن تتخلى عن كل شيء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها^(٢٩) ، . إنها كانت ابنة البحر المتوسط فارتعدت فرائصها من برد الشمال القاسي في الشتاء ، وتاقت نفسها إلى سماء إيطاليا ومنتديات فرنسا . فكلم يكون جميلا أن تلحق بالنساء المثقعات اللاتي بدأن مهمتهن الفذة في رعايه الحياة الفكرية والعقلية في فرنسا ، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية !!

وفي ١٦٥٢ بعثت سرّاً إلى رومة بأحد الملحقين في سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليتناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكي ، فجاءوا متنكرين . ولكن فت في عضدهم وثبط من مهمتهم بعض الأسئلة التي وجهتها إليهم - هل يوجد إله حقا ، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم ، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة . فلما أوشكوا على الرحيل - ياسا - هدأت من روعهم بقولها : ماذا نرون لو أني كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية مما نظنون ؟ ، وقال أحد الجزويت تعقيبا على ذلك : فلما سمعنا هذا أحسنا بأننا بعثنا من مرقدا^(٣٠) .

وكان اعتناق الكشلكة قبل التخلي عن العرش أمرا محظورا قانونا . ولكنها رغبت قبل التخلي عن العرش ، في الحفاظ على الطابع الوراثي للملكية السويدية ، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لابن عمها شارل جوستاف . خلفا لها . ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى ٦ يونيو ١٦٥٤ . وكان الاحتفال الأخير مؤثرا قدر ما كان تخلي شارل الخامس عن العرش مؤثرا قبل ذلك بتسعين عاما . فإنها نزع التاج عن رأسها ، وطحرت كل الشارات الملكية ، وخلعت العباة الملكية ، ووقفت أمام الديت في ثوب بسيط من الحرير الأبيض ، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

بالدموع عيون النبلاء العجايز الرابطة الجاش ، وبمثلى المدن القليلى الكلام .
ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل . وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية
على حاشيتها .

وغادرت ستوكهولم عند الغسق ، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش .
وتوقفت فى نيكوبنج لزيارة أخيرة لأهها . ثم منعت فى طريقها ، ولما لم تذق
طعم النوم لمدة يومين ، فإنها مرضت بذات الجنب ، فلما برئت تابعت المسير
إلى هامستاد . وهناك كتبت إلى جامندى ، بأنها تمنحه معاشا وتبعث إليه
بسلسلة ذهبية . وفى اللحظة الأخيرة المقت عرضا بالزواج من الملك شارل
العاشر الذى توج حديثا ، فرفضت فى عطف وكياسة وتنكرت فى زى رجل
تحت اسم كونت دونا ، وركبت البحر إلى الدنمرك ، دون أن تدرى أنها لمدة
خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دورا فى التاريخ .

٣ - بولنده تكفر عن ذنبها : ١٥٦٩ - ١٦٤٨ :

فى هذا العصر عقدت بولنده أيضا أواصر السلام مع الكنيسة
الكاثوليكية . وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية
يسرعة فى هذه المماسكة تقريبا كل ما كانت قد فقدته من مكانة فى حركة
الإصلاح الدينى ، ولكن فلنمر أولا مرورا عابرا ، كالمعتاد ، بالخلفية السياسية
لهذا التطور الثقافى .

١ - الدولة :

تبدأ الفترة بحدث بارز تم لإنجازه فى فن الحكم . كانت دوقية لتوانيا
الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقى من بولنده ، يحكمها أدواقها ، وتمتد من
البلطيق عبر كييف وأوكرانيا إلى أودسا والبحر الأسود . وكان نمو قوة
روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر . وعلى الرغم من توافق عقيدتها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا ، فإنها أقرت كارهة أن الاندماج مع بولندا الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها اللداني من معانقة الدب الروسي . وميز سيجسمند الثاني عهده بتوقيع اتحاد لوبلين ، التاريخي (١ يولية ١٥٦٩) . واعترفت لتوانيا بملك بولندا دوقا أعظم ، عليها . وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان في وارسو ، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقتها الخارجية ، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف في شؤونها الداخلية . واتسعت أطراف بولندا وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليوناً من الأنفوس ، من دانزج إلى أوديسا ، ومن البحر إلى البحر . فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع .

وبموت سيجسمند الثاني دون عقب ذكر (١٥٧٢) انتهت أسرة دجاجالون ، التي كانت قد بدأت في ١٣٨٦ ، وهيأت لبولندا خطاً متصلًا من ملوك آسموا بالحق والإبداع ، وحضارة قامت على التسامح الديني واستنارة قوامها الروح الانسانية . وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية ؛ على أنها إهدار لحقوقهم وحررياتهم الاقتصادية ، فاستقر عزيمتهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم عن طريق ملكية انتخابية ، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولندا القادمين خدما أو أتباعا للبرلمان . ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب ، بل كان يضم كذلك ضغائر النبلاء ، فقد بدأ أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو في حكومة نمتزج فيها العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ، في قيود وضوابط متبادلة . ومهما يكن من أمر ، فإن الدستور الجديد ، في نطاق ذلك العصر ، لم يكن يعني إلا انتكاسة إقطاعية ، تفتيت السلطة والزعامات ، على حين كانت منافسة بولندا في البلاطيق — السويد وروسيا — تنصهران في وحدات عسكرية بفضائل الملكيات الوراثية التي كان يهتق لها أن تفكر على أساس الأجيال . وبات انتخاب الملك الآن في بولندا هو اذا لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

الذين تمولهم ، عادة الدول الأجنبية . وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين وبالشمال ، شراء تاج بولنדה للمنجل المنحرف هنري فالوا (١٥٧٣) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكما سيئاً فاسداً تحت اسم هنري الثالث .

وأصلح مجلس الديت الذي يتولى الإلتخاب خطأه ، بعد فترة خلا فيها العرش وعمت الفوضى ، باختياره مستيفن باثوري ملكاً (١٥٧٥) . وكان ، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا ، قد اشتهر بالفعل في مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاؤه في وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد إذا انتخب ، الدين الوطني ، ويمد الخزانة بمائتي ألف فلورين ، ويسترد الأراضي التي كانت بولنדה قد نزلت عنها لروسيا ، ويضحي بحياته في ميدان القتال ، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولنדה ومجدها ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في سبيل هذا العرض ؟ . وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسيميليان الثاني النمسوي ، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب ببأثوري ، فقدم معه ٢٥٠٠ جندي ، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أناجاجالون ، وقاد جيشاً ضد دانزج (التي رفضت الإعراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتي ألف جولدن للخزانة الوطنية .

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يجبون الملك الجديد ، بعينه الحاد بين النافذتين . وتفكيره الواقعي ، وشاربه المروع ، وحيثته التي توحى بالاستبداد والديكتاتورية . لقد احتقر الأبهة والمواكب والاحتفالات ، وارتدى ثياباً بسيطة ، بل لبس الملابس المرقعة ، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والسكرنب . ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف ، وهم متذمرون . وتقدم معتمداً على معونات ترنسلفانيا ، بجيش صغير ، وحاصر بسكوف ثلاثة مدن روسية آنذاك من حيث الحجم . وأحس إيفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه ، بأنه أكبر سناً من أن يلاقى عدواً في مثل

هذه الحيوية والنشاط ، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولنדה ، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (١٥٨٢) . وعندما أدركت إيفان المنية (١٥٨٤) اقترح باثوري على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولنדה ، ويطرده الأتراك من أوروبا ، ويعيد كل أوروبا الشرقية إلى حظيرة البابا . ولم يعترض البابا . ولكن في غمرة هذه الاستعدادات الشاقة لحملة صليبية ، فارق باثوري الحياة (١٥٨٦) . واعترفت بولنדה ، بعد مماته وبعد أن كف عن إرهابها بأنه من أعظم ملوكها .

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سيجسمند الثالث ، الذي يمكن بوصفه وريثا لعرش السويد ، أن يوحد البلدين لسطرا على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا . وقضى سيجسمند كما رأينا ، نصف مدة حكمه في مجالات عقيمة لتشييت سلطانه . وتدعيم المذهب الكاثوليكي في السويد . وسنحت فرصة أخرى لسجسمند بموت بوريس جودونوف المفاجيء (١٦٠٥) ، حيث سمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استشارة البرلمان البولندي أعلن سيجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفي وسار بجيش إلى روسيا . وعلى حين قضى هو عامين في حصار سمولنسك ، هزم قائده ستانسلاس زلكوسكي الروس في كلوشينو وتقدم نحو موسكو ، واقنع النبلاء بقبول لادسوس بن سيجسمند ملكا عليهم (١٦١٠) . ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات ، فيجب أن يكون القيصر هو لابنه . فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (١٦١١) ، تقدم نحو موسكو ، ولكنه لم يصل إليها قط ، فقد أهمل الشتاء بمعوقاته . وتمرد جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم . وفي ١٢ ديسمبر ١٦١٢ ، أي قبل نابليون بقرنين من الزمان ، تقهقر جيشه وسط سوء النظام والفناء ، من روسيا إلى بولنדה . ولم يتبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك وسفيرسكي ، بالإضافة إلى نفحة قوية من تأثير بولنדה على الحياة الروسية .

وكانت بقية حكم سيجسمند سلسلة من الحروب الفاجعة ، فقد ورطه تحالفه مع آل هسبوج - بما ابتهج له الإمبراطور - في صراع كلفه غالبا مع الأتراك لم تبيح منه بولندية إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها . واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنده في الجنوب في غزو ليفونيا . وبمقتضى صلح ألتارك (١٦٢٩) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق . وقضى سيجسمند نحبه محطما متهدما (١٦٣٢) .

وخلع الديت تاج بولنده على ابنه لادسلاس الرابع ، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين ، وكان قد كشف عن نشاطه واهمته وجلده كقائد ، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح . وأساء إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنده ومع الأرثوذكسية في لتوانيا . وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمى بين رجال الدين الكاثوليك واللوثرين والكلفينيين (١٦٤٥) وشجع الفن والموسيقى . واشترى لوحات روبنز وأقشنة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندي دائم ، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية ، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه ، ودعا العالم البروتستانتى جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (١٦٤٨) في الوقت الذي هددت فيه الدولة البولندية ثورة عارمة في القوزاق .

٢ - المدنية :

كان الاقتصاد البولندى لايزال يتسم بسماة العصور الوسطى . وكانت التجارة الداخلية في أيدي الباعة المتجولين ، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا ، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر ، وقبلها سمح لأفرادها بعضوية البرلمان ، فإن النبلاء تحكموا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد ، وسيطروا على هؤلاء جميعا . وكان يفلح الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أقسى من بعض الوجوه بما كان عليه الحال في

مزارع فرنسا في العصور الوسطى . وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه ، ويفرضها بقوة جنوده ، ويحرم على مستأجره مغادرة نطاق ولايته دون موافقته ، وينقلهم من مكان إلى مكان ، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته ، ويفرض عليها في كل عام أيام عمل لا يتقاضون عنها أجرا ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده ، وعلى أن يبتاعوا منه كل عام قدرا من الجعة الرديئة الصنع . وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته في زمن السلم والحرب . كان هؤلاء المزارعون أحراراً . قانونا لهم ، حق التملك والتوريث ، ولكن د الأرب ، الجزويقي سكارجا نعمتهم بأنهم أرقاء (٢١) .

وكانت الحياة قروية في معظمها . وكان النبلاء يتجمعون في وارسو لإملاء إرادتهم الجماعية ، ولكنهم عاشوا في ضياعهم ، يصطادون ويتشاجرون ، ويستمتعون باطيب المتع ، ويتبادلون المآذب الباذخة ، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين . وقلما مثلت البنت رأيا ، وقلما عارضت ، فالمفروض أن الحب الذي يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذي ينشأ عن الحب . وكان النساء متواصعات جادات نشيطات . وكان آداب السلوك الجنسي مرعية كل الرعاية . ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر (٢٢) . وكان الرجال لا النساء ، هم الذين يضعون قواعد السلوك . باستثناء سيسيليا ريناتا التي تزوجت من لاديسلاس الرابع ١٦٣٧ ، والتي أحيت الأثار الإيطالية التي استوردها الفنانون ورجال الدين في أزمنة سابقة ، ولويزماري جونزاج التي تزوجها ١٦٤٨ ، والتي جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسي بقيت حتى القرن العشرين ، وكان في الرقصات البولندية رقعة مهيبة . حدث برجل فرنسي في ١٦٤٧ إلى التحدث في إعجاب عن البولنديات .

ولم يقدر للفن البولندي أن يلاحق المستوى الذي كان قد وضعه فيت ستوس في كراكاو ١٤٧٧ . لقد نسجت أقشة سحجسمند الثاني المرزكشة في الفلاندرز

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند و باثورى وأنا
جاءللون فى كاتدرائية كرا كاو ، وكنايس الجزويت الباروكية فى كرا كاو
ونيزويو وعامود سجسمند الثالث الشهير فى وارسو، وأصاب الوهن التصوير
فى بولنده تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية ، ولكن مارتن كوبر
رسم صورة شخصية ملهمة للملك باثورى .

وعانى التعليم - كما عانت الفنون التخطيطية من الإضطراب الدينى . ومرت
جامعة كرا كاو بفترة انحطاط عاب . ولكن باثورى أسس جامعة ولنو
(١٥٧٨) ، وفى كرا كاو وولنو ويوزنان وريجا وغيرها أسس الجزويت
كليات بلغ من أمتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت أثروا لتنشئة
أبنائهم عقليا وخلقيا . وخير من كل هذه مدرسة طائفة «الموحدين» فى
كرا كاو التى جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل . وأعد جان ذا موسكى
مستشار باثورى ذو النزعة الإنسانية ، فى زاموسك جامعة جديدة خصصت
أساسا للدراسات الكلاسيكية .

وكانت ثمة وفرة فى الأدب فى بولنده . وكانت الخلافات الدينية فظة فى
النحوت مهذبة معقولة فى الشكل ، ومن ثم فإن ستراتسلاس أورزيكوسكى ، الذى
كان يدافع عن الكاثوليكية ، ناضل من أجلها بضراوة وتعصب عنيف ، وفى
لغة بولندية رائعة ، تعد من أحسن ما كتب فى تاريخنا (٢٣) ، ولم يكن يقل عنها
شهرة فى الأسلوب «رجل البلاط البولندى» (١٥٦٦) الذى ألفه لوكاز جورنيكى
وهو تعديل لسكتاب كاستليونى «رجل البلاط» . وبرز الجزويتى بيترسكارجو
فى الشعر والنثر والتعليم والسياسة . وانتقل من رئاسة جامعة ولنو إلى منصب
كبير الوعاظ فى البلاط الملكى وقضى فيه أربعة وعشرين عاما كان فيها «بوسويه»
بولنده ، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذى رآه يستشرى من
حواله . وتنبا بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقرارا ومركزية فإنها
لا بد أن تقع فريسة للدرل الأجنبية ، ولكننه نادى بملكيه مسئولية مقيدة

ومحددة بالقانون . وظل شعر كوكا نوسكى دون منافس في مجاله وفي لغته حتى القرن التاسع عشر ، ولا يزال شعبيا مألوفا حتى اليوم . وقد بلغ الشاعر ذروة الأثارة والإلهام في رثائه وحزنه على أبنته أورشولا التي ماتت في نضارة الطفولة .

وعوق الصراع الدينى كل نواحي الثقافة البولندية في ذلك العصر . ففي النصف الأول من القرن السادس عشر بدأ أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولنده ، وعلى ألمانيا والسويد أيضا . وكسبت إلى جانبها كثيرا من النبلاء تمردا على سلطة الملك وفساد الكهنة ، ووسيلة لانتزاع أملاكها (٢٤) . ومنح سيجسمند الثانى بلاده تسامحا دينيا واسع النطاق . وبعد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (٢٨ يناير ١٥٧٣) «اتحاد وأرسو الكونفدر إلى ، الذى يضمن الحرية الدينية لكل الشيع والفرق بلا استثناء . فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقفيون فى المجلس . ولكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون . بما فى ذلك واحد وأربعون كاثوليكيًا (٢٥) ، وهذا يمثل نقطة بارزة فى تاريخ التسامح ، لأن أى إعلان رسمى سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى . وأنتعشت فى ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة ، اللوثرىون ، والكلفنيون ، وأتباع زونجلى ، وأنصار تجديد العهد ، والأخوة البوهيميون ؛ وغير القائلين بالثلاثية . وفى ١٥٧٩ قدم إلى بولنده فاوستس سوسينس ، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولكن أهالى كراكاوا أخرجه من داره ودمروا مكتبته ، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الكاثوليكي للجامعة هب لنجدته (١٥٩٨) (٢٦) ، واتحد الكلفنيون مع اللوثرين فى المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولنده . وأمر الديت فى ١٦٣٨ بإغلاق مدارس الموحدين ؛ وفى ١٦٥٨ نفى أفراد هذه الطائفة من البلاد . ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمانيا وهولنده وانجلترا ؛ وأخيرا إلى أمريكا ؛ ليجدوا أعظم معبر عنهم فى شخص أمرسون .

أن التعصب الشعبي والتربية الجزويّة والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي، أجمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضي على البروتستانتية في بولندا. فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التي حاربت بها المذهب القديم. وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لمجرد أنه قديم؛ حيث كان يمثل الارتياح إلى العادة والعرف المألوف؛ ولما أنضم الملكان - باثوري وسجسمند الثالث - إليه، وجد كثير من البروتستانت المرتدين وأبنائهم، أنه من الأفضل لهم أن يعقدوا أواصر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان في بولنده - من البروتستانت، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطني إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها. ومعاونت الكنيسة تعاونا جادا مع هؤلاء الأعوان المتفرقين على استرداد بولندا إلى حظيرة البابا، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصافة، وأكبر الجزويت المغامرين، ليكسبوا إلى جانبها، الملوك والنساء والأطفال، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم. وحذر رجال الدولة الكهنسيون، مثل الكاردينال ستاناسل هوسيوس والأسقف جيوفني كومندون، الملوك من تأسيس نظام اجتماعي أخلاقي سياسي مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتصارعة. وأثبت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التي كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها، ضد ما امتحدث الآن من معتقدات وطقوس. وفي نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين ألزموها بقرارات مجمع ترنت، خضعوا الآن لإصلاح ديني صارم مثير للأعجاب (٣٧).

ولكن للكاثوليك أيضا مشكلة. ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندا عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكهنسيين طفيفا ولكن الصلوات الأرثوذكسية اتبعت الطقوس السلافية، كما اتخذت القساوسة الأرثوذكس زوجات. وفي ١٥٩٦، وعن طريق اتحاد برست ليتوفسك، شكل جان زاموسكي مجموعة وسطا من

رجال الدين والعلمانيين في دكنيسه موحده ، اعتمدت فكرة زواج رجال الدين ، واتبعت الطقوس السلافية ، وفي نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكي الروماني واعترفت بسيادة البابا . وراود زعماء الكاثوليك الأمل في ان يؤدي مثل هذا الحل الوسط او التوفيق بين الكنيستين ، تدريجا ، إلى كسب الملتين اليونانية والروسية إلى جانب الأمتثال للبابا . ولكن الكنيسه الجديدة لاقت مقاومه مثيرة . وذبح أهل بولوك رئيس اساقفتها .

وظل ملوك بولندة طوال القرن السادس عشر ، يطبقون تسامحا دينيا أكثر تقدما منه في أى بلد مسيحي آخر . ولكن السكان الكاثوليك كثيرا ما عابوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداه الشديد ، فانهضوا على كنيسه بروتستانتية في كراكو ، ونشوا قبور البروتستانت (١٦٠٦ — ١٦١٧) . وحطموا كنيسه بروتستانتية في وندو ، وضربوا — وقيل قتلوا — قساوستها (١٦١١) وفي بورنات أحرقوا كنيسه لوثرية . وفضوا اجتماعا خاصا د بالاخوة البوهيمين ،^(٣٨) . ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك في هذه المظاهرات الدينية الشعبية ، ولكنهم أفادوا منها . وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسه القديمه ، حتى تم لها النصر في ١٦٤٨ .

٤ — روسيا المقدسة : ١٥٨٤ — ١٦٤٥

١ — الشعب :

قال نادزدين في ١٨٣١ : دما عليك إلا أن تلق نظرة على خريطة العالم ليتولاك الرعب ازاء قدر روسيا وما قسم لها . وكانت قد وصلت في ١٦٣٨ إلى المحيط الهادى عبر سيبيريا ، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا ، ولم تكن على أية حال ، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود ، فقد اقتضى هذا حروبا كثيرة . ولم يجاوز عديد السنين عشرة ملايين في ١٥٧١^(٣٩) . وكان يمكن أن

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين في سهولة ويسر ، لولا أن الفلاحة الطائشة المهمله أنهكت المزرعه تلو الأخرى ، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب .

ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت في نشأة الرقيق . ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وأعدادها للزرع . وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو ٢٠ ٪ (٤٠) ، فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك . لأن قانونا صدر في ١٤٩٧ نص على أن يكون المدين المقصر في الدفع عبدا لدائته حتى يوفي الدين . ونفاديا لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازيق في الجنوب . وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضي جديدة غير ممدة . وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا ، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف ، أو اشتغلوا في المناجم أو صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة ، أو خدموا التجار ، أو تجولوا في الشوارع يبيعون السلع . وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع — دون دفع ديونهم عادة — قد عوقت الإنتاج الزراعى ؛ وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التي تطلبها الدولة . وفى ١٥٨١ . وضمانا لاستمرار زرع الأرض ؛ حرم أيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكى — رجال الإدارة — أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك ؛ وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئا فشيئا . فقد بقى الرقيق الذى نشأ بهذه الطريقة يعمل فى ضياعها . وسرعان ما طالب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا ؛ مستأجرينهم بهذا . فسكان الفلاحون الروس فى الحقيقة ؛ إن لم يكن بمقتضى القانون ؛ أرقاء مرتبطين بالأرض (٤١) .

وكانت روسيا لا تزال لاصقة بالهمجية . فالسلوك فظ غليظ ؛ والنظافة ترف نادر ؛ والامية أمتياز طبقى ؛ والتعليم بدائى ، والأدب فى معظمه حوليات

رهبانية أو عظات دينية أو نصوص طقسية ، والكتب الخمائة التي نشرت في روسيا بين عامي ١٦١٣ و ١٦٨٢ كانت كلها تقريبا دينية^(٤٢) . ولعلت الموسيقى دورا هائلا في الدين وفي البيت . وكان الفن خادما للعقيدة الأرثوذكسية ، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأما كن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها . وبالمباني الناشئة عنها ، وبالقباب البصلية الشكل ، مثل كنيسة عذراء الديون في موسكو . وزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسم الجصية التي حجب الآن معظمها ، أو بالصور الدينية والأيقونات الغنية بالأبداع التصويري لا المهارة الفنية^(٤٣) ، كما هو الحال في كنيسة معجزة سان ميكايل في كراكاو . وفي ١٦٠٠ لم يعد رسم الأيقونات فنا بل أصبح صناعة تنتج قطعاً متماثلة على نطاق واسع ، للتعبد والتبتل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفني البارز في هذا العصر فهو برج الناقوس الذي يبلغ ارتفاعه مائة متر - وهو برج ايفان فليكي (جون الأكبر) الذي أقامه أحد المهندسين الألمان في ميدان الكرملين (حوالي ١٦٠٠) كجزء من برنامج بوريس جودونوف في الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل .

وفي الكنائس الفخمة المتألقه بالزخارف الثمينه ، المعتمه بالكآبه المتعمدة والتي تجلب النعاس بالطقوس المهيبة والتراتيل والصلوات الجهورية الرنانة ، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المتواضع . وقل أن تعاونت عقيدة مامع الحكومة مثل هذا التعاون الوثيق . وضرب القيصر المثل في التمسك المخلص بالدين وفي البر بالكنيسة ، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة ، بدوها ، بهالة من القداسة الرهية ، وجعلت من عرشه حرمانيا لا تقتك حرمة ، وغرست في الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله . وأسس بوريس جودونوف البطريركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (١٥٩٨) ولده قرن من الزمان نأفس مطران موسكو المقام السامى للقيصر ومكانته العالية ، وفي بعض الأحيان تحدى سلطانه . وفي ١٥٩٤ عندما أوقد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو ، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

الأرثوذكسية واللاتينية تحت زعامة البابا ، رفض بوريس الافتراح قائلًا :
« أن موسكو هي الآن رومة ذات المذهب القديم الحق (الأرثوذكسى) » .
وجعل الجميع يوجهون الدعوات ويقيمون الصلوة من أجله وهو وحده بوصفه
« الخاتم المسيحي الوحيد على الأرض » ، (٤٤) .

٢ - بوريس جود ونوف : ١٥٨٤ - ١٦٠٥

لم يكن بوريس في الواقع بعد إلا حاكمًا فقط . أما القيصر فكان فيودور
الأول ايفانوفتش (١٥٨٤ - ١٥٩٨) ، الابن الهزيل لايفان الرابع الرهيب
وآخر أفراد « آل روريك » (مؤسس روسيا) . وكان فيودور قد شهد موت
أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه ، فلم يشأ أن يتشبهت بارادته أو يعارض
في شيء ، وانزوى هربًا من مخاطر القصر ، منصرفًا إلى العبادة والتبتل ، وعلى
الرغم من أن شعبه لقبه « بالقدیس » ، فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة
ليحكم الرجال . وكان ايفان الرابع قد عين مجلسًا لتوجيه الشاب وتقديم النصيح
والمشورة له . ولكن أحد أعضائه ، وهو أخو زوجة فيودور - بوريس
جود ونوف - سيطر وقبض على زمام الأمور ، وأصبح حاكم البلاد .

وكان ايفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ، ابنا آخر ،
هو ديمتري ايفانوفتش الذي كان آنذاك (١٨٥٤) في الثالثة من عمره ، ورغبة
من المجلس في أن يجنب الطفل أخطار الدسائس - بخلاف دسائسه هو ، أى
المجلس - أرسل الطفل وأمه للإقامة في أوجليبش ، على بعد نحو ١٢٠ ميلًا إلى
الشمال من موسكو . وهناك في ١٥٩١ قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقق
منها بعد . وتصدت إلى هذا البلدة لجنة للتحقيق في الحادث ، يرأسها الأمير
فاسيلي شويسكى أحد أعضاء المجلس ، وجاء تقريرها يقول بأن الصبي قطع
حلقومه في نوبة صرع ألمت به . ولكن أم ديمتري وجهت الاتهام بأنه قتل
بأمر من جود ونوف (٤٥) . ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط ، ولا تزال مثار
جدل بين بعض المؤرخين (٤٦) . وأجبرت الأم على التهرب ، ونفى أقرباؤها

من موسكو ، وأضيف ديمتري إلى قائمة القديسين الأرثوذكس ، وطواء النسيان إلى حين . .

وكان بوريس — مثل ريتشارد الثالث في إنجلترا — أكثر توفيقا في الحكم أثناء وصايته على العرش ، منه بعد تربعه عليه فيما بعد . وعلى الرغم من إنه كان ينقصه التعليم الرسمي النظامي ، بل ربما كان أميا ، فقد أوتي بمقدرة جبارة ، وبيدوانه بذل جهود مضنية لمواجهة مشاكل الحياة في روسيا . فأصلح الإدارة الداخلية ، وحد من فساد القضاء ، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفًا ورعاية ، وكلف الأشغال العادية بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن ، وخفف من أعباء الأرفاء والتزاماتهم ، وكان — كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصرين — محبوبا لدى كل الناس ،^(٤٧) . وحظى باحترام الدول الأجنبية وثقتها^(٤٨) . ولما مات القيصر فيودور الأول (١٥٩٨) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالاجماع أن يتولى العرش . فقبلته مع تظاهره بالمعارضة خجلا . من أنه غير جدير به ، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل في الجمعية الوطنية . ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة^(٤٩) . نازعوا في حقه في اعتلاء العرش . وتأمر واهلى خلعه . فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين . وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف) . على أن يدخل في سلك الرهبنة . ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها . في ظروف مؤاتية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم . ولما كان يعيش آنذاك في جو من الشك والفرع . فإنه بث العيون والأرصاء هنا وهناك . وأبعد المشتبه فيهم وعادز أملاكهم . وإعدم الرجال والنساء . وانهارت شعبيته الأولى . وتركته السنوات العجاف من (١٦٠٠ — ١٦٠٤) ، بغير تأييد ومساندة من الأهلالي الذين يتصورون جوعا في مواجهة المسكائد التي كان يديرها النبلاء في تصميم وعناد .

وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة في التاريخ ، والأدب والموسيقى . ففي ١٦٠٣ ظهر في بولنده شاب ادعى أنه ديمتري المفروض أنه مات . والوريث الشرعي

لعرش فيودور ايفانوفتش . واعتبر بوريس ، الواثق من نفسه (٥٠) ، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوترييف الراهب الذي جرد من رداؤه الكهنوتي ، والذي كان من قبل في خدمة آل رومانوف . أما البولنديون الذين كانوا يمتشرون توسع روسيا ، فقد سرهم أن يحدوا بينهم وفي متناول يدهم ، من يطالب بالتاج المسكوفي ، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج ديمتري ، هذا من بنت بولندية ، واعتناقها الكاثوليكية . وتغاضى سجنس مند الثالث الذي كان قد وقع لتوّه (١٦٠٢) هدنة مدتها عشرون عاما مع روسيا . عن حشد ديمتري لمتطوعين بولنديين . وناصر الجزويت بشده قضية هذا المدعى . وفي أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمتري نهر الدينير مع أربعة آلاف رجل . فيهم المنفيون الروس ، وجنود مرتزقة ألمان ، وفرسان بولنديون . وأيده النبلاء الروس سرا ، ولو أنهم تظاهروا بالحياد . وانضم الفلاحون الآبقين إلى القوات المتقدمة ، ورحب الشعب الجائع الذي طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب ، بديمتري الجديد ، ورفع لواء رمزا للملكية الشرعية والأمانى اليائسة . ووسط الهتاف بحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب ، وانقض من الجنوب القوراق المستعدون دوها للنزال . وانقلبت الحركة إلى ثورة .

ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندي ، بعث بجيشه إلى الغرب ، وهزم فصيلة من قوات ديمتري ، ولسكنه لم يدرك البقية . ولم يتاق جودونوف وهو قابع في قصر الكرملين إلا أنباء جمهور الرعاع الزاحف المتزايد عدده . والسخط الذي ينتشر ، والانحياز التي يشربها البويار (النبلاء) حتى في موسكو ، في صحة ديمتري الذي أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذي اختاره الله ليكون قيصرا . وبجأة ، وبعد شكوك وآلام مبرحة معروفة لدى بوشكين وموسورحسكي ، ولا يعلم التاريخ عنها شيئا — مات بوريس (١٣ أبريل ١٦٠٥) وأوصى البطريك بسنانوف والنبلاء بابنه خيرا . ولسكن البطريك والنبلاء تحولوا إلى المدعى . وقتل ابن جودونوف وأرملته ، وفي غمرة النشوة الوطنية رحب ديمتري الزائف ، وتوج قيصرا على روسيا بأسرها .

٣ - د زون الصدائد ، : ١٦٠٥ - ١٦١٤ :

لم يكن القيصر الجديد حاكما غير صالح ، كما هي شيمية الملوك ، ولم يكن ذا قوام يعين على الرحمة ولا بهي الطلعة ، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادرا على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل ، مثل أى نبيل كريم المحتد وتحلى القيصر الجديد بزجاجة العقل وسعة الادراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشائز ، وبساطة غير متكلفة صدمت قواعد السلوك والتشريعات في حياة القصور . وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة ، كما أدهش جيشه بتوليته تربيته بنفسه . ولكن تعاليمه على بيئته كان متممدا واضحا أكثر مما ينبغي . فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأميتهم وجملمهم ، واقترح ارسال أبنائهم لتلقى العلم في الغرب ، وصعى إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية في موسكو . وسخر من للعادات الروسية ، وأنقل الطقوس الأرثوذكسية ، وأهمل تحمية صور القديسين ، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس ، وأكل لحم العجل الذى اعتبرته الطقوس نجسا . وأخفى - وربما لم يأخذ يوما بماخذ الجدد - تحوله إلى الكاثوليكية ، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية ، يحف بها أحوة فرانسيسكان ويمثل البابا . وكان في بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت ، وأنفق في سخاء من أموال الخزانة ، فصاعف رواتب ضباط الجيش ، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جوردونوف . ولما كان لايهوى السكون ، كما كان رجلا عسكريا فإنه دبر حملة صد خان القرم وأعلن الحرب عمليا بإرساله مسترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم . وربما تكاد أن يخلى موسكو من الجنود تماما ، بإصداره أوامره اليهم بالتحرك نحو الجنوب ، وخشى النبلاء من أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندى .

وبعد اعتلاء ديمترى عرش روسيا بيضعة أسابيع تأمرت زمرة من النبلاء بزعمامة شويسكى على خلعه . واعترف شويسكى بأنه لم يقرأ أو يعترف بالمذمى ، إلا لجرد التخلص من جوردونوف ، أما الآن فيجب ابعاد الآداة

التي اعطت لهذا الغرض ، واجلاس نديل أصيل على العرش (٥١) . وكشف ديمتري المؤامرة ، واعتقل زعماءها ، وبدلا من الإسراع باعدامهم ، كما تقضى بذلك التقاليد ، منحهم الحق في أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التي اختير أعضاؤها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات . فلما أصدرت حكمها على شويسكى وآخرين بالاعدام خفف ديمتري الحكم إلى النفي ، وبعد خمسة أشهر أباح للنفين العودة . وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن إيمان الرهيب ، ولكنهم شعروا الآن - بعد تصرفه على هذا النحو - أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدي يلقي ظلالا من الشك على أبوته الملكية . وعاد المتآمرون المغفون عنهم إلى تدبير المؤامرات من جديد . واشتركت فيها أسرة رومانوف التي احتسب ديمتري بظل الانتساب إليها . وفي ١٧ مايو ١٦٠٦ اقتحم شويسكى الكرملين بأتباعه المسلحين . ودافع ديمتري عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقتل بيده كثيرا من مهاجميه ، ولكنه في النهاية غلب على أمره وذبح . وعرضت جثته في ساحة الإعدام ، وألقى على وجهه قناع حقيير ، ووضع في فمه مزمار ، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة ، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث بعد الآن .

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكى قيصرا تحت اسم فاسيلي الرابع : وآلى على نفسه الا يعدم أحدا ولا يصادر أملاكا ، دون موافقة الدوما ، (مجلس النبلاء) . وأقسم في كاتدرائية أوسبنسكى أغلظ الإيمان بأنه لن يلحق بأى انسان أذى دون موافقة المجلس دأى الجمعية العمومية التي تضم كل الطبقات . وغالبا ما انتهكت هذه الضمانات ، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة في روسيا .

وأخفقوا في تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التي تولاهم الحزن والأسى لخلع ديمتري . فاندلعت ثورة في الشمال ، ونصب زعيما لها ديمتري ، زائف آخر ، أمده سيجسمند الثالث ملك بولنده بعون غير رسمي . فالتبس

شويسكى العون من شارل التاسع ملك السويد ، عدو سيجسمند ، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا ، فأعلن سيجسمند الحرب عليها ، واستولى فائده زالكوسكى على موسكو ، وخلق شويسكى (١٦١٠) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على التهرب في أحد الأديار . واتفقت زمرة من النبلاء على الاعتراف بلادسلاس - ابن سيجسمند ، البالغ من العمر أربعة عشر عاما قيصرًا على روسيا ، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، ومساعدة الجيش البولندى للنبلاء في اخماد الثورة الاجتماعية التي كانت تهدد الحكومة الارستقراطية في روسيا .

وكانت الثورة في بداية أمرها امتنكارا دينيا ووطنيا لتنصيب قيصر بولندى ، ومنع هرموجنس بطريك الأرثوذكسية الشعب من حل يمين الولاء للملك كاثوليكي . وقبض البولنديون عليه ، وسرعان ما قضى نحبه في سجنه ، ولكن زمامه جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد . ودعا الزعماء الدينيون الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين . وبدأ أن الحكومة تنهار ، وعمت الفوضى روسيا . واستولى الجيش لسويدي على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدي . ورفض الاعتراف بلادسلاس الملاحين في الشمال والجنوب ، والقوازق في الجنوب ، واماوا حكاما خاسا بهم في المقاطعات . وأعملت عصابات قطاع الطرق لسلب والنهب في القرى والمدن ، ونكلت بكل من يقاوم . وتعطلت الزراعة ، ونقص انتاج الأعذية ، واختلت وسائل النقل ، وعمت المجعة ، واضطر السكان في بعض الأقسام إلى أكل لحوم البئر^(٥٢) . ودخل جمهور ثائر موسكو ، وفي غمرة العوضى والشغب أشعل الحريق فأتت النار على معظم المدينة (٩ مارس ١٦١١) ونهقرت الحامية البولندية إلى الكرملين ، ترف عبثا قدوم سيجسمند لنجدتها .

وفي نزي نوفجورود نظم قصاب يدعى كوزمانين ، جيشا ثوريا آخر ، يحدوه الأحلاص للأرثوذكسية ، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث مائة

لعموميل الهجوم على المعاصرة . وتم هذا بالفعل ، ولكن الناس لم ينقادوا إلى زعيم غير ذي لقب . فدعا ميتين الأمير ديمتري بوجارسكى ليتولى القيادة ، فقبل المهمة ، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائحين صارخين ، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية في النكرملين ، وصعدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفيران ولحم البشر ، وكانوا يغلون المخطوطات اليونانية ليحطوا على المرق ، ثم استسلموا وفروا (٢٢ أكتوبر ١٦١٣) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة في أذهان الروس ، على أنه عام التحرير ، وعندما أجلس الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان ، عن موسكو التي جلاها رماد الحريق مرة ثانية ، أقام الروس المنتصرون نصبا تذكاريًا لميتين وبوجارسكى ، الجزار والأمير اللذين ضربا لهما أروع مثل للبطلوة في ١٦١٢ .

ودعا بوجارسكى والأمير ديمتري تروبتسكوى بمثلين علمانيين ودينين عن كل أجزاء الامبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد . واستخدمت مختلف الأسرار نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة ، ولكن كانت الغلبة آخر الأمر لأسرة رومانوف ، واختار المجلس ميكائيل الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك ، وفي ٢١ فبراير ١٦١٣ نادى به قيصرا سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم وتوجيههم بسرعة . وبعد أن أنقذ الشعب الدولة ، نسب الفضل في ذلك ، توأصعا . إلى النبلاء .

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعي والثورة ، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهدأت من روع السويك بالتخلي عن انجريا ، ووقعت مع بولندا هدنة مدتها أربعة عشر عاما ، وفككت الهدنة أسر فيودور رومانوف ، والد ميخائيل ، الذي طال أمد أسره . وكان بويرس قد أرغمه على التهرب ، وأطلق عليه اسم الراهب فيلارت . وعينه ابنه ميخائيل بطريك موسكو ، ورحب به مستشارا لدو بلع من القوة والنفوذ جدا أطلق معه الشعب عليه اسم «القيصر الثاني» . وتحت الحكم المزدوج الذي شارك فيه الوالد والولد

وبرغم المزيد من الثورات والحروب ؛ حققت روسيا بمد جيل من الفوضى ،
سلاما مزعوما مقرونا بالهتف والاضطراب . أن زمن الشدائد والمتاعب
الذي بدأ بموت بوريس ، اختتم باعتلاء ديتمري العرش ، وهذا بدوره
كان ابتداء عهد أسرة رومانوف التي قدر لها أن تحكم روسيا حتى
عام ١٩١٧ .

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

١٥٦٦ - ١٦٤٨

١ - الأتراك

في غمرة الصراعات الداخلية - سياسية ولا هوية - في العالم المسيحي أحس بعض المفكرين بالانزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت ، في حياد ظاهر ، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام . ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا ، ولكن دار الإسلام ، (العالم الاسلامي) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف ، ضمت أندونيسيا وشمال الهند . وألحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر في دلهي (١٥٢٦ - ١٧٠٧) . وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وإيران كلها ، حيث أذنت عظمة الفن الفارسي بالغروب في هذه الحقبة . وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هي الامبراطورية العثمانية أو التركية - التي لم يكن ينافسها آنذاك في اتساع أطرافها الا الامبراطورية الأسبانية ، واحتفظت بالسيطرة على شواطئ البحر الأسود ، وتحكمت في مصبات الدانوب ، والدنيبر والدينستر ، وساعدت حلفاءها خانات التتار ، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون . وأستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب - الشرق الأدنى بأسره - . وهناك كان في حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط . بابل ، نينوى ، بغداد ، دمشق ، أنطاكية طرطوس ، أزميز ، نيقية ، مكة وبيت المقدس - حيث كان المسيحيون ، بترخيص من المسلمين ، يحججون إلى قبر المسيح . واستولوا في شرق البحر الأبيض على العجز العظيمة قبرص ورودس وكريت ، وكانت الأغلبية الساحقة في شمال أفريقيا

من المسلمين ، من البحر الأحمر إلى الأطلسي ، فكان يحكم مصر بأشوات يعينهم السلاطين ، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الأستانة ، وكان هذا عهد أسرة السعديين (١٥٠٠ - ١٦٦٨) في المغرب ، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتتألق بالفن . وأمتدت الدولة العثمانية في أوروبا من البسفور عبر اليونان (بما فيها أثينا واسبرطة) والبلقان والمجر ، على بعد مائة ميل من فيينا ، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية ، وعبر البوسنة والباينا ، وما كان ثمة الأقفزة واحدة عبر الأدرياتيك حتى تصبح في إيطاليا البابوية . وهناك ، وفي فيينا الواقعة تحت الحصار ، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام . وداخل هذا النطاق الإسلامي عاشت المسيحية حياتها الممزقة .

ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غربا فإنه ظل شرقيا . وكانت القسطنطينية نافذة على أوروبا ولكن جذور العثمانيين أمتدت كثيرأ إلى الراء ، إلى آسيا وبذلك استطاعت تركيا المزهوة المبهجة أن تقلد أوروبا . وفي بعض بقاع العالم الإسلامي قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية . وعوقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة ، ولم يجد الناس في أنفسهم تحمسا إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوربيين الغربيين ، فشجعوا الجمود وعدم التحرك ، وكانوا أكثر استعدادا للقناعة ولم يتصفوا بالطموح . وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة في الإسلام متقنة ، ولكنها كانت تتطلب وقتا ، وكان يعوزها الذوق ، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابرة صابرة ، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وإنجلترا والأراضي الوطيفة التي كانت تجوب كل المسالك المائية إلى الهند . على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير ، اذدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل . وينفخ الإسلام في الناس روح

الفجاعة المنفحة بالأمل. زمن الحرب ، واسكنه كمان يغمس في نفوسهم وقت
وقتها السلم وروح التسليم بالقضاء والقدر التي تثبط من غزائمهم* ، وأغراهم بحلقات
التكر والأحلام الضوئية . وعلى الرغم من أن الإسلام في عصر الفتوة والشباب
أجاق قدراً كبيراً من العلوم . فإنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حدائقه جوفاء
قوامها التعاليم والأساليب التقليدية . وعمل العلماء من رجال الدين الذين سموا
القوانين على أساس القرآن الكريم ﷺ على تنشئة الأطفال على الدين القويم ،
وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامي .
وهناك هيأ الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين .

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التي اقتطعت من العالم
المسيحي . فقد كان للكنيسة الشرقية بطاركتها في القسطنطينية وأنطاكية ،
وأورشليم والأسكندرية ، ولكن عدد المسيحيين فيها كان يتناقص بسرعة ،
وظل الأرمن في آسيا الصغرى والأقباط في مصر على عقيدتهم المسيحية ،
ولكن الجماهير عامة في آسيا وأفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام . وربما
كان لهذا أسباب عملية ، فلو أنهم بقوا على عقادتهم المسيحية لجرموا من
الوظائف العاجزة ، ودفعوا ضرائب باهظة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية
وسلموا واحداً من كل عشرة من أبنائهم ليربي تربية إسلامية تؤهله للانضمام
إلى الإنكشارية ليعمل في الجيش ، أو ليتولى الوظائف الحكومية .

وفيا عدا هذا ، تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان
حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي . من ذلك ، على صنبيل
المثال ، أن المساميين كان لهم في أزميز ١٥ مسجداً ، وللمسيحيين ٧ كنائس
ولليهود ٧ معابد^(١) . وكانت السلطات في تركيا والبلقان تتولى حماية
الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أي تحرش أو ازعاج أثناء العبادة

* هذا الكلام يدل على عدم التعمق في فهم حقيقة الإسلام ؛ ولكننا نورد بنصه
توخياً للإمانة في الترجمة - (المترجم)

والصلاوك^(٢) . وذهب صمويل بيدس في يومياته إلى أن معظم الحجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت في ظل الحكم العثماني بجزية دينية أكبر مما نعمت به في ظل الأباطرة الكاثوليك . وهذا حتى كل الحق من جانب المسيحيين المهنطين . فقد ذكر سير توماس أرنولد : « أن الكلفين في الحجر وترنسلقانيا والموحدين في هذا البلد الأخير آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت نير آل هابسبرج المتعصبين وأن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك ، وربما أرتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الإسلامي^(٣) » . وما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك ، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث : -

إن كثيرا من اليونان ذوى المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكا لتفوق المسلمين ، حتى أنهم ، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان في نطاق « صرية الأطفال » ، اعتنقوا الإسلام طواعية واختيارا . ولا بد من التسليم بأن سمو الخلق في المجتمع العثماني كان له دخل كبير في هذا التحول إلى إسلام ، قدر ما كان للطموح الشخصي لدى الأفراد^(٤) .

ولكن من الصعب تحديد هذا « سمو الخلق » لدى أتراك القرن السابع عشر . فان تافرية الذى تجول واشتغل بالتجارة في البلاد الإسلامية في ١٦٣١ - ١٦٣٣ ، ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ وما بعدها ، قال : « في تركيا لصوص كثيرون يتجمعون في عصابات . تقطع طريق التجار^(٥) ، وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادئة إلى الخير ولكن نفس الديانة التى روضت دوافعهم غير الإجتماعية وقت السلم ، أطلقت لهم العنان في ضراوة وعنف في حربهم مع الكفار ، وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحا . ووقعت غارات في الأراضى المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم . ومهما يكن من أمر ، فإن اتجار العثمانيين في الرقيق كان أقل بكثير ، عددا وقسوة ، من الحملات التى قام بها المسيحيون لجمع الرقيق في القارة السوداء . وكان الاتعماس في الشهوة الجنسية في العالم الإسلامى أشد

وأكثر أرهاقا منه في العالم المسيحي ، ولو أنه كان عادة في نطاق الحدود المنظمة لتعدد الزوجات . وكان المجتمع التركي ، عل وجه التحديد . مجتمع رجال ، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظورا خارج البيت . فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان ، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية . وانتشر السحاق داخل الحرم (٨) .

وسادت حياة عقلية نشيطة ، ولو أنها مقيدة ، بين أقلية كبيرة من المسلمين . وربما كانت نسبة معرفة الكتابه والقراءة في تركيا أوربا في القرن السابع عشر أعلى منها في العالم المسيحي وربما حكمنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجي خليفة (١٦٤٨) ، يضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب في اللغات العربية والتركية والفارسية . وكانت هناك مئات المجلدات في الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ (٩) . وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد ، غالبا ما استندنا في كتابتنا هذه إلى مؤلفه « تاريخ الأسرات الإسلامية في أسبانيا » (نفتح الطيب) . وقد عرفناه أساسا باسم « المقرئ » ، وقد اشتق اسمه من اسم مسقط رأسه في قرية في الجزائر . ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة ، ومع ذلك فهو إنتاج جدير بالذكر في عصره ، لم يزدنا بأخبار السياسة والحرف فقط ، بل أمدنا كذلك بشيء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب . وأحيا مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والنوادر التهذيبية .

ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة في تركيا تقريبا . واشترك الحكام بحماسة في هذه المباراة (كما هو الحال في اليابان) . وألف محمد سليمان أوغلو المعروف « بالفضولي » (وهو أسم أخف على السمع) ، أرق أغاني الحب في ذلك العصر ، وربما بدت ساذجة في الترجمة . الإنجليزية الرديئة التي توفرت لنا ، وليكننا ندرك مراميه - تميزت غادات بغداد بالدفء والحرارة والطرلوة ونعومة اللمس ، والخضر والرقة حتى

يتزوجن . أما محمود عبد الباقي (المتوفى ١٦٠٠) وهو أعظم الشعراء
الغنائيين العثمانيين ، فإنه بعد أن كان المغنى الأثير لدى سليمان القانوني ، ظل
يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد وفاة راعيه . وكتب نافع الذى عاش في
أرضوم ، هجاء لاذعا ، لا بد أن شيئا منه صعد إلى السماء ، فإنه بينما كان
السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت صاعقة على قدميه ، فمزق السلطان
الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية ، وسرعان ما أعيد إليها ، وأمكن قصيدة
هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا ، فأمر بقطع رأسه (١٠) .

وظل الفن العثماني ينتج التحف والروائع ، فقد بنى مسجد أحمد الأول
في ١٦١٠ يشرف على العاصمة بمآذنه الست المحلقة في الجوى ، وسلسلة قبابه
المنتفخة (البصلية الشكل) ، وأعمدته المحززة الضخمة في الداخل ، وأقواس
الفيبسفساء ، والكتابات الفخمة والزخارف المتناقة . وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى
السلطان لزوجته ذات الخطوة لديه مسجد بيتي فالدى جاميسو الرابع . وبنى في هذه
الحقبة في دمشق مسجدان ضخمان . أما في أدرنه فإن المهندس المعمارى الذى
لا نظير له . سنان الذى كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم
الثاني مسجدا يعده بعض الناس أعظم من أى مسجد آخر في القسطنطينية .

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام في صنع تربيعات الترميد الجميلة التى
نشاهدها ، على سبيل المثال في مسجد أحمد الأول ، وأجمل منها تلك التى تزين
مدخل ضريح سليم الثاني بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء
والزرقاء وسط أغصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء ، ولا يمكن أن
تكون الزهور الحية أجمل من ذلك ، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول
بقائها . وكانت أزيق - حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرنا المجمع
التاريخى الذى ثبت العقيدة المسيحية - نقول كانت مشهورة بتربيعاتها البراقة
وثمة نماذج مقنعة منها في متحف المتروبوليتان للفن .

وكان رسم المنمنمات في تركيا يحاكي نظيره في فارس التى سنتحدث عنها وشيكا
أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطرأ واحداً بخط مير عماد بيع بقطعة

من الذهب أثناء حياته^(١١) إلى حد أنه لم يطبع أى كتاب فى تركيا قبل عام ١٧٢٨ . وفى النسيج كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس ، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هولاء . ولم يبلغ السجاد التركى درجة الإيراني فى رقة النسيج ودقة التصميم والرسم أو الثراء فى الألوان . ولكنهم يحتلون مكانة عالية فى تاريخ هذا الفن . وكان السجاد التركى فى القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل فى الغرب لأننا نراه فى لوحات الرسام الإيطالى أندريا مانتينيا ، وبعده فى بنتوريكيو ، وفى باريس بوردون وهولبين . وكسى كثير من قصور التيودور بالسجاد التركى ، بل إن كرومول المتشدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه^(١٢) . وإننا لنجد هذا السجاد ممثلاً فى قطع النسيج المزركش (الكانفا ، الجويلان) ، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر . لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء .

٢ - معركة ليبنتو

ومهما يكن من شىء ، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع ، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزيمتهم على تحويل أوروبا بأسرها إلى الإسلام . أن رصيدهم البشرى وثروات مملكتهم الزاحفة فى كل مكان هيات لهم أكبر جيش وأحسنه عتادا وعدة فى أوروبا . وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفا . وربما كان خلاص الغرب وخلص المسيحية فى ترامى أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو ، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة فى الوقت المناسب ، كما أن السلاطين ، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية ، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حيثما تهيأت للحريم ، فرصة لتحقيق مآربهم ، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعى الزوال ، نزع بهم تزعزع مراكزهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم ، بجمع الثروات أيام سطوتهم .

وهكذا كان سليم الثاني الذي خلف سليمان القانوني ١٥٦٦ ، حاكما منحملا خاملا ، لم تتجمل عبقريته إلا في أنه عهد بالإدارة والسياسة إلى وزيره القدير محمد سوكلي . وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيميليان الثاني اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكات . وحول سوكلي وجهه سطر فريسة أقرب . فقد احتفظت بلاد العرب من قبل ، باستقلالها الديني ، ولكن تم الآن للباب العالي فتحها (١٥٧٠) وكانت ممتلكات البندقية لاتزال متناثرة في بحر ايجة ، تعوق أساطيل تركيا وتجارها . وقصد لا لامصطفى على رأس ٦٠ ألف مقاتل لهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدها ، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا . فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسى أن الأسطول التركي في ١٥٦٦ هدد أنكونا نغر البابا وقلعته على الإدريانيك . كما علم فيليب الثاني أن عرب الاندلس استصرخوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الاسباني (١٥٦١) وأن السلطان رجب بمبهورثيم إليه . وكان الموقف الدبلوماسي مواتيا . ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك في الحرب ضد تركيا ، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا في مصلحة أمنه أن ينقضها . وعارضت فرنسا أية خطة يزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها . ووثقت معرى للصدقة مع الأتراك عونا لها على مواجهة الإمبراطور . وخشيت إنجلترا مغبة الدخول في مغامرة مشتركة مع فيليب الثاني يجعلها تحت رحمة أسبانيا الكاثوليكية في حالة انتصارها . وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتي بالقوات الأسبانية إلى الأدياتيك . فتقضى على احتسكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه . وقضى بيوس عاما كاملا في التغلب على هذه الحيرة والتردد . وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأهوال الكنييسة . وأخيرا في ٢٠ مايو ١٥٧١ انضمت القوى الثلاث في «عصبة مقدسة» واستعدت للحرب .

وفي أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركي على قبرص . مع خسائر

جسيمة تكبدها الطرفان . وسقطت فيقوميا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوما . وأعدم بحد السيف عشرون ألفا من سكانها ، وقاومت فأما جوستا زهام عام : وعندما سقطت (٦ أغسطس ١٥٧١) سلخ البطل المدافع عنها ، مارك أنطونيو براجادينو ، حيا ، وحشى جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكارا للنصر .

وكانت الظروف تستحث العصبة المقدسة على العمل ، فجمعت قواتها . وأسهمت بالسفن والرجال ، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفرانكا وأوربينو وجنوة ، عدو البندقية القديم . وفي نابلي تسلم دون جران النموسى لواء العمياد في احتمال هيب من الكاردينال دى جرانفل . وفي ١٦ سبتمبر ، بعد أن تناول البحارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكيوشيين الذين التحقوا بالجملة ، أنجز الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو في محاذة جنوبي إيطاليا ، عبر مضيق أوترانتو . وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائح التي اقترنت بسقوط قبرص . وتعالمت صيحات النصر ، فليحى المسيح ، عندما أصدر دون جران أوامره بالانطلاق إلى القتال .

وفي ٧ أكتوبر ١٥٧١ تحرك الأرمادا عبر خليج بتراس إلى خليج كورنث . وكان الأسطول التركي ينتظر بعيدا عن نغر ليبنتو ، وهو يضم ٢٢٢ سفينة شراعية كبيرة ، و ٦٠ سفينة صغيرة ، و ٥٧٠ مدفعا ، و ٢٤ ألف جندي ، و ١٣ ألف ملاح ، و ٤١ ألف مجدف . وكان لدى المسيحيين ٢٠٧ سفن شراعية ، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع ، و ٣٠ سفينة صغيرة و ١,٨٠٠ مدفع . و ٣٠ ألف جندي و ١٣ ألف وتسعمائة ملاح ، و ٤٣ ألف مجدف (١٢) . ورفع الأسطول المسيحي علم المسيح مصلوبا . ورفع الأسطول التركي علم الساطان يحمل اعط الجلالة ، الله ، موسى بالذهب . وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الأتراك ، ولكن الجناح الأيسر الذي كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجرم منظم ، وأودت مدفعيتهم

بحياة آلاف من الأتراك . وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادته قد مانحو سفينة أمير البحر التركي موسيناد علي . فلما ألقت السفينتان ، قفز ثلثمائة من جنود دون جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشي ، يلوح بالصليب عاليا . وتقرر مصير المعركة ، عندما أسرت السفينة ، ورفع رأس على المنفصول عن جسده فوق سارية عليه (١٤) . وانهارت الروح المعنوية لدى الأتراك . وهربت ٤٠ من سفنهم ، وأسرت ١١٧ أخرى ، كما أغرق أو أحرق خمسون سفينة . ولقى حتفه في المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الأتراك ، وأسر عشر آلاف ، وزع معظمهم رقيقا على المنتصرين . وحرر نحو ١٢ ألفا من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية . وفقد المسيحيون ، وقتل منهم ٧٥٠٠ رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات في إيطاليا . ولا نزاع في أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية في التاريخ الحديث . ووصفها سرفنتز الذي كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم ٧٥٠٠ بأنها «أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالي أو العهود الحاضرة . وقد لا يكون له نظير في المستقبل» (*) ، (١٥) .

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة في التاريخ الحديث ، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التي لحقت بالأسطول المنتصر ، وهبوب عاصفة عنيفة ، حال دون تعقب الأتراك . فقد ثار النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم . ولما كانت أسبانيا قد أسهمت في القتال بنصف السفن والنفقات ، والبندقية بثلاثها والبابا بالسدس ، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الاسهام . ووزع الأسرى الأتراك بهذه النسبة ، فخص أسبانيا ٣٦٠٠

(*) طلى بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الغربي ، قرب اكتوبر . على خليج آرثا الحالى ، انتزع اكتافوس بأربعمائة سفينة حربية السيادة على عالم البحر المتوسط القديم من أنطونيوس وكليوباتره ، وسفنها الحربية الخمائة (٢ سبتمبر ، ٣١ ق م) .

عبد مكبلين في الأصفاد ، ومن نصيب البابا منح دون جوان ١٧ عبدا مكافأة شرفية لقاء خدماته^(١٦) . ورغب بعض الزعماء المسيحيين في الاحتفاظ بالارقاء المسيحيين الذين حرروا من السفن التركية ، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف^(١٧) .

وابتهجت أوروبا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر . وازدانت البندقية بكاليل الزهر والتحف الفنية ، وتبادل الرجال القبلات في الشوارع ، ورسم تيشيان وتنتورنو وفيرونيز لوحات ضخمة عن المعركة ، واحتفل بالقائد الفينيسي سباستيان فنييرو وأياما وإيالي كثيرة ، وأخيرا اختبر لتولى منصب « الدوج » (القاضى الأول في جمهورية البندقية) . أما في رومه ، حيث قضى رجال الدين وعامة الناس ساعات كل يوم في الصلوات وأحر الدعوات منذ غار الارمادا مسينا ، فقد تعالت صيحات « الشكر للرب » في مرح وابتهاج وارتياح ، وكاد البابا بيوس الخامس ، منظم النصر ، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل « هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا » (انجيل يوحنا ، ١ : ٦) وتليت القداصات وأطلقت الألعاب النارية ، ودوت طلقات المدافع . ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أمطولا آخر ، وتوسسل إلى حكم أوروبا أن ينتهزوا الفرصة ليتحدوا في حرب صليبية لطرد الأتراك من أوروبا ، ومن الأرض المقدسة . وأهاب بشاه إيران ، وبأمير اليمن السعيد أن ينصحا إلى المسيحيين اللانقضاض على الأتراك^(١٨) . ولكن فرنسا الحاكمة على أسبانيا اقترحت على السلطان ، عقب ليبنتو مباشرة ، تحالفا مباشرا ضد فيليب الثاني^(١٩) * .

(*) في عام ١٥٢٦ حصلت فرنسا من تركيا على « أولى الامتيازات » . ووجدت في ١٥٦٩ ولم تكن تنازلات بل معاهدة اتفق بمقتضاها ، أساسا ، على أن يعامل الرعايا الفرنسيون في الأراضي التركية ، ويحاكموا وفق القانون الفرنسي « الفضلاء » خارج أراضي الدولة « ووقعت تركيا مثل هذه الامتيازات مع إنجلترا في ١٥٨٠ ، ومع المقاطعات المتحدة (في الأراضي الوطنية) في ١٦١٣

واشتركت أبناء هذا العرض مع عوامل أخرى في ثنى فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية . وتورط في النزاع مع إنجلترا ، وفي المأزق الذي أوقعه فيه دوق ألفا في الأراضي الوطيمة ، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة في الأدرياتيك ، وخشى من أن انتصار ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة في امبراطورية البندقية المتداعية ، فتصبح منافسا قويا لاسبانيا . أما بيوس الخامس الذي أرهقته الانتصارات والهزائم معا ، فإنه لقي ربه في أول مايو ١٥٧٢ ، ومات معه العصبة المقدسة .

٣ - اضمحلال السلاطين

وفي نفس الوقت ، وبنشأط أفزع الغرب . بنى العثمانيون أسطولا آخر ، في مثل ضخامة الأسطول الذي كاد أن يدمر عن آخره . وفي بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو ، كان ثمة أسطول تركي مكون من ١٥٠ سفينة يجوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحي الذي بلغ من سوء النظام حدا لم يجرؤ معه على الخروج من مكنه . وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب ، ولكن أحدا لم يمد لها يد المساعدة ، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (٧ مارس ١٥٧٣) صلحا لم تتنازل بمقتضاه عن قبرص لحسب ، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضا يغطي ما تكبده من نفقات في فتح الجزيرة . لقد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب . ويبدو كيف أنهم لم يصعبهم أي وهن ، من العرض الجريء الذي تقدم به سوكرالى إلى البندقية (١٥٧٣) ، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك في حربهم ضد أسبانيا ، فلسوف يساعدونها في غزو مملكة نابلي لتكون تعويضا سخيا لها عن ضياع قبرص . ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحي . وفي أكتوبر أحميا دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا ، ولكن في بحر عام واحد استطاع الأتراك بأسطول صخم آنذاك (٢٥٠ سفينة) استعادة المدينة

وذبح الأسبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثاً . وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية . ومات سليم الثاني في ١٥٧٤م ولكن ظل سوكللي يتولى شؤون الدولة ويدير دفة الحرب .

وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) على حين أنه كان يجب الفلاسفة . ولكنه كان مولعاً بالنساء كذلك . وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات . وكان من ذباؤهم ، الزوجة ذات الحظوة لديه ، وهي أمة من أسرى البندقية ، أسرته بمفاتها ، وتدخلت في شؤون الدولة ، واشترى نفوذها بالمال ، وتخلص نفوذ سوكللي ، ولما أقترح بناء مرصد ثارت نائرة الشعب ضده في نكرة تعصب ذميم ، فقتلوه (١٥٧٩) ، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد . وعمت الفوضى ، وانخفضت قيمة العملة ، وتمرد الانكشارية لهبوط قيمة أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئاً ، وأفسدت الرشوة الموظفين ، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشى السلطان . وانغمس مراد في ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها .

وسيطرت دباؤهم ، على أبنائها محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) قدر سيطرتها على والده . وبدأ حكمه بالعملية التقليدية ، فقتل تسعة عشر من أخواته ، لغرام وحثاً لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمية ، ولكن اخصاب مراد . أو ذريته الكبيرة ، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة ، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحدى بهم الأخطار . وأنتشر الفساد وسادت الفوضى . وضعيت الهزيمة في الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية . وواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عيلى الأول حاكماً قوياً في فارس ، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية ، ورغبة في التخصيف منها في الغرب ، أمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح دزفانوروك ، (١٦٠٦) ، وهي أول معاهدة تنازل الأنراك المزهورون بتوقيعها خارج القسطنطينية . ودفعت النمسا للسلطان مائتي ألف دركات ، ولكنها أعميت من أية جرية

بعد ذلك . وقبلت ترانسلفانيا السيادة التركية طواعية واختيارا ، كذلك عقدت فارس الصلاح (١٦١١) ، وأعطت تركيا مليون رطل من الحرير ، تعويضا عن الحرب . وتميز هذا العهد في جملته بالتوفيق والسلامة لولا ما شابهه من استمرار الانكشارية في تمردهم . وكان السلطان أحمد رجلا تقياً حزين النية ، وبذل للجهد ، ولكنه أخفق في القضاء على قتل الإخوة أخوتهم في الأسرة المالكة .

وأقترح عثمان الثاني (١٦١٧ - ١٦٢٢) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم ، ولكنهم اعترضوا وقتلوه ، وأجبروا أحاه الأبله المعتوه مصطفى الأول على اعتلاء العرش ، ولكن مصطفى أوتى من رجاحة العقل ما جعله يتخلى عنه (١٦٢٣) لابن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر اثني عشر عاما (١٦٢٣ - ١٦٤٠) . واختار الانكشارية كبار الوزراء ، وكانوا يذبحونهم كما لاح لهم أنه قد آن الأوان لأحداث تغيير . واقتحموا القصر للملكي وأجبروا السلطنة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكينوز استرضاء لهم . وفي ١٦٣١ عادوا إلى القصر ثانية ، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً . وقدم أحدهم - حافظ - نفسه للجماعة ، فدأه للباقيين ، فمزقوه إربا . وقابلهم مراد ، وهو لا يزال بعد غض الإهاب ، بما بدا أنه تهديد هين لين : « إلى لأرجو أن يمدني الله بعون من عنده : يا رجال الدم ، يا من لا تخشون الله ، ولا تشعشعون الخجل أمام رسوله ، سيحل عليكم أشد الانتقام^(٢٠) » . وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له ، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد . وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان ، بقسوة شديدة . وفي بعض الأحيان ، شارك السلطان بنفسه ، مثل - بطرس الأكبر - في تنفيذ أحكام الأعدام . وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء . وفي نشوة سلطته المالكية فرض عقوبة الأعدام على تناول التبغ أو القهوة ، والأفيون أو الخمر . وقيل أن جملة من أعدموا في عهده مائة ألف شخص ، باستثناء من لقوا حتفهم في

الحرب (٢١) . واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعى ونزاهة الإدارة . ولما أحس الآن بأنه فى مأمن إلى حد معقول ، استأنف الحرب مع فارس ؛ وقبل أن يتحدها محارب فارسى فى نزال فردى ، فأرداه قتيلا ، واستولى على بغداد (١٦٣٨) ، وجاد بصلح على نصر ، ولدى عودته إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال المنتصر الظافر . ومات بعد ذلك بعام واحد متأثرا بداء النقرس الذى سبب له الادمان على الخمر . وكان فى الثامنة والعشرين من العمر .

وبعد وفاة مراد الرابع ، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى . فإن إبراهيم الأول نجما من موت محقق بيد أخيه ، لكونه مخبولا ، أو لتظاهره بالخجل ، وتجددت الفوضى والفساد فى ظل حكمه الضعيف الطائش . وشن الحرب على البندقية وأرسل حملة إلى كريت . وسد البنادقة منافذ الدردنيل . وتضور أهالى القسطنطينية جوعا . وثار الجيوش وشنق السلطان . وعادت إلى ذاكرة الغرب المسيحية قصة الحرس البريتورى فى رومه ، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة مرير لأن يرهبوا قوة الأتراك وفى بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان الأتراك على أبواب فيينا من جديد .

٤ - الشاه عباس الأكبر : ١٥٨٧ - ١٦٢٩

انه لمن حسن حظ الغرب المسيحية أنه فيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٣٨ ، حين كانت فرنسا أولا ، ثم ألمانيا من بعدها ، قد شملت حركتها الحروب الدينية ، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا ، وجها كل مهمهم وطاقتهم إلى فارس . وهنا أيضا كان الدين مبررا يستر وراءه شهوة السلطان والسيطرة . فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ، رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة ، ودمغوا كل من ولى الخلافة بعد على ، وهو زوج بنت الرسول ، بأنه مغتصب لها . وكانت ذريعة

الحرب بطبيعة الحال دينوية أكثر منها دينية - وهى الرغبة فى حكم الأقليات طمعا فى مزيد من الأراضى والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب . ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين ، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبريز ، والعاصمة العربية القديمة بغداد، التى وصفها بيدرو تكسيرا (١٦١٥) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود ، الذين يعيشون فى ٢٠ ألف بيت من الأجر ، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيول والخير والبغال المحملة ، والرجال نظيفى الثياب ، وكثير من النساء الملبحات الوسميات ، وعيونهن ، كلهن تقريبا ، جميلة تحديق فوق خمرهن أو من خلالها ، (٢٢) . وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك .

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة ، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين فى الشمال الغربى ، وإلى تركستان فى الشمال الشرقى ، وإلى أفغانستان شرقا ، وإلى المحيط الهندى جنوبا ، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسى) فى الجنوب الشرقى ، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد ، تنتظر أن تحل فيها رح تضم شتاتها .

وكان عباس الأكبر خامس شاه ، أو ملك ، من الأسرة الصفوية التى كان قد أسسها إسماعيل الأول فى تبريز ١٥٠٢ . وفى عهد الشاه الثانى طهما سب الأول الذى امتد حكمه طويلا (١٥٢٤ ت ١٥٧٦) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك . وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية : العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم . وفى نفس الوقت جاء الأزابكة من بلاد فيما وراء النهر ، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور ، واجتاحوا الولايات الدارسية الشرقية . ولما ارتقى عباس العرش (١٥٨٧) وهو فى الثلاثين من العمر ، دون أن يكون له عاصمة ، عقد الصلح مع الأتراك ، وتقدم شرقا ليقابل العدو الأصغر شأنا وأقل نفرا . وبعد حروب دامت أعواما استرد هراة وطرد الأزابكة من فارس ، ومات بعد ذلك متلهفا

على ملاقاته الاتراك . ولكن الخسائر والاحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه القوي كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير .

وحوالي هذه الفترة (١٥٩٨) وصل من إنجلترا إلى فارس في بعثة تجارية انجليزيان هغامران هما سير أنطوني شيرلي وأخوه الأصغر روبرت ، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية . وكان برفقتهم خبير في صنع المدافع . وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه ، وزوده بالبنادق والسيوف معا ، وسرعان ما توافر لديه ٥٠ مدفعاً . وقاد قواته الجديدة ضد الاتراك وطردهم من تبريز (١٦٠٣) ، واسترد أريقان وشروان وكادن . فأرسل عليه الاتراك جيشا عروما قوامه مائة ألف رجل ، هزمه عباس بستين ألفا فقط (١٦٠٥) ، واسترد بذلك أذربيجان وكرديستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند .

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة ، كان الشاه عباس قد شرع (١٥٩٨) في تقييد عاصمة جديدة ، أبعد منالأعلى الغزاة من تبريز ، وأقل تدنسا بذكريات الأجانب وأقدام السنين ، كانت أصفهان موعلة في القدم لمدة ألفين من السنين (ولو لم تكن تحمل هذا الاسم) ، وكان عدد سكانها ثمانين ألفا . وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان المللكي ، طولها ١٦٧٤ قدما وعرضها ٥٥ قدما ، وتحوطها الاشجار وعلى جانبين منها متزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس . وفي الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد المللكي ؛ ولإلى الشرق بنى مسجد لطف الله والقصر المللكي ؛ وشغلت بقيت المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس . ولإلى الغرب من الميدان شق طريق باتساع مائتي قدم « شاهار باع » (البساتين الأربعة) تحف به الأشجار والحدائق تزينه البرك والنافورات وعلى جانبي هذا الطريق المزدان بالأشجار قامت قصور الوزراء . وجرى عبر المدينة نهر زاياند الذي بنيت عليه ثلاثة جسور ، كان أحدها دانه فردي خان ، تحفة

جميلة في فن البناء ، يمتد ١١٦٤ قدما مع طريق عريض مهد ؛ و يمر مقنطر على الجانين المشاة ؛ وكانت المدينة الجديدة تروى وتبترد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات . وكان التصميم في مجموعة قطعة رائعة في تخطيط المدن ، تضارع أروع ما عرفه ذلك العصر في أي مكان آخر (٢٣) .

وعندما زار الرسام الفرنسي سيمون شاردان أصفهان (١٦٧٣) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النمق في الإدارة والتجارة والصناعات والفنون تحوزها ١٥٠٠ قرية ، ويسكنها ٣٠٠ ألف نسمة . وكان بالمدينة وضواحيها ١٦٣ مسجداً و ٤٨ كلية و ٢٧٣ حماما عاما و ١٨٠٠ خان (فندق صغير) . ووصف تافرنيه أصفهان عندما رآها في ١٦٦٤ بأنها تضارع باريس في الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية ، لأن كل أسرة في أصفهان كان لها بيتها وحديقتها ، وأن الأشجار بها كانت كثيرة إلى حد أنها بدت غابة لا مدينة ، (٢٤) أنها صورة جميلة لولا أن تافرنيه يستطرد فيقول : « وأمام كل بيته حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها ، ثم يأتي الفلاحون يوميا ليحملوها ليستخدموها في تسميد أراضيهم ، ولا بد أن تقابل في كل البيوت فتحات في الجدران تطل على الشارع . يقبع فيها الناس ، ولا يخرجون من الخفاط والتبول على مرآح من الدنيا بأسرها ، (٢٥) .

وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوروبا الغربية تحمده شغله الأتراك في الشرق ، فأرسل سير أنتوني شيرلي في بعثة لاقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية ، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك . وعندما قدم المندوبون الأوربيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح لهم الحرية الدينية . وكان قد أمر خمسة آلاف من الأرمن أنشاء حروبه مع تركيا ، فلم يستعبدهم ، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم في جولفا بالقرب من أصفهان ، وأفاد من نشاطهم التجاري ومن مهاراتهم . وهناك شادوا كفيستهم الخاصة بهم وزينوها بتخطيط من الصور المقدسه

المسيحية والزخارف الإسلامية واهبت برأس الشاه عباس فمكرة صهر الأديان كلها في دين واحد وفرض السلام على السموات والأرض، (٢٦). وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الخماس الشيعي لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمي فارس، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدي المناسك ويوزع الهبات والصدقات.

ومن ثم فإن العبارة التي جعل أصفهان تتألق بها، كانت دينية أساساً، مثل كنيسة العصور الوسطى في الغرب. فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهدوءها مفضرة وملكا للجميع. وكان أعظم ما يشير الإعجاب في مباني العاصمة الجديدة مسجد الشاه الذي بناه عباس (١٦١١ - ١٦٢٩). وكان الميدان، مدخلها الرائع وطريقها الفاخر، وبدأ الميدان كله وكأنه يؤدي إلى البوابة التي ترحب بالداخلين إليها. وأول ما يهر العين المآذن التي تطوق المدينة بأبراجها الناتئة الممخرمة التي يوحد المؤذنون فيها الله، والخزف اللامع الذي يكسو أطار الأبواب، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة. يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الضريح. حتى حروف الهجاء في فارس كانت فنا. وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيد موشاة بزهور بيضاء. ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى. ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة، والخط الكوفي الرائع عليها. وشكها المنتفخ، وهي مع ذلك رشيقة جميلة، مغطاة بالتريبعات المظلية بالميناء، في لون أزرق وأخضر في زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لا زورديّة. وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه حتى في يومنا هذا من أجمل المباني في العالم، (٢٧).

وإنه مسجد قد لا يشير الإعجاب بمثل هذا القدر، ولكنه أدق وأرق،

وهو الذى شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته ، وهو من أولياء الله الصالحين ، وهو مسجد الشيخ لطف الله ، وله باب رشيق ، وحرم ومحراب من الفسيفساء الفاتنة ، وفوق كل هذا ، فإن جماله من الداخل يجعل عن الوصف ، وأبعد عن التصديق - الزخارف العربية ، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية فى رسم متقن موحد . وهذا هو فن تجرىدى ، ولكن فى منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن ، بل فى نظام يسهل إدراكه ، يبحث فى النفس الارتياح والهدوء .

وفى الجانب الشرقى من الميدان بنى الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير « الباب العالمى » ، وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولو فى الميدان * . وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية ، وهى تضم عدة قصور إستخدمها الشاه لأغراض خاصة . ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً ، ولكن نال منه الزمن كثيراً . أربعون عموداً ، قاعة الاستقبال ، حجرة العرش قائمة على عشرين عموداً من شجر الدلب ، مكسوة بالمرابيا ، وقاعة طويلة تزينها رسوم زيتية تحكى أحداث عصر الشاه . وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدان بمناظر الحدائق ومجموعات الزهر . وفى متحف المتروبوليتان للفن يوجد أثنان من هذه الأبواب . ولا تزال قائمة فى مكانها الزخارف الجصية اللامعة ، مذهبة ، وفى ألوان أخرى ، من سقف قاعة الاستقبال . وهنا أيضاً نجد الفن التجرىدى ، وقد بلغ حد السكال . فى المنطق وفى التصميم .

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حياة ملكته الآخذة فى الاتساع . لقد أهتم ، مثل معظم الحكام العظام ، بكل الجوانب فى حياة شعبه . فبنى الطرق والجسور ، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق وروصفها

(*) لا تزال أعمدة المرمر الرخامية قائمة فى الميدان . وجاءت لمبة البولو إلى

بالحجارة . وشجع الصناعات والتجارة الخارجية واستخراج المعادن من بطن الأرض . وبنى السدود ، وتوسع في روى الأراضى ، وأمد المدن بالماء النقى ، وجدد المدن التى لحقت بها أضرار - مشهد ، قزوين ، تبريز ، همدان قال تاجر نيه : « كثير ما تنكر الشاه وجاب أنحاء أصفهان ، كأى مواطن عادى ، مدعياً أنه يبيع ويشترى . وكل همه أن يسكشف عن التجار المطففين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة فرأى اثنين بجرمين منهم ، فأمر بدفنهما أحياء ، (٢٨) تلك هى الطريقة الشرقية لفرض احترام القانون وتدعيمه وعند قصور الإشراف والرقابة والشرطة ، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية فى الإنسان إلى التحلل من القانون أو خرقه . وربما كانت الحياة الحافلة بالحروب التى جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو للانتقام . فقتل أحد أبنائه وسمل عينى آخر (٢٩) . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر ، وقام بكثير من أعمال البر والاحسان ، ورعى كثيراً من الفنون .

وبموت الشاه عباس (١٦٢٩) أنقضى العصر الذى بلغ فيه الحكم والفن فى ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد . ولكن النظام الذى أرسى دعائمه نشاطه المتصل فى كل الميادين ، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده . وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف احتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجئ . العنيف لبلاد الفرس (١٧٢٢ - ١٧٣٠) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسى هذه ، ظل فن الصقوين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الانسان ومهارته .

٥ - فارس تحت حكم الأسرة الصفوية : ١٥٧٦ - ١٧٢٢

والآن تلتى بنظرة على عهد الصقويين ، من وفاة طهماسب الأول (١٥٧٦) ، حتى نهايته (١٧٢٢) ، لأن هذا تطور ثقافى لا يمكن اقتطاعه ، تشبهاً مع تسلسل الأحداث فى أوروبا . لقد ترك لكثير من السائحين الغربيين بيانات مشرفة عن

هذا العصر في فارس . منهم بدر و تكسير آ الذي كان هناك في ١٦٠٠ والاب
الجزيري و يش كنه تسنسكي الذي أقام في أصفهان من ١٧٠٢ - ١٧٢٢ وكتب
« نخب الثمورية في فارس » وهو يتناول الأسرة الصفوية بأمرها ، و جان تافرنييه
الذي وصف بالتفصيل رحلاته (١٦٣١ - ١٦٦٨) في تركيا و فارس و الهند
و جزر الهند الشرقية ، و جان شردان الذي دون في عشرة مجلدات أنباء إقامته
في فارس (١٦٦٤ - ١٦٧٧) فإنه على الرغم مما لاقاه من ربح السموم بالقرب
الخليج ، وقع في غرام فارس ، و أثر أصفهان على باريس وقت الصيف ،
ووجه أصفهان من الروعة و الجمال ، ما جعله يقول « أنا نفسي
لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لسكل إنسان » . و قال أن سماء
فارس الصافية ، بأن لها أثرها على الفن الفارسي فأصفت عليه براء ورواد و لونا
براقاً . كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس و عقولهم (٣٠) (*) و اعتمد
أن الفرس أفادوا من إختلاطهم بأهل جورجيا و القوقاز الذين أعتبرهم أجمل
و أشجع أهل الأرض - و لكنهم لا يضارعون الجهاد الفارسية في رشاقتهما
و جمالها (٣١) .

ولكن هذه البلاد التي كانت يوماً جنة عدن ، و مقر الخلفاء الذين ازدانوا
بالجواهر الثمينة ، و الشعراء الذين نظموا اعذب الشعر ، و دمرتها غارات المغول
و تمزق الحكومة ، و إهمال الترع و هي شرايين الحياة ، و امتلاؤها بالطمي ،
و تحول طرق التجارة ، فإن اكتشاف طريق مائي في كل أجزاء من غرب
أوربا إلى الهند و الصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد . على أن بعض
التجارة انتقل عبر الأنهار إلى الخليج . و في ١٥١٥ استولى البرتغاليون على
هومز و هي أهم الشغور على الخليج ، و ظلوا فيها لمدة قرن . و في ١٦٢٢
طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية ،

(*) أنظر شيشرون حيث يقول : « ان هواء أثينا الطيب يقال أنه ساعد على
توقد الذكاء عند أهل أتيكا »

و بنى الشاه بالقرب منها مرفأ تجاريا آخر هو بندر عباس (نغر عباس) ، فساعدت التجارة التي نمت فيه على تمويل الفن والبذخ في عهده . وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس ، و خلقت شيئا من الثراء في المدن الواقعة على طريقها ، و وصف تكسييرا حلب بأنها مدينة تضم ٢٦ ألف بيت ، كثير منها مبنى من الحجر المصقول ، و بعضها يليق لسكنى الأمراء ، كما تضم المسلمين والمسيحيين واليهود جنبا إلى جنب ، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة ، و عدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام (٣٢) .

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية - صناعة العصور الوسطى التي تسمى بالمثابرة على بذل الجهد والتذوق الرفيع مع الأناة والبطء - ولكن كان في حلب مصنع للحريز ، وكان التبغ يزرع في كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة في ترشيح التبغ ، فكان الدخان يمر بالماء ، و من ثم د ينقى التبغ من كل العناصر الزيتية والضاورة (٣٣) ، وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس ، فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة (٣٤) ، وكان الشاه على التقيض من ذلك ، ففكره عادة التدخين ، و حاول أن يشفي منها رجال حاميتة بحيلة . فأتى بروث الخيل وجففه ، ووضعه بدلا من التبغ في الأواني التي يملأون منها الأراجيل ، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالى الثمن أهدها همذان ، فدخنوه ، وبالغوا في إمتداحه . وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عمير ألف من الزهور . فصاح الشاه دئس هذا العقار ، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل (٣٥) .

وكان أى رجل و هبه الله المقدرة والكياسة يستطيع أن يحتل مكانا في حاشية الشاه ، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد ، أو الحسب والنسب (٣٦) . فثياب الجنسين من كل الطبقات كانت في أساسها واحدة . رداء يصل إلى الركبتين ، ذو أكام ضيقة ، وحزام عريض (مصنوع أحيانا من الحرير الموشى بازهور) حول الخصر ، وقيص من القطن أو الحرير تحت الرداء ، و سروال مضموم عند رسغ القدمين ، وعمامة تتوج هذا كله . وكتب تافرنييه:

وكانت ملابس النساء ثميثة ، وفيما عدا هذا لا يفرقن عن الرجال في شيء كثير ، فارتدين السراويل مثلهم ، (٣٧) . وأقن في عزلة في الحرم ، وقلبا غادرن البيت ، فإذا فعلن فنادرا ما سرن على الأقدام . وكان ثمة ثلاثة أجناس ، فكان الرجال يوجهون كثيرا من شعر الغزل إلى الغلمان . ورأى توماس هربرت ، وهو إنجليزى فى بلاط الشاه عباس - مسقاة من الغلمان فى صدرات من الذهب ، وعمامات مزدانه باللمع (الترتز) ، وأخفاف فاخرة ، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم ، عيونهم يقظة تحوم فى كل زاوية ، ووجناتهم متوردة ، (٣٨) .

ولخط شاردان نقصا فى السكان فى زمانه ، ونسبه إلى :

أولا : البرعة النكراء لدى الفرس إلى اتيان الفعلة البغيضة ، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما .

ثانيا : الترف المفرط (الحرية العنسية) السائد فى البلاد ، فالنساء هناك يبدأن الحمل فى سن مبكرة ، ويستمر الإنجاب لفترة قصيرة ، وما ان يجازون سن الثلاثين حتى ينظر إلهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السنون . ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على نساء فى ميعة العبا والشباب ، فى إفراط شديد ، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء ، فإنهم لا ينتجبون منهم مزيدا من الأطفال قط . وهناك كذلك نساء كثيرات جدا يعمدن إلى الإجهاض ، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل ، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل ، ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه ينافى اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد .

وكان هناك ، عل الرغم من تعدد الزوجات ، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشارا واسعا ، رغم تحريم الاسلام للخمر . وكثرت المقاهى واشتق اللفظ الأوربى من نظيره العربى (قهوة) . وكانت النظافة

أكثر شيوعاً في المظهر منها في الحديث . وكانت الحمامات — منتشرة ، وكانت أحياناً مزخرفة بشكل جميل . ولكن أكثر هناك الابتذال والفحش . وقال عنهم تافرنبيه : أنهم مخادعون مرآبون كبار ، ويقول شاردن أنهم اعتادوا الكثير على الغش ، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس في الدنيا ، متساهلون كرام ، أساليبهم جذابة غاية الجاذبية ، وطباعهم ليثة غاية اللين ، وحديثهم نوع غاية النعومة . . . وهم في مجموعهم أكثر الشعوب تمدناً في الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم ، في العادة يغنون — القصائد التي ينظمونها .

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم في بلاط المغول في دلهي ، ولكن لم يتهياً لأحد منهم في تلك الحقبة مترجم مثل قنجرالد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم . وانا لنعلم أن (عزفي الشيرازي) كان على رأس الشعراء في القرن السادس عشر . وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدى) على الأقل ، ولكن من منا ، نحن المحليلين في تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه ؟ . وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه ، كما نستخلص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة .

لقد انحطت قواي إلى هذا الحد ، ووقف أصدقائي الفصحاء كالمنابر حول فراشي ووسادتي . واحد منهم يداعب لحيته بيده ، وينصب رقبة ويقول . (واأبتاه) . لمن دامت الدنيا ؟ (سبحان من له الدوام) .

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة . أين امبراطورية جامشيد وأين الاسكندر ؟ .

ثم يأتي آخر ، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع ، ويقول في صوت رقيق ولهظ حزين : دأيتها الحياة كلنا يسير على هذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا . كنا مسافرون نعبر عليه ، ويمضى بنا الزمن .

وآخر ينمق كلامه بألفاظ أرق فيقول : استجمع قواك ، وهون عليك ، فاني ، لهدف واحد ، سوف أجمع أشعارك ونثرك وبعد نسخها وتصحيحها ، أقدمها عقوداً من الدر تعزز من شأنك وترفع من قدرك .. فلعل الله يمن علي بالشفاء فأسترد عافيتي . وسوف ترى كيف أصب جام غضبي على رثوس هؤلاء المنافقين التعساء .

وكان منافس عرفي ، في الشعر هو د صائب الأصفهاني ، الذي أخذ بمسنة الهجرة إلى دلهي ، كما هاجر الفنانون الفرنسيون والفيلسفيون في ذلك العصر إلى رومه . ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان ، وأصبح شاعر البلاط لدى الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ - ١٦٦٦) ، وكان ينحوي قليلاً نحو الفلسفة ، فنظم أبياتاً تفيض بالحكمة :

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدي في النهاية إلى نفس المسكان والحلم هو الحلم ، ولكن المفسرين هم الذين يختلفون . . وإن العلاج الوحيد لهذه الدنيا التي لا تستقيم أمورها ، هو إخفائها وتجاهلها ، فإن اليقظ فيها هو الذي يستغرق في سمات عميق .

وأن الموج ليجهل طبيعته الحققة للبحر . وكيف يدرك الفاني العابر حقيقته الخالد الباقي ، أن أشد ما يقض مضجعي حول يوم البعث هو لأنه لزام علينا أن نرى ثانية وجوه البشر .

وإذا فاتنا أن ننعيم بموسيقى الشعر الفارسي ، ففي مقدورنا أن نستمتع بفن فارس قضي الفن . حديث يمكن استيعابه وفهمه ، فإن البراعة والأناقة والذوق ، أي كل ما تشكل في فارس على مدى ألفي سنة . أبيض وأني أكله الآن في العمارة والحزف والتذهيب والنخط وحفر الخشب وأشغال المعادن والسيج والأقمشة المزركشة والسجاد . وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف العالم اليوم . وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شبيذات في عهد الشاه عباس الأول في أصفهان . وهناك بني عباس الثاني (مسجد الأشرف

(١٦٤٢) ، وهناك في غروب شمس الصفويين شاد الشاه حسين (مدرسة أم الشاه) التي قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس ، وثمة مدن أخرى كانت تفاخر بمنشآت جديدة : مثل مدرسة الخان في شیراز ، والضريح الضخم لخوجة ربيع في مشهد ، والمقبرة المخربة الآن ، ولو أنها لاتزال جميلة ، وهي مقبرة (قدم جاه) في نيسابور ، والجامع الأزرق في أريغان .

وأسس الشاه عباس في أصفهان أكاديمية للرسم ، كان مطلوباً من الطلبة فيها - كجزء من برنامجهم ، وأن يفسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص . والآن ، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا ، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامي ، برسم منمنمات يبرز فيها لإنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالي رأساً على عقب . ففي الرسم في عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر ، ثم أصبحت خلفية ثانوية ، (وربما باضمه جلال النزعة الفردية في ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص . ولكن في التصوير الإسلامي كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر ، ثم أبيضحت على أنها شيء ثانوي عارض ، وفي المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت في الرسم . ومثل هذا في «درب الياز»^(٤٦) : رجل عظيم يرتدى ثوباً أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خلفية أقل بروزاً من زهور ذهبية اللون . وفي «شاعر يجلس في الحديقة»^(٤٧) تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة ، وثمة ابتداع آخر في الرسوم الحائطية ، التي رأينا مثلاً لها في «شهيل سوتون» . ولكن الأساندة العظام تخصصوا في زخرفة القرآن الكريم ، أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامه للفردوسي ، أو جوليستان لسعدي ، التي ذهبها «مولانا حسن ، البغدادى بماء الذهب» .

وتفوق في الرسم في هذه الفترة الصفوية الثانية ، رضا العباسي . الذي أضاف

إسم الشاه إلى إسمه تقديرا واعترافا بالرعاية الملكية . وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل . وتدهور بعده الفن ، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته ، انتهيا إلى إفراط مخنث . وفي نفس الوقت فإن الطراز الفارسي الذي تأثر بالفن الصيني ، أثر بدوره في رسم المنمنمات في بلاط المغول ، بل حتى في عمارتهم . وذهب حروسية إلى أن «تاج محل» لم يكن إلا فصلا جديدا في فن أصفهان^(٤٨).

وظل الخط فنا رئيسيا في فارس . وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة ، أن يظهر بمثل الحب الذي حظى به لدى الشاه عباس رضا العباسي من أجل منمنماته . وكانت المكتب موضع إعزاز وحب لشكلها قدر ما هي لمحتوياتها . فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهريّة الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات المكتب بمثل الفخر الذي وقعوا به الصور ، فنقش على جلد كتاب مذهبة من أوائل القرن السابع عشر ، « من صنع محمد صالح التبريزي ،^(٤٩) . وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن ، وعليه رسوم « بورنيس اللك » ، موقع عليه باسم علي رضا . ومؤرخة في ١٧١٣^(٥٠) وكلاهما جميل إلى حد مفر .

إن التريبعات المحلاة بالرسوم في المدن الفارسية لتبهر الأنظار ، بعد القباب أو عليها ، إن طول عمرها ليثير الدهشة من فن صناعة الخزف ، الذي يهيء طول البقاء لمثل هذا البريق . وإطالة عمر اللون بتزجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة في فارس . لقد كانت التريبعات المزججة في سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (٤٠٠ ق . م .) فريدة من نوعها بالفعل . وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألوانا أكثر لمعانا ، وخاصة الأحمر الياقوتي والأزرق الفيروزي ، وكانت مضاعفة الأحراق تزيد من صلابة الصلصال والتزجيح ليقاوم قعل الزمن . ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التريبعات في كنائسهم المسيحية في جولفا وهي تبلغ في دقتها المنمنمات . وربما كان أجمل منها ، التريبعات المحلاة

بالرسوم في مجموعة كوركمان ، المنسوبة إلى أصفهان في النصف الثاني من القرن السابع عشر (٥١) .

واستمر الخزافون في أصفهان وكاشان وغيرهما ، يبدعون أشكالاً من الخزف - القناني والزبيديات والأباريق والأطباق والفناجين ، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة . وأصبح الخزف المزخرف الفسيفسائي مادة أثيرة لتغطية الجدران في المساجد والقصور . واستورد الشاه عباس الخزف الصيني ، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل ، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة . ومرة أخرى بفضل استحداث الحاكم وتشجيعه بذات المحاولات في أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية . وتفوق صناع الأشغال المعدنية في نقش النحاس وتطعيمه ، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى ١٥٧٩ شمعدان موجود في متحف متروبوليتان للفن ، وفي الارميتاج في لنتنجراد غمد سيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع .

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفنا . وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزاً كبيراً في أصفهان . وكانوا يعدون بالآلاف . وكان لإنتاجهم هو السلعة الرئيسية في تجارة الصادرات . كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية في أقمشة الأطلس والخمّل والتفتة والمطرزات والحرائر . وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة ، اختار بعض التحف من إنتاج الأنوال الفارسية . ويقول شاردان ، أن الثياب التي أهداها بهذة الطريقة لا حصر لها ، (٥٢) والثياب التي كان يرتديها الشاه ورجال حاشيته من الحرير والأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لا مثيل لها في ملابس أي بلاط في أوروبا . وكتب يقول ، إن فن الصباغة أدخل عليه في فارس تحسين أكثر منه في أوروبا ، فكانت الألوان أكثر ثباتاً ولمعاناً ، ولا تحول بسرعة ، (٥٣) . ولم يكن الخمّل كاشان نظير في أي مكان آخر . ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات في متاحف بوسطن ونيويورك

وسدان فرانسيسكو وواشنطن . ومن بين التحف التي استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بساط من المخمل الحريري المقصب ، من الواضح أنه صنع في اصفهان في عهد شاه عباس (٥٠) .

وبلغ النسيج الفارسي ذروته في التصميم وصنع الجلد ، وشهد عصر الشاه عباس غاية مجد هذا الفن في فارس . وكاد السجاد أن يكون ضروريا للفارسي قدر حاجته إلى الملابس ، وقال توماس هربرت في القرن السابع عشر : « كان في بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية ، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس . . . وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض ، مثل حائكي الملابس . وليس تمة لإنسان مهما قل شأنه إلا جلس على سجادة تمينة أو غير تمينة . وكل الدار أو الحجر . . . مغطاة بالسجاد (٥٥) » وساد آنذاك اللون القرمزي القائم أو الأحمر الخمرى الداكن ، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئا مريحا للنظر ، بغية أحداث التوازن بين هذه الوفرة التي تزخر بها السجادة ، لو أنها صممت لإبراز موضوع رئيسي بمنطق مقبول . وقد يكون هذا التصميم هندسيا ، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها ، تصنف على أفليدس جمالا وبهاء . وكثيرا ما قام التصميم على الأزهار ، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار ، ولكنها منسقة تنسيقا جميلا ، تمثل التناج المحبب إلى الناس في هداياهم : أزهار مصفوفة في أصص ، أو منشورة هنا وهناك ، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين ، مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك في رشاقة وروية . وفي بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم : الأشجار والشجيرات والمزاهر ، والمياه الجارية ، ردت كلها في شكل هندسي ، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير نافر تتدلى منه نتوءات في كل الأطراف ، وقد يعرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصيد .

ويأتي بعد ذلك الجهد المصنفي والصبر الطويل : مد الخيوط طولاً في اللحمة على النول ونسجها مع خيوط السداة المرضية ، وحيا كعقد صغيرة من

الصوف أو الحرير الملون في اللحمة ، لتلوين د الور ، والرسم ، وقد يكون في البوصة المربعة ١٢٠٠ عقدة ، أو ٩٠ مليوناً من العقد في مساحتها ٢٣ قدماً مربعاً (٥٦) . ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به ، ولكن العامل كان يتيه عجبا بدقة وجمال ما أخرجت يدها ، محو لاهذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء . وكان هذا السجاد يصنع في اثني عشر مركزاً في فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفي رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت ، أو ليقدم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء .

ومر السجاد الفارسي والتذهيب الفارسي بتطورات مشابهة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتأثرا د بأشرطة السحاب ، وغيرها من الرسوم من الصين . وكان لهما بدورهما أثر على الفنون في تركيا والهند . وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصقويين وما أن جاء عام ١٧٩٠ حتى أنتج السجاد الفارسي على أساس السكم ، فتمسروا في تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحا على البراعة والإتقان ، وبخاصة السوق الأوروبية . ومهما يكن من أمر ، فإنه حتى في هذه الحقبة ، كانت هناك قطع نادرة فريدة ، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم في أى مكان آخر في العالم .

وهكذا كانت فارس ، وهكذا كان الإسلام في آخر ازدهار لسلطانها وفنهما — حضارة تختلف اختلافا عميقا عن حضارتنا في الغرب ، وفي بعض الأحيان معادية عداا مقرونا بالازدراء ، تدمغنا بأننا مشركون ماديون ، وتسخر منا أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة ، وأحيانا اقتضت علينا تقنحم أبوابنا كالسيل الجارف ، وما كان ينتظر منا أن نتفهمها أو نعجب بفننا حين كان الجدل شديدا بين المسلم والمسيحي ، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح ، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد ، ولكنها في الكثير الغالب توقفت عن سفك الدماء ، ولكل منهما مطلق

الحرية في الامتزاج بالأخرى عن طريق التأثير المتبادل ، فالشرق يأخذ عنا
صناعاتنا وأسليحتنا ، ويصبح غريبا . ولقى الغرب نصبا من الثراء والحرب ،
وبات يلتمس شيئا من هدوء البال وطمأنينة النفس . وربما ساعدنا نحن
الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة ، وأعاننا الشرق على التواضع في
الفلسفة والتهديب في الفنون . فالشرق غرب ، والغرب شرق ، ولا بد عاجلا
أن يلتقي الإثنان .

الفصل الحادي عشر

« هرمدون »

أو

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

١٥٦٤ - ١٦٤٨

١ - الأباطرة

في عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة - برغم أنها ، كما قال فولتير ، لم تكن ، لا إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة - ، خليطاً رائعاً من دول نصف مستقلة : ألمانيا ، ولكسمبورج ، وفرانس - كوتنيه ، واللورين ، وسويسرا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وجزء من المجر . وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثاني سليل بيت هابسبرج العريق ، الذي حكم الإمبراطورية منذ ١٤٣٨ وواصل حكمها حتى ١٨٠٨ . وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (١٥٥٥ - ١٥٥٦) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها ، فحكم الهابسبرج النمسيون الإمبراطورية ، أما الهابسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها . وندر في التاريخ أن تسلطت أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم .

وكان حكم آل هابسبرج أكثر تحمراً في الإمبراطورية في أسبانيا ، لأن الدول التي تألفت منها الإمبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء في الحكومة ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الصفات العرقية ، بحيث عجزت حتى

سلطة آل هابسبرج وهيبتها عن منع هذه القوى المتدفعة بعيدا عن المركز من أن تحيل^١ الامبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها في عزه وكبرياء أما الديت الامبراطوري ، الذي لم يكن يلتئم شمله الا بين الحين والحين ، فقد وجد أن الحد من سلطان الامبراطور أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل دولة ، وأما الناخبون الامبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الامبراطور ، فقد سيطروا عليه باليهود والموائيق التي انتزعوها منه ثمنا لانتخابه . وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا ، وحكام سكسونيا ، وبراندنبورج ، والبالاينات ، و الناخبون الروحيون ، - أي رؤساء أساقفة كولونيا ، وترير ، وماينز . ولم يحكم الامبراطور حكما مباشرا سوى النمسا ، واستريا ، وكارثيا ، وكار بولا ، والتيرول ، وأحيانا بوهيميا ، ومورافيا ، وسيايزيا ، وغرب المجر . وكانت موارده المستقلة ثابتة من هذه الأقطار ، فاذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبعته في يده ، إلى الديت الامبراطوري الذي بيده مفاتيح المال .

حين مات فرديناند الأول (أخو شارل الخامس) في ١٥٦٤ ، نقل الناخبون التساج الامبراطوري لولده مكسمايان الثاني ، الذي ظفر من قبل بتاجي بوهيميا والمجر . وكان محبباً للناس إلى حد لا يناسب امبراطورا . فقط اصطفى الجميع في دفء طبعة الطيب وروحه المرححة ، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات ، وعقله وفؤاده المفتوحين ، فاذا أضفت إلى ذلك كله ذكاه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى ، والفن ، اجتمعت لك صورة سيد مذهب جنتلمان ، لم يصدق الناس أنه توج . وكان قد عرض تبوأه العرش للخطر حين آثر الوعظ اللوثريين على فطرأهم الكاثوليك ، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخمر وبالخبز ، ولم يمثل للطقس الكاثوليك ، أمثالاً ظاهرياً الا حين أكره على الخيار بين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانية أو اعتزال الحياة العامة على أنه حمى البروتستانت خلال ذلك من الاضطهاد . وقد ندد بمذبحة القديس برثلميو وقال انها قتل بالجملة^(١) ، وسمح لوليم أونج بتجنيد جيش في المانيا

لقتال دوق أنفا في الاراض المنخفضة . وفي هذا العصر الذي ساده التعصب والحرب ، ضرب لدول الامبراطورية وعقائدها مثالا رائعا في تسامح يرى من اللامبالاه ، وسلام لم يشبهه الجبن . وحين حضرته المنية (١٥٧٦) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة رومه ، ولكن الامبراطورية بأمرها اجتمعت على الترحم عليه .

وكان قد أقنع الناخبين بقبول ولده رودلف خلفا له ، برغم مارآه فيه - بلاريب - من طباع أو آثار تعليم خطيرة على الوفاق الديني . فلقد كان رودلف الثاني بطبعه شككا كما مكتنبا . وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثاني لذلك بعث به إلى أسبانيا ليتلقى جزءا من تعليمه المدرسي ، فقضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح . وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمه على حرية العبادة البروتستنتية وعمل على الحد من انقشارها زاعما - وله بعض الحق (٢) - أن عنف الجدل الديني ، وتعصب الشيع البروتستنتية فيما بينها ، يقوضان سلام الامبراطورية واستقرارها . على أنه لم يكن خلوا من الفضائل التي حبيبت الناس في أبيه فقد عاش في بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الامبراطورية . وحين انتقد أحد أخوته رفعه الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب : د ينبغي ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراقة محتدنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا (٢) .

والحق أنه آثر أن يكون عالما على أن يكون امبراطورا . تعلم ستة لغات ، ومارس كل علم وفن تقريبا ، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان . وأعان الشعراء والمؤرخين ، وأنشأ الكثير من المدارس . وحقق الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم ، وأمد بالمسال البحوث الفلكية التي اضطلع بها تيكوبراهي وكبلر اللذان أهدياه جداه ولهما الرودلفية للنجوم . وإذ استغرقه العلم وهو في قصره ببراغ - التي اختارها عاصمه له - فإنه لم يجد

وقتا للزواج ، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم . فلم يحضر أى اجتماع للمديت بعد ١٥٩٤ ، ورفض أن يوقع أوراقا رسمية بعد ١٥٩٨ وفوض بالسلطة نو ابا ذوى خطوة لدية ، ولكن تعوزهم الكفاية . ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون ، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازها خوف الاغتيال . فانه رأى فيما يرى النائم - أو لعل تيكوبراهى قد طالع فى النجوم^(٤) - أن قاتله سيكون راهبا فانتهى به الأمر إلى الارتياب فى رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين^(٥) ، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلي لأخيه الأصغر مانياس فى ١٦٠٨ عن حكم النمسا والمجر ومورافيا ، وفى ١٦١١ عن عرش بوهميا وكل مابقى له من سلطات . ومات فى ١٦١٢ .

أما مانياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين ، بعد أن أقدمته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشط . لذلك عهد بالحكم والسياسية جميعا إلى ملشيور كيزل أسقف فيينا القدير الحى الضمير . ولكن كيزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستانت من تنازلات ، وأغضب البروتستانت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون . وأعتقل فرديناند ، أرشيدوق استيريا ، وابن عم مانياس ، الأسقف كيزل (١٦١٨) ، وظفر بإنتخابه إمبراطورا عقب موت مانياس (١٦١٩) . وهنا كانت هر مجدون قد أندلع طيها .

٢ - الإمبراطورية

لم تكن سويسره جزءا من الإمبراطورية لإلاصوريا ، وتركت الاتتمارات المؤزرة التى أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأدواق ، الولايات السويسرية (الكاتونات) حرة فى التنافر فيما بينها . فانضمت سافوى وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليسكية التى تزعمتها لوسرن ، فى جهود دبلوماسية أو حرية لأرجاع الولايات البروتستنتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . وبدأ اليسوعيون

من كلياتهم يلوسرن في ١٥٧٧ حملة من التعليم والوعظ والدس . وأصلح مثلوا
البابا في سويسرة الفساد في رجال الدين الكاثوليك ، وقضوا على القسرى
بين الكهنة ، وصدوا التأثيرات البروتستنتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن .

وكانت جنيف تفيق ببطء من سلطان كلفن . فقد خلف تيودور دي بين
أستاذه (١٦٦٤) زعيما لجماعة « الرعاة » الموقرة والمجمع الكنسى « للرعاة
والعلمانيين » ، وعن طريقهم وأصل عمل الكنيسة المنصلحة في لباقة وكياسة
لميقو على إحباطهما سوى « الكراهية اللاهوتية » وسافر في أرجاء فرنسا ليحضر
المجامع الكلفنية ، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستنتية في مؤتمر بواسى .
وكافح في وطنه ، وإن لم يوفق كل التوفيق في كفاحه ، ليحافظ على الفضيلة
الصارمة التي فرضها كلفن على الناس . فلما انحرف كبار رجال الأعمال أكثر
فأكثر عن هذه الجادة ، قاد بيز رجال الدين في حملة للتنديد بالربا ، والاحتسار ،
والإستغلال ، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ في وعظهم
على مسائل الدين ، أجاب بيز بأنه يجب ألا يقضى أى شأن من شؤون
البشر عن دائرة الدين^(١) . وهو من بين كبار زعماء الإصلاح البروتستنتى
الوحيد الذى أدرك القرن السابع عشر ، وقدمات في ١٦٠٨ بالغا التاسعة
والثمانين .

أما دور النمسا في الإمبراطورية فكان مركزيا . ذلك أنها كانت عادة وطن
الآباطرة ، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين في وجه الأتراك الطامعين ،
للاصلاح الكاثوليكى . ومقر القوة الكاثوليكية في حرب الثلاثين .
ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تتذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستنتية
بل بين المسيحية والكفر . ففي عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ - ١٥٦٤)
قررت معظم الأبرشيات النمساوية كتاب التعليم المسيحى اللوثرى . وكانت
اللوثرية المذهب السائد في جامعة فيينا ، وأباح الديت النمساوى تناول القربان
بالخمر وبالخبز ، وزواج رجال الدين . وكان الناس يعدونها علامة من علامات

العقل المستنير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحي . وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس وبغير صليب . ، وفي تقدير أحد الوعاظ في ١٥٦٧ د أن الألوف وعشرات الألوف في المدن - أجل . بل في القرى - لم يهودوا يؤمنون بالله^(٧) . فلما خشى الإمبراطور فرديناند أنه يار الدعم الديني للحكومة النموية وسلطة آل هابسبرج . دعا بطرس كانيسوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا . وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانها بفضل زعامتهم ، لأن هؤلاء الرجال المتمرسين جمعوا بين العقل المرهف الصابر ، وبساطة العيش التي وقعت أفضل موقع في النفوس . فما وافى عام ١٥٩٨ حتى غدت كنيسة رومه سيدة الموقف .

ومثل هذا التغيير طرأ على المجر المسيحية . فقد دان ثلثا المجر للحكم التركي منذ ١٥٢٦ ، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل ، ولم يقو الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلطين حتى عام ١٦٠٦ وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقي من المجر التركية تؤدي مثل هذه الجزية ، ولكن حدث في عام ١٦٠٦ أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاى بالإقليم لآل هابسبرج قبيل موته دون عقب .

أما ديت المجر النموية فكان منذ ١٥٢٦ يؤيد حركة الإصلاح البروتستنتي ، فقد هيمن عليه النبلاء الطامعون في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية^(٨) . وفي ظل الحرية الدينية التي صانوها ظفرت البروتستنتية بمسكان السيادة بين الطبقات المتعلمة . ولكن سرعان ما انقسمت شيعا لثرية ، وكافنية ، وتوحيدية ، وتفرق التوحيديون مللا أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح . ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر في امتلاكاتهم مبررا بعد ذلك للبروتستنتية . لذلك رحبوا ببطرس بازواني وغيره من اليسوعيين ، وقبلوا التحول المثالي ، إلى الكاثوليكية ، وطردها البروتستنت^(٩) .

وأستبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك . وفي عام ١٦١٨ أصبح فرديناند أرشيدوق

استيريا ملكما على الحجر ، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكي تعزيراً نشيطاً .
وفي ديت ١٦٢٥ لاستعداد الكاثوليك أغلبيتهم . وأصبح بازمانى كرينالا وكتبا
من أبلغ مؤلفى العصر المجريين ، مع أنه ابن رجل كلفنى المذهب .

وأما بوهيميا والاقاليم التابعة لها - وهى مورافيا وسيليزيا ولوزانيا -
فكانت تغلب عليها البروتستنتية عام ١٥٦٠ . واعترفت الولايات الأربع
بملك بوهيميا سيدا عليها ، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومى وقوانينها
وعاصمتها - براغ ، وبرون (برنو) ، وبرسلاو ، وبوتزن ، وكانت براغ فى
ذلك الحين من أجمل مدن أوروبا وأكثرها أزد هارا . ولم يكن مسموحا
بالتصويت فى الديت البوهيمى الا لملك الأرض البالغ عددهم ألفا وأربعمائة
ولكن كان من بين أعضائه ، ثلثون لسكان المدن والفلاحين ، أتاح لهم سلطان
المال تفوذا جاوز مجرد الكلام . وكان معظم النبلاء لوثرين ، ومعظم مواطنى
المدن لوثرين أو كلفنين ، ومعظم الفلاحين كاثوليك . ولكن قلة منهم كانت
دأوتراكية ، تخلوا فى عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الدينى
البوهيمى ، والشهيد جون هس ١٣٦٩ - ١٤١٥) ، ولم يتمسكوا الا بتناول
القربان بالخبز وبالخمر ، وأخيراً تصالحوا مع كنيسة روما (١٥٩٣) . أما
أكثر الطوائف الدينية اخلاصا فكانوا الأنياس فراتروم ، - وهم الاخوان
البوهيميون أو المورافيون - الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ
الجد ، وعزفوا عن كل الحرف والمهن الا الزراعة ، وعاشوا فى بساطة
كبساطة تولستوى المسالمة .

وفى عام ١٥٥٥ جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا . فأنشأوا
كلية فى براغ وربوا دكادرا ، من الكاثوليك الغيورين ، واكتسبوا الكثيرين
من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات . ثم أصدر رودلف الثانى
مراسيم . نفى فيها الاخوان البوهيميين أولا ، ثم الكلفنيين ، غير أن الوسائل
أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم . وفى عام ١٦٠٩ أقنعة البروتستنت بأن يوقع

الميثاق الملكي الشهير ، الذي كفل حرية العبادة للبروتستنت في بوهيميا .
وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لما تياس ، ونقل هذا قضية الامبراطورية
إلى فيينا ، وترك براغ مغيظة نائرة . وفي عام ١٦١٧ اعترف الديق البوهيمي
بالارشيدوق فرديناند الاستيرى ملكا على بوهيميا ، وكان عدد الكاثوليك
يتسكاثر في هذا الديق برغم أن البلاد مازال أغلب أهلها من البروتستنت^(١١)
وكان فرديناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم ان يستأصل شأفة
البروتستنتية أن حكم . واتخذ بروتستنت بوهيميا أهبتهم للحرب .

أما المانيا فكانت أخلاطا من الأمم داخل كيان معقد ، كانت إسلاشعيا
ومزيجا من امارات تتفق في لغتها واقتصادها ، وتباين أشد التباين في عاداتها ،
وحكمها ، وعملاتها وعقائدها (*) . ولم تعترف أى من هذه الوحدات بسيد
عليها الا الامبراطور فقط ثم هي تتجاهله خمسين أسبوعا في السنة . وقد
وجد بعض الأجانب عزاء في انقسام المانيا على هذا النحو فكتب سير توماس
أوفريرى في ١٦٠٩ يقول لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

(*) كانت ألمانيا في القرن السادس عشر مقسمة إلى سبع دوائر إدارية :

- ١ — فرانكونيا : وتشمل ورزبرج ، بيمبرج ، بايريت .
- ٢ — يافاريا : وتشمل ميونخ ، ورخزبرج (راتسبون) وسالزبرج .
- ٣ — سوايبا : وتشمل بادن ، ستجارت أو جزبرج ودوقية رتمبرج .
- ٤ — الراين الأعلى : ويشمل فرانكفورت (آم مين) وكاسل ودرمستاد ويزيادن
ومقاطعة ناسو وافليم هس ودوقية اللورين وجزء من لاراس .
- ٥ — الراين الأدنى : ويشمل وستفاليا جوليش وكليف والبالاتينات وأسقميات كولون
وترير وماينز .
- ٦ — سكسونيا السفلى : ويشمل مكلنبرج وبريمن ومجدبرج ودوقيات برنزويك
ولونبرج وهولشتين .
- ٧ — سكسونيا العليا : وتشمل ليبزج وبرلين ودوقية بوميرانيا الغربية ومقاطعة
سكسونيا وبراندنبرج .

أمرار هيبا بالنسبة لباقي أوروبا (١٢) لا بل أن هذا الوضع ارتاحت اليه ألمانيا من وجوه كثيرة . صحيح أنه أضعفها في المذافسة السياسية والحربية مع الدول الموحدة ، ولسكنه أعطاهها حرية محلية ، وتنوعا دينيا وثقافيا قد يفضله الألمان بحق على أرسقراطيات متمركزة مضنية كارسقراطيات فيليب الثاني في أسبانيا ولويس الرابع عشر في فرنسا . فلم تسكن هنا باريس تطغى وتعج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأكملة بل كوكبة من مدن مشهورة لسكل منها طاجها وحيويتها .

على أن ألمانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الاقصادى الذى كان لها في شمال أوروبا قبل لوثر ، برغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة . ذلك أن كشف طريق بحرى خالص من غرب أوروبا إلى الهند ، وفتح الاطلنطى للتجارة ، أفادا البرتغال وأسبانيا أولا ، ثم إنجلترا والأراضى الوطية بعدعما ، وقد أضر بإيطاليا التى هيمنت من قبل على تجارة الشرق ، وشاركت في اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التى كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال . فأخذت ثغور الأراضى الوطية في بحر الشمال ، وثغور الدنمرك وبولندة في البلطيق ، معظم التجارة والمكوس . أما عصابة الهانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضى منذ زمن طويل ، ودمرت لوبك في حربها الطويلة مع السويد (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ولم تحتفظ بثرائها غير فرانكفورت على الراين ، وظلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوروبا بالقصاد ، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية .

أما إقبال الناس على المال فظل على حاله . وتهرب الناس في كل مكان من المراسيم التى حرمت تقاضى فائدة تربو على % . قال قسيس في ١٥٨٥ « إن رذيلة الربا الكفافة يمارسها الآن المسيحيون في حرص أشد من حرص اليهود في الماضى ، وشكنا واعظ في ١٥٨١ من أن « ولما غير مسيحي بالذهب

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات . فشكل من ملك شيئاً يغامر به ، يفكر في الإثراء . . . بشئ أساليب المضاربة ، والتعامل في النقود ، وعقود الربا ، بدلا من القيام بعمل أمين شاق ،^(١٣) . واستثمر المئات من العاملين مدخراتهم مع أحد بيوت فوجر ، أو فيلزر ، أو هوخشتينر المالية ، ثم خربت بيوتهم في افلاسات متكررة . وفي عام ١٥٧٢ أفلس بنك إخوان لوتيز بعد أن جمع أموالا طائلة من صغار المستثمرين ، فأفقدهم بذلك مدخراتهم بل بيوتهم^(١٤) . أما بيت فوجرز فقد جلب عليه الخراب افلاس فيليب الثاني ودوق ألبا اللذين شارك هذا البيت في تمويلهما^(١٥) . كذلك أفلس بيت فيلزر في ١٦١٤ وبلغت ديونته ٥٨٦,٠٠٠ جولدن . ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه الامتيازات ، لأن كل أمير ألماني تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة ، ولأن الذين زيفوا العملة أو اقتطعوا حوافها تكاثر عددهم . فما وفي عام ١٦٠٠ حتى كانت العملات الألمانية تتردى في فوضى شائنة .

وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج ، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة . وأكره الفلاحون في جميع الأقاليم — باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أبقانا . وفي بومرانيا وبراندنبورج وشلزويج وهولشتين وميكلنبورج شرعت القنبية (رق الأرض) في سنة ١٦١٦ أو بعدها^(١٦) ، وقد تساءل كاتب في سنة ١٩٥٨ ترى في أي أرض ألمانية ما زال الفلاح الألماني يتمتع بحقوقه القديمة ؟ وأين يتاح له أي انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعي أو الغابات المشاعة ؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية ؟ وأين يجد الفلاح محكمة الخاصة ؟ ألا فليسيخ الله عليه رحمته^(١٧) وذبح الكثير من الفلاحين للعمل في باطن الأرض ، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضاءلت حين دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بحق الأنفس من عروق معدنية مستهلكة . أما في المدن فإن زمالة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية . وكان يوم العمل في بعض الصناعات يبدأ في الرابعة صباحا وينتهي في السابعة مساء ، يتخلل ذلك

د فترات امتعاطى الجمعة ، ، وقد انتزعت نقابة النحاسين من العمال فى عام ١٥٧٣ أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتى عشرة وسبعين^(١٨) . ومنذ عام ١٥٧٩ نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات فى صناعة النسيج بألمانيا^(١٩) . وهكذا لم يبق إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها .

٣ - الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياما عن صورة الاقتصاد . فقد شكوا المدرسون من أن الصغار الذين يعهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج . وكتب ماتياس بريدينباخ عام ١٥٥٧ يقول : د أن الناس يربون أبناءهم تربية غاية السوء بحيث أصبح واضحا للعدلين المساكين . . . أن عليهم أن يتعاملوا . . . مع وحوش ضارية^(٢٠) وقال آخر عام ١٥٦١ د يبدو أن كل نظام أصبح فى خبر كان ، إن التلاميذ جاوزوا الحدود فى العصيان والوقاحة^(٢١) . وفى معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون فى الخروج ليلا خوفا من الطلاب الذين يهاجمونهم أحيانا بمداهم المفتوحة^(٢٢) . كتب ناتان كترانسين فى ١٥٧٨ يقول : د لاشك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذى عم الآن هو تدهور التربية المنزلية . فلا عجب ، بعد أن خلعتنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة . . . أن نشهد بين الشطر الأعظم من شبابنا مثل هذه الإباحية المطلقة ، والجهل المطلق ، والوقاحة المستعصية ، والإلحاد الرهيب^(٢٣) . ورأى غير هؤلاء د أن التمثيلات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التى ألفت بأشباب فى مهاوى الرذيلة والفجور^(٢٤) .

أما الكبار فقد قال الوعاظ فى وصفهم أنهم منافقون ، مشاكسون ، نهمون سكيرون ، زناة^(٢٥) . وشكنا الراعى يوهان كونو فى ١٥٧٩ من أن الرذيلة بأنواعها استشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء ، لا بل أنهم يفاخرون بها مفاخرة اللوطيين ، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل . . . فمن

الذى ما زال يرى، ارتسكاب الفجشاء خطيئة؟^(٢٦) كتب الراعى برتلمايو
ريخفالت في ١٥٨٥ يقول: « هذا الزمان آخر الأزمنة التى نكسب بها العالم،
وأشدّها فسادا^(٢٧) وأصبح التجديف وتدليس القديسات شائعا بين كل الرجال
تقريبا من جميع المذاهب^(٢٨) واستشرى الافتراء على الناس . وكتب كونت
أولدينورج في ١٥٩٤ يقول: شكالى ملاحظ أعمالى من الطريقة التى أساء
بها الدكتور بيزل فى برين إلى سمعته وفترى عليه فى أحد كتبه ، إذ زعم أنه
ينفق نهاره فى الشره والسكر والفجور ، وأنه . . . ذئب مفترس للحملان ،
وأفعى ، وتيس ، وسقط جهيض .. وأنه يجب التخلص منه أما بشنقه أو
لإغراقه أو سجنه ، ولما بدولاب التعذيب أو بحد السيف ، . ووجد واعظ
بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه « فى طول ألمانيا وعرضها تقريبا اشيع كذبها
« أنتى أ كسب أفداحا مذهبة كبيرة فى مباريات الشراب . . . وأنتى أفرط
فى شرب النبيذ . . . حتى ليضطر القوم إلى مساعدتى ودفعى على عربة جركانتى
عجل أو خنزيرة مخمورة^(٢٩) . »

وكان تناول الطعام والشراب شغلا شاغلا للناس ، فنصف نهار الألمان
الميسور ينفقونه فى دفع الطعام من لإحدى طرفى القناة الهضمية إلى طرفها الآخر
وكان أهل المدن يفخرون بشهيتهم الطيبة التى تفصح عن ثرائهم كما تفصح عنه
ثياب زوجاتهم . وقد ذاع صيته أحد لاعبي السيرك فى أرجاء ألمانيا كلها لأنه
أكل فى وجبة واحدة رطلا من الجبن ، وثلاثين بيضة ، ورغيفا كبيرا من
الخبز - وهى مهمة خر بعدها صريعا . ولم يكن من الأمور الشاذة
أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نخبا . أما
حفلات الزفاف فكمانت فى أكثر الأحيان قصفا صاخبا يحفل بالهمم والسكر
وقد ألف أمير موح أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر) . وقد
أسرف كرستيان الثانى أمير سكسونيا الناخب فى تعاطى الخمر حتى أودت
بجيانه ، ولما يجاوز السابعة والعشرين . وكألفت جمعية الامتناع عن السكرات
لمقاومة هذه الرذيلة ، ولكن أول رئيس لها مات من السكر^(٣٠) . وقد أكد

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس ، وكتب إرزمس فنتر في ١٥٩٩ يقول
« إن الإسراف في الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين ، وندر أن نرى رجلا
في الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضا ، سواء كان الحصى ، أو النقرس ،
أو السعال ، أو السل ، أو غيره ، (٢١) .

ولكن علينا ألا نأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجهد الشديد . فأغلب
الظن أن كثرة الشعب كانوا قوما مجدين ، صابرين ، يخفون الله بالمعنى الحرفي
للعبارة . إلا أن الفضيلة لا ينوه بها التاريخ كما لا تنوه بها الصحف - وهذا
دليل عن أنها أمر عادي مألوف . فقد كانت زوجات أهل المدن يلزم من بيوتهن
في عزلة متواضعة مستغرقات في عشرات الواجبات التي لا تترك لهن فراغا
لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات ، وكانت الكشيرات من نساء
الطبقة العليا - مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناجب -
مثلا يحتذى في الولاء الصادق للأسرة . ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من
الجوانب السارة . محبة الأطفال والبيت ، وكرم الضيافة ، والرقص الطروب
والموسيقى الجميلة ، والألعاب والمهرجانات المرحية ، وأول شجرة ميلاد في
التاريخ المدون كانت جزءا من احتفال أقيم بألمانيا في ١٦٠٥ ، والألمان هم الذين
أحاطوا بعيد ميلاد المسيح ، بالمظاهر الهيبة التي تخلفت من ماضيهم الوثني :
وكانت الرقصات والأغاني الشعبية تلد أشكالاً من الموسيقى المعزوفة ؛
وكانت الترانيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة . وغدا الأرعن أثرا
فنيا يدخل في فن المعيار ، أما البيان القيثاري ، والعود وغيرهما من الآلات
الموسيقية ، فكانت وليدة في التغنى بالحب . وحملت كتب الترانيم أحيانا ،
لا سيما في بوهيميا ، بزخارف رائعة . أما الترانيم البروتستنتية فكثيرا
ما كانت تعليمية أو جدلية ، وضحمت في هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط
المقدسة ، ولكن الكورالات البروتستنتية كانت بشيرا بمقدم يوهان
سبستيان باخ . وفرض التعليم الموسيقي على المدارس من جميع المذاهب ،
وكان مقام الكانتور ، - أي معلم الموسيقى - لا يعلو عليه إلا مقام المدير

أو الناظر في سلم المراتب المدرسية واشتهر عازفو الأرغن يومئذ شهرة عازفي البيان الآن ، وذاع صيت يعقوب هاندل في براغ . أما الأخوة هامسler — وهم هانز ، وكاسبار ، ويعقوب — فقد انتشت جماهير المصلين بموسيقاهم التي كانت من وضعهم في كثير من الأحيان ، في درسدن ، ونورمبرج ، وبراغ وقد نحا التنوع الموسيقي إلى الظهور مرارا وتكرارا في الأسرة الواحدة ، لا بفضل أية وراثة خفية ، بل نتيجة لعدوى البيت ، وهكذا اتخذ حشد حقيقي من آل شولتز اسم « بريتوريوس » ، ولم يكتبف ميخائيل بريتوريوس بوضوح مجلدات في الموسيقى ، بل وضع في كتابه « أصول الموسيقى ، (١٦١٥ — ١٦٢٠) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى وآلاتها وأشكالها .

أما أعظم الأسماء في هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز ، الذي أجمع السكل على الإشادة به « أبا للموسيقى الألمانية الحديثة . وقد ولد لأسرة مسكسونية في ١٥٧٥ ، قبل قرن تماما من مولد باخ وهانندو ، وأرسمى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التي أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة السكل . وحين بلغ الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية ، حيث درس على جوفاني جابرييلي . فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون ، ولكنه استقر آحر الأمر على العمل مديرا للموسيقى في بلاط يوحنا جورج ، أمير مسكونيا الناخب ، بمدينة درسدن . وراح منذ ١٦١٨ يتدقق ألحانا كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد الكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للسكوارس (بمجموعات المشدين) وللأصوات المنفردة والآلات الموسيقية ، ومن مقابلة بين هذه كلها ، ولأول مرة أذيب وخصف مزج الألحان السكورالي الألماني الثقيل بأسلوب « التوزيع ، الأكثر اتساقا ، والذي جمع بين الأصوات والآلات . واحتفالا بزفاف ابنة الأمير الناخب (١٦٢٧) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية ، واسمها دانفي على أساس أوبرا بيرى التي تحمل هذا الاسم ، والتي أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاما . وتأثر شوتز

برحلة ثانية إلى إيطاليا ، فأعطى مزيدا من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية في «سيمفونية المقدسة» (١٦٢٩) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من المزامير ونشيد الانشاد . وفي ١٦٣١ غلت «سكسونيا» مسرحا نشيطا للحرب . فضرب شوتز في الأرض متنقلا من بلاط إلى بلاط ؛ حتى أنه رحل إلى الدنمرك ، بحثا عن فرق المرتلين والنمسا للرزق ، ولم يرد إلى وظيفته في درسدن إلا في ١٦٤٥ ، وفي ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقى «آلام المسيح» الألمانية بوضعه «وشحة دينية» «أوراتوريو» سماها «كلمات المسيح السبع على الصليب» ، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد ثم يسبق الصوت أو يقفوه بنفس الأنغام في الآلات ، وقد اقتبس باح من بعده هذه الطريقة في موسيقى «آلام القديس متى» . ثم شق شوتز طرقا جديدة مرة أخرى ، إذ نشر في ١٦٥٧ «الأنغام الألمانية» وهي «كائنات» (قصص موسيقية تشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس في مقام المنشىء المشارك للأناشيد الدينية الدرامية وقد هيا «لحنه» نشيد عيد الميلاد ، (١٦٦٤) لبأخ هدفا آخر يستهدف فيما بعد . ثم بلغ قصاره بعد عام في «آلام ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وموته» . وهو نشيد وضعه بصرامة الأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان . وما لبث عقب هذا أن فقد سمعه ، فاعتكف في بيته ، ومات في السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور ١١٩ تقول : «ترنيمات صارت لي فرائضك في بيت غربتي» .

٤ - الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبي للامبراطورية في هذا العهد ترجمة للكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (١٥٨٨) ، وملحمة Zrinyász (١٦٤٤) التي نظمها ميكالوس زرينيبي . وخلفت ألمانيا الآن (حوالي ١٦٠٠) إيطاليا بوصفها أروع سوق لمشر الكتب ، لاسيما فرانكفورت وماين . . ففي ١٥٩٨

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عام قائمة بالمطبوعات .
« وشجعت الجماعات الأدبية الشعر والدراما . ولكن الأدب كانت تختف
الرقابة المدنية والكنيسة . فقد أجمع القادة اللوثرين والكافينيون والكاثوليك
على أن المؤلفات التي تعبد ضارة بالحكومة . أو المذهب الرسمي ، أو الآداب
العامة . يجب حظرها . ومن عجب أن مجموع الكتب التي حرمتها السلطات
البروتستنتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة رومه (٢٢) . واضمحل العلم لأن
الحقيقة شوهرتها حدة الجدل . وآية ذلك أن ماتياس فلاكيوس الليريكوس
ومساعديه صنفوا تاريخا للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلدا من القطع
الكبير . ولكن « قرون مجد بورخ » ، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى
إطلاقه على كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » (١٥٥٩ - ١٥٧٤) نسبة
إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون - هذا الكتاب كان متحيزا
للكتاب التاريخ الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهد ، يوم كان كل كتاب
سلاحا في القتال . مثال ذلك أن البابا جريجورى السابع صورته هؤلاء المقاتلون
أشد وحشية من كل ما ولد من وحوش . وزعموا أنه قتل عدة بابوات قبل
أن يرتقى كرسي الوباء ، (٢٣) . أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية - في
جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح الديني :
« الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس » (٥٥٥) ،
وقد بلغ من الإنصاف مبلغا لم يترك مجالاً - حتى لملانكوف - أن يغتفر
له أى تحامل فيه .

وبعد الكتب المحشوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال للأدب شعبية
وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبث الدعوة ؛ فسخرت
التمثيلات البروتستنتية بالبابا سخرية مريرة ، واختتمت عادة بزجه في الحجيم
وأخرج مصلو الموسيقى بسويسرة تمثيلات عن آلام المسيح والقيامة .
والدينونة الأخيرة ابتداء من ١٥٤٩ « وشارك في التمثيل أحيانا ٢٩٠ مجلا .

ومثلت مسرحية آلام داوبرامير جاو، أول مرة في ١٦٣٤ وفاء بنذر نذر خلال طاعون ١٦٣٣. وكانت تعاد كل عشر سنوات، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى السادسة مساء، يتخلل ذلك إستراحة ساعتين في الظهيرة. وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام ١٥٦٨، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز. وسرعان ما أحلت هذه الفرق المثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة، وقد أثار الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذي در عليها الربح الوفير.

وحظى بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين ناقد الزامى هجاء، فيه فحولة وله كفايات متعددة، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص في مرح روح عصره، أصدر سلسلة من التقليدات الساخرة ضد الكاثوليكية، بلغت في تدميرها الذكي مبلغا جعله بهد قايل أروج كاتب في ألمانيا، ففي كتابه «خليفة النحل الرومانية المقدسة المائلة»، هاجم (١٥٧٩) تاريخ الكنيسة، وعقيدتها، واحتفالاتها، وكهنتها، في كاريكاتور عنيف، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والاجهاض، والكنيسة في زعمه قضت بأن «للكهنة، أن يستعملوا زوجات غيرهم في غير حرج، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال في بركة قرب دير الراهبات، وهكذا دواليك»^(٣٤). وفي هجاء آخر سماه «القبعة اليسوعية الصغيرة»، سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أساليبهم وأفكارهم. وفي عام ١٥٧٥، نشر فيشارت، بعنوان مرح في ثمانية سطور، ترجمة مزعومة، هي في حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه «جارجانتوا»، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحي الحياة الألمانية - كظلم الفقراء، وسوء معاملة التلاميذ، ونهم الألمان وسكرهم، وزناهم وفسقهم، كل ذلك في خليط من الأساليب ومن اللهجة الالزاسية، متبل بالبذاءة والظرف. ومات فيشارت في الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما في جعبته من أفاظ.

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات في نفس السنة ، ١٥٩٠ ،
بالغا نفس العمر ، هو نيقوديموس فريشلمين ، الذي عاش أكثر من عشرة
أعمار في عمر واحد . ففي العشرين كان أستاذا للتاريخ والشعر في توينجن ،
ونظم الشعر اللاتيني في رفة تذكر بركة هوراس ، وكتب شروحا علمية
لفرجيل . وفي الخامسة والثلاثين طرد لهجانه النبلاء . وبعدها عاش عيشة
الاستهتار والمرح ، فأسرف في الشراب ، زاعما أن الخمر لا غنى عنها للعبقرية ،
وأن أشعار الزاهدين في الخمر هزيلة هزالا حقيرا ، وقد اتهم بإفساد فتاة
وتسميم أخرى ، وإد كان مهددا بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة ، فقد
ظل يفر من بلد إلى بلد ، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلا من
الأعيان المختلفين ، الذين وزعهم توزيعا جغرافيا ، ليوفروا له ملجأ يلوذ به
في أى مكان ، ولكنه مات أثر كيوه قتل أن ينتهى من إبداء رأيه في أعدائه .
وجريا على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه : « شاعر قدر حقير ، وسقط للشيطان
كذاب لثيم (٣٥) » . ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تنجبه في
ذلك الجيل الشقي .

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستانت عن الصور والنمايل ،
واضمحلال الكنيسة بوصفها راعية للفن ، وإفساد التأثير الإيطالي الغريب
على ألمانيا للطرز الوطنية ، وتدهور الذوق نتيجة الخشونة الأخلاق وعنف
الجدل ، ثم نار الحرب الآكلة بعد ذلك . وأعجب العجب أن تنتج الحرفية
الألمانية ، برغم هذه المشبطات ، في العقود الستة السابقة للحرب ، عدة قصور
نخمة ، ودور للبلدية بهية ، وتنجب مصورا قديرا ، وتبدع بعض المتحف الثمينة
في الفنون الصغيرة . وكانت مجموعات الامبراطور رودلف الثاني والدوق
ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير « قاعة الفن القديمة » ،
وكان ألبرت نفسه « مديتسيا ألمانيا » ، فأحال بلاطه جنة للفنانين ، وجمّل

عاصمته بالعارة ، وجمع التماثيل في دالاتسكوار يوم ، ، - وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الألب .

وفي ١٦١١ - ١٦١٩ بنى معمارى دولندى للدوق مكسميليان الأول فى ميونيخ د المقر ، الذى ظل قرونا بيتا لأدواق بافاريا وناخبيا وملوكها . وقد أسف جومستاف أدوانف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استسكهمول ذلك المشال المحبب من عمائر فترة الاصلاح البروتستنتى المتأخرة فى ألمانيا . أما اليسوعيون فقد شيدوا بطران الباروك ، على طريقتهم التى تعنى بالزخرفة والتعويق ، كنائس بديدة فى كوبلنز . وديلنجن ، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بميونيخ وصمم مسانتينو سولارى كاتدرائية سانزبورج ، على طراز أكثر بساطة ونظاما ، قبل اندلاع حرب الثلاثين بيضع سنين .

وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية فى ألمانيا البروتستنتية ، فإن العارة فيها لم تعد كنيسة بل مدينة ، وأحيانا عمارة قصور . وبذيت القلاع الضخمة ، كقلعة هايلينجبرج فى بادن ، المشهورة بسقفها المصنوع من خشب اليزفون المنقوش ، فى قاعتها المعروفة بالريتزال (أى صالة الفرسان) ، وقلعة أشافنبورج على الماين ، وقلعة هايد لبيرج ، التى ما زالت مشهدا من مشاهد ألمانيا الكبرى . وأقيمت دار بلدية « راتهاوس » الفاخرة لتضم إداره البلدية فى لوبك وقلع بادريون ، وبريمن ، وروتنبورج واجزبورج ونورمبرج وجراتز . وعهد تجار المنسوجات فى أجزبورج إلى الياس هول ، كبير معماري المدينة ، ببناء قاعتهم « تزويج هاوس » ، أى قاعة الأقمشة . كذلك بنت بريمن قاعة للجلال « كورنهاوس » ، وفرانكفورت قاعة للملاح « زالتسهاوس » لتجار الغلال والملح على التوالي ، ولكن من كان يتوقع أن يبنتى الخلل لنفسه بيتا رفيع الذوق يظله كبقاعة الخلل « ايسيجهاوس » ؟

* هذا المتحف وغيره من المنشآت الموسومة بعلامة نجمية فى هذا القسم دمرت أو لحق بها ضرر بليغ فى الحرب العالمية الثانية .

وانتفعت الآن ، وفي الأعوام المائة والخمسين التالية ، القصور في كل مكان بألمانيا لتأوى الأمراء الظافرين ، وقد بنيت بطراز الباروك اللوڤي البهيج . من ذلك أن حاكم أنسباخ بايروت ، أنفق ٢٣٧٠٠٠ فلورين (٠ . ٠٠٠,٣٠٠ دولار) على قصر بلاسنبورج الذي يملكه ، في إمارة من أفقر إمارات الامبراطورية . وأرفع من هذا القصر ذوقا ، القصر الأميرى الذى أعد لرؤساء أساقفة ماينز . وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة هبة إلى حد خلاب سواء فى تقاليدها أورشومها ، غير أن طيبا ساخطا وصف البيوت الألمانية فى ١٦١٠ بأنها تتألف من حجرات فذرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواة النقى^(٣٦) ، ومع ذلك فإن داخل البيت فى المدينة كان المواطن الحقيقى لفنون ألمانيا الصغيرة ، فقد حفل بالزخارف التى أبدعتها أيد ماهرة كالخشرات الخشبية والسقوف المنقوشة ، والأثاث المتين المنقوش والمطعم ، والدرابزينات الحديدية المشغولة ، والأقفال والقضبان المنصوبة فى أشكال غفمة ، وتماثيل العاج الصغيرة ، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية . لقد كان ساكن المدينة الألمانى لا يشبع من الزخارف فى بيته .

وازدهر الحفر ، لا سيما على النحاس ، فى ألمانيا حتى خلال الحروب . واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج ، حوالى ١٦٠٠ ، عهد أسرة موهومة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدى فولفجانج ، وهما فيليب وبرتلماوس ، وامتد حتى ١٧٨١ بفضل أبناء حفدة فيليب . على أن النحت الألمانى أضرت به المحاولات التى بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانين . وكان الحفارون الوطنيون ، إذا أرموا أنفسهم على سجيته ، يبدعون تحفا من أرفع طراز ، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط ، والمذبحان الجانبيان ، التى حفرها فى الخشب هانزديجلر لكنيسة أولتريش فى أوجزبورج ، أو التماثيل السبعون التى نقشها ميخائيل هونيل لكتاتدرائية جورك بالنمسا . ومن المعالم البارزة فى هذا العصر

نافورات الماء العجيبة التي استلهمت المثل الإيطالية . كنافورة «فيتلسباخر» ،
المقامة أهام الرزيدنمز «ميونخ» و «نافورة الفضيلة» (توجندبرونن) ، أهام
كنيسة لورنز في نورمبرج .

حين نمتى إلى روبنز أن آدم الزهايمر قد مات لتوه (١٦١٠) وهو بعد في
الثانية والثلاثين قال «خليق بهذا الخطب أن يغرق مهنتنا في حزن عميق . فلن
يكون من السهل تعويضه ، إذ محال في رأي أن يكون له نظير في (رسم) الصور الصغيرة
والمناظر الطبيعية ، وأشياء أخرى كثيرة» (٢٧) . وقد ولد آدم هذا في فرانكفورت
ثم قصد إيطاليا وهو في العشرين ، وبعد أن أقام في البندقية ردها من الزمن انفق ما بقي
من عمره في روما . وقد تضرع روبنز إلى الله «أن يغفر لآدم خطيئة الكسل» ،
ولكننا لا ندرى أهو الكسل الذي جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم
الصغيرة على الأطباق النحاسية ؛ إذ لا يمكن أن يكون الكسل هو الذي جعله
يضفى على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذي نراه في «الهروب إلى
مصر» (٢٨) ، أو ذلك التجسيد للضوء والهوام الذي جعل منه على حدوده المتواضعة ،
«دميراتتا» قبل رميرات . ويلوح أنه كان يجزى جزءاً طيباً عل فنه ، ولكنه
جزء لا يكفى لإشباع حاجاته وميوله . وقد أفلس ، وسجن بسبب دينه ،
ثم مات عقب الإفراج عنه .

كان الرسم على الزجاج فناً أثيراً في هذا العصر . في زيوريخ ومازال أولاً ،
ثم في ميونيخ ، وأوجزبورج ، ونورمبرج ، وأصبحت النوافذ في الأدبار
والمنازل غنية بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش
الزجاج في بواكير القرن السابع عشر في نورمبرج وبراخ . واشتهرت أسرة
هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفنيين ، وأدفاً كولونيا
وزيجبورج قلوب الألمان بالأباريق والكيزان الأنيقة النقوش ، وكثيراً
ما كانت الموافد تحاط بفخار مزجج بالألوان . ولم يكن للألمان قريع في
أشغال الخشب والتاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة . وكان

لنجارى الأثاث مكان سرموق ، حتى أن واحدا منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان نجاراً فنياً ، ما عراً جداً . والدرازين الحديدى المحيط بمقبرة الأمبراطور مكسمليان الأول فى انزبروك رائع جداً . وقد صنع أنطون آيزهوت فى ١٥٨٧ آنية للطقوس الكهنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم فى قبة الآنية التى من نوعها . وكان الصاغة الألمان مطلوبين فى كل مكان ، ووجدت أشغالهم سوقاً أوروبية لها فى غير عناء . وصنعت كشموس الشراب ، والأقداح ، والأباريق الفضية فى عشرات الأشكال المضحكة ، وكان فى وسع الألمان أن يترنحوا بالخمر يشربونه من طواحين الهواء ، والفوانيس ، والتفاح ، والقردة ، والخيل ، والخنازير ، والرهبان ، والراهبات . لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى فى كشموسهم المتصارعة .

٥ — المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (١٥٥٥) قد وصل بالصراع الدينى إلى هدنة جغرافية: حول مبدأ الناس على دين ملوكهم ، وإقليمه دينه ، — أعنى أن دين الحاكم فى كل دور يفرض ديناً على رعاياه ، وعلى المخالفين أن يرحلوا . وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلاً من التقدم ، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام ؛ ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية ، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلعا ألبما زادت الفوضى والمرارة فى ألمانيا . وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذهبين حاكماً يدين بالمذهب الآخر . وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب

أما وقد انقسمت ألمانيا فى اللاهوتية على هذا النحو ، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين حرباً دينية بسيطة : ويمكن القول عموماً بأن الشمال كان روتستنتياً ، والجنوب وأرنس الراين كاثوليكين ، ولكن بما أن مبدأ

أوجز بورج لم يمكن فرضه فرضاً دقيقاً ولا سريعاً ، فقد بقي الكثير من البروتستانت في مناطق كاثوليكية ، والكثير من الكاثوليك في بلاد بروتستنتية . وقد أتيج للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة ، أما البروتستانت فقد تمتوا بقسط أوفر من حرية العقيدة ، وأنقسموا إلى لوثرين وكالفينيين وقائلين بتجديد العهد وموحدين ، وحتى في صفوف اللوثرين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملائكتون المتحرر وخصومه . وفي ١٥٧٧ صاغ اللوثرين عقيدتهم في كتاب الوفاق ، وبعد هذا التاريخ طرد الكالفينيون من الدويلات الألمانية اللوثرية . ولكن أمير البالاتينات الناخب ، فردريك الثالث ، رعى الكالفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهداً لاهوتياً للشباب الكالفينيين . وهناك ، في ١٥٦٣ وضع اللاهوتيون الكالفينيون كتاب « التعليم المسيحي » ، في مفهوم هايدلبرج ، وقد صدم الكاثوليك واللوثرين جميعاً برفضه عقيدة الحلول الحقيقية للمسيح في خمر العشاء الرباني وخبزه . وسمح للكاثوليك بالعيش في البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم ، أما الموحدون فقد قمعوا بشدة . وفي ١٥٧٠ نازع رجلان في ربوبية المسيح ، أو ضيقاً حدودها ، فأعدما أثر أصرار الاساتذة الكالفينيين في جامعة هايدلبرج على أعدامهما . على أن الأمير الناخب لويس ابن فردريك ، آثر المذهب اللوثرى ورفضه ، ولكن أخاه يوحنا كازيمير ، أثناء وصايته (١٥٨٣ - ١٥٩٢) ، فضل الكالفنية وفرضها ، ثم وطد الأمير الناخب فردريك الرابع (١٥٩٢ - ١٦١٠) تلك السياسة . وتزوج ابنة فردريك الخامس (١٦١٠ - ١٦٢٣) اليزابيث ستيوارت (ابنة جيمس الاول ملك إنجلترا) . وطالب بعرش بوهيميا ، وعجل بنشوب حرب الثلاثين .

وكان الصراع بين اللوثرين والكالفينيين لا يقل مرارة عنه بين البروتستانت والكاثوليك ، وقد أضر بتعاون البروتستانت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الفريقين كليهما ، تارة هذا وتارة ذلك ، ومن ثم اضطهاد المنتصر

للمنهم كان يخلف ميراثا من الكراهية ، مثال ذلك أنه في ١٥٨٥ طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيبورج جميع الموظفين اللوثرين في إقليمه وأحل الكلفنيين محلهم ، ولكن أخاه وخطيبته الكونت هنري أنذر الوعاظ الكلفنيين في ١٥٩٨ بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس ، وفي ١٦٠١ ولى الحكم الكونت فولفجانج ارست ، فطرد الوعاظ اللوثرين وأعاد المذهب الكلفني . وحدث مثل هذا الاحلال للكلفنيين محل اللوثرين في أنهالت (١٥٩٥) ، وهاناو (١٩٥٦) ، وليبي (١٦٠٠) . وفي بزوسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية في سوق كونيجزبرج وسط تمليل الجاهير (١٥٦٦) (٣٩) . كذلك أعدم المستشار نيغولا كرل في درسدن (١٦٠١) لتوجهه الطقوس اللوثرية وجهة كلفنية ، ولتأييده لليهوونوت للفرنسيين (٤٠) .

وفي ٦٠٤ أعنتق الشريف موريس حاكم هيس - كاسل المذهب الكلفيني ، ثم فرضه في ١٦٠٥ في هذا الاقليم وفي هيس العليا ، وهزم جنوده حشدا من اللوثرين المقاومين وحطموا الصور الدينية في الكنائس ، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفنى فقد نفوا (٤١) . وفي أمارة براندنبورج الناخبة قام نزاع عنيف بين اللوثرين والكلفنيين حول خبز القربان المقدس ، وهل يتحول حقيقة بعسد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيرا قضت الحكومة بأن الكلفنية هي المذهب الحق (١٦١٣ وما بعدها) (٤٢) .

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك السعار اللاهوتى ، كما سبق أن سماه ملانكستون - احتداما لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، ألا فيما ندر . من ذلك أن راعيا لوثريا يدعى نيفاندر (١٥٨٢) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذئاب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفنيين ثم بوصف الميتات الرهيبة التى لقيها أعداء اللوثرين ، وقال بأن

زونجلى حين خر صريعا فى المعركة ، د قطع جسده صبورا ، واستعمل الجنود شحمه ليشحموا به أحتيتهم ، لأنه كان رجلا بدينا^(٤٣) . وجاء فى نشرة لوثرية فى ١٥٩٠ د إن أراد أحد أن يقال له فى بضع كلمات أية مادة من مواد الايمان تقا تل عليها جنس الأفاعى الكلمنية الشيطانى ، كان الجواب ، كلها بلا استثناء... ذلك لأهم ليسوا مسيحيين ، بل يهود ومسلمون معمدون^(٤٤) . وفى سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس (١٥٩٢) د لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التى يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التى يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك^(٤٥) . وقال كاتب بروتستنتى فى ١٦١٠ فى معرض الرئاء لهذه الحال ، أن هؤلاء اللاهوتيين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشبة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والانساع بحيث لا تبدو بارقة أمل فى أن يكف كل هذا الصراح والقذف والنشتم واللعن والمحرم قبل مجئ اليوم الآخر^(٤٦) .

ولكى نفهم هذا السعار اللاهوتى ، علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة ، وإن الحياة بعد الموت ينبغى أن تكون أهم شغل للناس فى هذه الدنيا . كذلك لا بد أن تفسح الصورة مكانا للتقوى الصادقة التى أورثت الكثيرين من اللوثويين والكلمنيين والكاثوليك الاتضاع والتسامى فوق حمى المذاهب وهذيانها . فقد هرب د أهل التقوى ، هؤلاء من المنابر اللاهوتية والمسوا فى خلوتهم شيئا من الحصرة الإلهية المطمئنة . وما زال مؤلف يوهان آرنت د حديقة الفردوس الصغيرة ، يقرأ فى ألمانيا البرونستنتية باعتباره كتيبا للتأمل الودع . وانتهى يعقوب بومى بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح المرء مع إله تصور يذبوعا كونيا ، وأساسا لكل الأشياء ، ينتظم كل دشر ، وكل دخير ، وزعم بومى أنه رأى د كائن الكائنات كلها ، ورأى جهنم ، كما رأى مولد الثالوث الأقدس^(٤٧) د ولا يجد العقل غير المتعاطف مع الصوفية فى كساب بومى ، فى شارة كل الأشياء ، ١٦٢١ د لإلدوامة من السحافات ، ومن بواعث

العزاء أن نعرف أن صوفيا آخر ، هو يوحنا وميسلي ، وصفه بأنه دهرام رفيع^(٤٨) ، وأفضل من التراثيل البسيطة الحسية التي ألقها التقى اليسوعي فردريك فون سبي .

واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكية لإمترداد الأرض المعقودة في ألمانيا كما فعلوا في كل مكان في أوروبا ، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الاكثيوس الكاثوليكي . كتب اليسوعي بطرس فابر من فورمز في ١٥٤٠ يقول : «سمح اللهم بأن يكون في هذه المدينة ولو كاهن أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام ، أولا يعيشون في خطايا معروفة أخرى^(٤٩) . على أن أهم خطيئهم كانت اصطيداد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون الكليات في كولونيا ، وترير ، وكولنز ، وماينز ، وشبير ، وديلجن ، ومونستر ، وفورتسبورج ، واينجولستات ، وبادر بورن ، وفرايبورج ، وقد طاف بطرس كانيسوس ، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية ، بكل أرجاء ألمانيا تقريبا على قدميه ، منشئا الكليات ، موجها المجادلات اليسوعية العنيفة ، شارحا للحكام الألمان مزايا المذهب القديم . وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يسأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا^(٥٠) . ويفضل اليسوعيين ، والكبوشيين ، وإصلاح الاكثيوس ، وغيره الأساقفة ، ودبلوماسية البابوات وسفرائهم ، استعيد إلى حظيرة الكنيسة في النصف الثاني من القرن السادس عشر نصف الأرض التي كسبتها البروتستنتية الألمانية في النصف الأول منه . وقد استعملت بعض ألوان الاكراه هنا وهناك ، غير أن الحركة كانت في جملتها سيكولوجية سيامية ، ذلك أن جماهير الشعب ملت طول الشك والجدل والجبرية ، ورأى حكمهم في الكاثوليكية التقليدية سندا للحكومة والنظام الاجتماعي أقوى من سند بروتستنتية غارقة في فوضى الانقسام ، عفوفا بالخطر التي تسكتنف كل مذهب جديد .

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية . وجهوا منابهم وأقلامهم ضد عدوهم الروماني . ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدم ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل . ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث ، والنفاية ، والخمار ، والخنزير ، والبغى ، والقائل . ففي عام ١٥٦٥ اتهم الكتاب الكاثوليك يوهان ناس اللوثريين بممارسة القتل ، والسرقه ، والكذب ، والغش ، والشره ، والسكر ، ومضاجعة المحارم ، والجريمة ، دون ما خشية ، لأن الايمان في زعمهم يبرر كل الأشياء ، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء (٥١) . وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستنت الأبدى إحدى بدييات اللاهوت ، ولكن الواعظ اللوثري أندرياس لانج كتب (١٥٧٦) بثقة بمائلة د أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطق العمة الالهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص . فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد في نار الجحيم المشتعلة وكبريتها (٥٢) . وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون تلافيرات على نحو ما يفعل الآن في حرب العقائد السياسية . وراجت أسطورة البابية ، (امرأة) يوانا في الأدب البروتستنتي ، وكتب أحد رجال الدين البروتستنت في ١٥٨٩ يقول : «دما أشد نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون في إنكار هذه الحقيقة ، وهي أن البغى الانجليزية آجينس كانت د بابة ، في روما وأنها ولدت غلاما خلال أحد المواكب العامة (٥٣) ، . وجاء في إحدى المواعظ أن البابوات كانوا وما زالوا بلا استثناء واحد ، لوطيين ومستحضرى أرواح ومسحرة ، وأن الكثيرين منهم يستطيعون أن يبصقوا النار من أفواههم . . . كثيرا ما ظهر الشيطان بصورته المرئية للبابوات . . . واشترك معهم في لعن صليب المسيح ورطشه بالأقدام ، ثم الرقص رقصات عارية فوقه ، وهي التي سموها خدمة مقدسة (٥٤) ، . وكانت جماهير العابدين ترثف هذه المسكرات بشغف . قال تقيس بروتستنتي في ١٥٨٤ ، «لقد تعلم الأطفال في الشوارع أن يلعنوا عدو المسيح الروماني وأتباعه الملاعين (٥٥) ، .

وكان اليسوعيون أهدافا محببة. فرموا في مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والكتب، والقصائد، باللواط، والزنى، والهيمية وفي أحد الكشيميات الخشبية الألمانية، وتاريخه ١٥٦٩ (ومازل محفوظا في مجموعة جوته بغيامار) صور البابا على شكل خنزيرة تله رهبانا يسوعيين في هيئة خنازير صغار. وفي ١٥٩٣ نشر اللاهوتي اللوثري بوليكارب الايزر تاريخا للرهبنة اليسوعية باللاتينية. وصف اليسوعيين بأنهم يقارفون أقيح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وحقوه الكاملين^(٥٦). وأخبرت صحيفة جديدة صادقة، ١٦١٤ وقراءها بأن الكردينال اليسوعى باللازمين أرتكب الفاحشة ٢٣٣٦ مرة مع ١٦٤٢ امرأة، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته، مع أنه لم يمض إلا بعد سبع سنوات^(٥٧).

وقد رد اليسوعيون أول الأمر في ضبط للأعصاب. ونضح كانيسيوس باستعمال لغة برئية من العنف، وكذلك فعل الراعى البروتستنتى يوهان ماتيسوس، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال. واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعى ماريانا التى تدافع عن قتل الطغاة من الحكام، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هى بالضبط العقيدة التى يجب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعياهم. ولكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين، وأن شعرة واحدة من رءوسهم لن تمس. ونشر اليسوعى كونراد فيتر (١٥٩٤ - ٩٩) عشر كتيبات استعمل فيها أقيح ألفاظ الشتم، معتذرا بأنه إنما يحدو فى ذلك حذو اللاهوتيين اللوثريين، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتيبات بمجرد طبعها. وأعلن يسوعيو كولونيا أن المراهقة العنيديين الذين يبدون الانشقاق فى كل مكان فى الأقاليم الكاثوليكية،

د يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والقاتلة،

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، فهؤلاء لا يؤذون سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدى.. ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاما ، أو لو أن نفرا من الناس نخفف العالم من وجودهم ، لما فكبنا بمثل هذه الانشقاقات اللعينة ، ولا بمثل هذه الملل والنحل التي تسكد صفاء العالم كله (٥٩).

وبمثل هذه الروح ناشد الكلفن داود بارينز، استاذ اللاهوت بهيد لبرج (١٦١٨) ، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حربا صليبية على البابوية ، وفي حملة كهذه يجب ألا يتخرجوا من أى ضرب من ضروب القسوة أو العقاب (٦٠) ، . وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع ١٨٠٠ نسخة في سنة واحدة (١٦١٨) ، وهي أول سنة الحرب .

فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم ، ألف عدد من الأمراء البروتستنت د اتحادا من الأقاليم الانجيلية ، (١٦٠٨) أو اتحادا بروتستنتيا ليتبادلوا الحماية . ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد ، ولكن هنرى الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور الهابسبورجى . وفي ١٦٠٩ ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسميليان الأول دوف بافاريا ، اتحادا كاثوليكيا ، عرف بالحلف الكاثوليكى ، وما وافى أغسطس من عام ١٦١٠ حتى كانت كل دويلات الإمبراطورية تقريبا قد انضمت إليه ، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية . ووافق الاتحاد البروتستنتى (فبراير) على أن يساعد هنرى الرابع على الاستيلاء على دوقية بوليس - كليفز ، ولكن مصرع الملك الفرنسى (١٤ ماير) حرم البروتستنت من أقوى حليف لهم . وسرى الخوف فى ألمانيا البروتستنتية ، ولكن الحلف لم يكن على استعداد العمل . وفى يناير ١٦١٥ أنذر موريس حاكم هيس - كاسل الاتحاد البروتستنتى بأن د الحلف الكاثوليكى ، الذى يحميه البابا ، وهلك

أسبانيا ، وبلاط بروكسل ، والامبراطور . . . أرسل في طلب السلاح
والذخيرة . . . رغبة . . . في استئصال شأفة - المذهب الانجيلي (٦١) ، . وزاد
الظنين بلة أن كاسبارسكيو بيوس حذر الكاثوليك واللاوثريين من أن الكلمينيين
يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والاطاحة بالامبراطورية الرومانية
المقدسة بأسرها ، ومحو مبدأ أو جزر برج والمذهب الكاثوليكي من الامبراطورية (٦٢)
عمواً بسواء ، وربما كان هذا محاولة لاشاعة مزيد من الفرقة بين الشيوخ
البروتستانتية . وأضعف النزاعات الاقليمية بين النمسا وبافاريا العصابة الكاثوليكية
في ١٦١٦ . . . وراود الناس من جديد حلم السلام ا

ولسكن في براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع
الكاثوليك المتحمس الارشيدوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا . وكان
الامبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد في أثناء غيابه .
واستبد هؤلاء الحكام بالبروتستانت في النزاع حول بناء كنيسة في كلوسترا
جرا ب ، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفي ٢٣ مايو ١٦١٨ قاد ثورن حشداً
بروتستانتياً غاضباً إلى قلعة أوسكين ، وصعدوا إلى الحجرات التي كان يجلس
بها أثنان من هؤلاء الحكام ، وألقوا بهما من النافذة مع سكير تير كان يتحمس
لهم ، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدماً ، ولكنهم وقعوا على كومة من الاقار ،
قتلوا أكثر مما أودوا . فكان هذا الالقاء من النافذة ، تحدياً مثيراً للامبراطور
والارشيدوق والعصبة المقدسة . وطرد ثورن رئيس الاساقفة والجزويت ،
وشكل حكومة هديرين ثورية . وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق
كغلاب الحرب من عقابها أو أنه أشعل نارها .

٦ - حرب الثلاثين سنة

١ - طور بوهيميا : ١٦١٨ - ١٦٢٣ :

أرسل الامبراطور ماتياس إلى حكومة المديرين ساقفة الذكر عرضاً

بإصدار عفو عام ، والدخول في مفاوضاتها ، ولكن هذا العرض رفض (٦٣) .
وأفقد الإرشيدوق فرديناند ، متجاهلا الإمبراطور ، جيشين لغزو بوهيميا .
وجرض فرديريك الخامس نالجب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوي
المعادي لآل هابسبرج ، على إرسال قوة لتجدة بوهيميا ، بقيادة القائد القدير
بيتر ارنست فون هانسفيلد وأستولى ما نسفيلد على بلسن ، معقل السكالوليك
في بوهيميا ، وتقهقرت جيوش فرديناند . واقترح كريستان دون برنزويك
مستشار فرديريك على المديرين أنهم إنما يقوون دفاعهم ويستبعدون فرديناند
عن العرش ، إذا عرضوا العرش على فرديريك . وفي ٢٠ مارس ١٥١٩ مات
ماتياس ، تاركما فرديريك المملك الشرعى على بوهيميا، ووريثا افتراضيا للتاج
الإمبراطورى . وفي ١٩ أغسطس أعلن مجلس الديت في بوهيميا خلع فرديناند
عن عرش بوهيميا ، وفي السابع والعشرين نادى بفرديريك أمير البالاتينات
ملكاً على بوهيميا . وفي الثامن والعشرين أعلن ناخبو الإمبراطور أرشيدوق
استيريا إمبراطورا تحت اسم فرديناند الثانى .

تردد فرديريك في قبول هذا المنصب الجديد ، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه
من زعماء الكلفنية لا يمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثريين ، على حين أنه قد
يواجه معارضة الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا . وأهاب بواله زوجته
جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمدّه بمجيش ، ولكن بدلا من ذلك ، زوده
الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة — أن يرفض عرش بوهيميا . ولم تغره
أو تحته زوجته المرححة المجرية على قبول العرش ، بل وعدته أن تقاسمه عن
طيب خاطر كل ما قدر له أن يلقى ، نتيجة لما يقع عليه اختياره ، وكانت عند
وعدها . ونصح كريستيان أمير برنزويك بقبوك العرش . وفي ٣١ أكتوبر
١٦١١ ، دخل الملك الجديد والملسكة براغ ، ورحب بهما الديت والاهالى
ترحيبا حارا .

وكان فرديريك بعد شابا في العشرين من العمر ، يتحلى بحسن الخلق والشهامة

والكياسة ، ولكنه لم يكتمل نضجه إلى درجة يتولى معها شؤون السياسة والحكم . وكان أول عمل له بعد تولية منصبه في براغ ، أنه أمر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فيتوس ، وهي الحرم الوطنى المقدس ، وصرعان ماعمد أتباعه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة في بوهيميا . واستنكرت الاقلية الكاثوليكية هذا التصرف ، واستاء منه اللوثون البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفنى المتحمس وفى ٣٠ أبريل ١٦٢٠ أعلن فرد يناقذ أن فرديريك معتصب للعرش ، وأصدر إليه الأمر بمغادرته الامبراطورية فى أول يونية ، وإلا اعتبر خارجا على القانون وصودرت أملاكه . وعرض الامبراطور أن يضمن عدم تعرض الوباب البروتستانتية الألمانية للهجوم ، إذا هى قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية . وفى معاهدة أولم (٣ يونية ١٦٢٠) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بان فردريك عرض حريتهم الاخطار بتجديده فرد يناقذ . وانحاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولايتيه اللوثرية إلى الامبراطور الكاثولىكى .

وفى أغسطس عبر جيش امبراطورى قوامه ٢٥ ألف رجل ، النمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافارى وهو جوهان تسركليس ، كونت تلى الذى تعلم التقوى على يد الجزويت ، وتلقى فن الحرب من دوق بارهاو بالقرب من الجبل الأبيض ، إلى الغرب من براغ ، التقى هذا الجيش بالبوهيمين وهزمهم هزيمة منكرة (٨ نوفمبر) . وفر فردريك واليزابت وحاشيتهما إلى سيليزيا . وعجز الملك والملسكة عن جمع جيش هناك ، فالتسا ماوى فى براند بيرج الكلفنية . وفى اليوم التالى للمعركة أحتل مكسيمليان أمير بافاريا براج . وصرعان ما أعبدت الكاثوليكية ، وأعيد وضع الصور فى الكنائس ، وأستدعى الجزويت ، ووضع التعليم تحت إشراف الكاثوليك ولم يبح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية ، وألقى العشاء الربانى بالخبز وبالنيبيد على حدسواء ، وكان يرم القديس جون هس من قبل عيدا وطنيا فجعل يرم حداد تغلق فيه كل الكنائس ، وقبض على ثلاثين من زعماء العصاة وأعدم

منهم سبعة وعشرون . ولمدة عشر سنين ظلت اثنتى عشرة جمجمة تطل متجمدة غاصبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (٦٤) وحرمت الهجرة على كل العصاه والمتمردين ، وصودرت أملاكهم - بجانب الملك فرديناد الذى باعها بيع السلعة للكاثوليك ، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على اكتاف رقيق الأرض . وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختفى .

وعلى حين كان مكسيميليان أمير بافاريا يقهر الكلفنية فى بوهميا على هذا النحو ، فان سبينولا أثناء الهدنة فى الأرض الوطيفة ، قد قوة كبيرة من الفلاندرز للاسيلاء على البلاتينات ، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومة وأنضم فرديريك إليهم ، تاركاً زوجته فى لاهاي . فلما أستدعى سبينولا إلى الأرض الوطيفة عند تجدد الحرب بين هولنده وأسبانيا ، حل محله تلى ، وهزم البروتستانت (١٦٢٢) وأستولى على هيدلبرج ، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة فى خمسين عربة ونقلت إلى رومة هدية من مكسيميليان الباقارى إلى البابا جريجورى الخامس عشر . ولما عاد مكسيميليان منتصراً منح البلاتينات ميزتها الانتخابية ، لقاء ما أدى للامبراطور من خدمات . وأصبح للولايات الكاثوليسكية الآن الأغلبية فى مجلس الديت الناخب .

أن مدى النصر الكاثوليكى وكاله وشموله أقلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فان تزايد هيبة فرديناد الثانى وسلطانه كان يهدد حريات ، الأمراء الالمان ، كما أن مكسيميليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافار مع بقاء تبعيتهما للامبراطور . وتعاطف البابا أريان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هبسبرج أصبحوا من القوة بحيث باتوا خطراً على حرية البابوية وأغضى عما عمده إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك فى فرنسا لمساعدة الالمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك للملك سويدي ضد امبراطور كاثوليكى . وفى ١٦٢٤ حول الكاردينال المدهش المنظر السياسى فجأة ،

بسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية . ففي ١٠ يونيو وقع تحالفامع هولندا البروتستانتية ضد الفلاندرز وأسبانيا الكاثوليكييتين . وفي ١٥ يونيو ضم إنجلترا البروتستانتية إلى الحلف ، وفي ٩ يوليو ضم إليه السويد والدمرك ، وفي ١١ يوليو أفتتح سافوى والبندقية بالانضمام اليه في محاولة لقطع خط الامدادات والقوات الأسبانية النمسية عبر مرات الفالتلين في جبال الألب الايطالية السويسرية . وفي ١٦٢٥ جاء كريستان الرابع ملك الدنمرك بعشرين ألف رجل للانضمام إلى قوة مانسفيااد المكونه من أربعة آلاف رجل في مسكونيا السفلى . وتولى الجزع مسكسيميليان ، فحث الامبراطور على إرسال نجدة إلى تلى الذى تناقص عدد جيشه من ١٨ ألفا إلى ١٠ آلاف بسبب الجوع والمرض واستجاب فرديناند باستدعاء فالنشتين من بوهيميا .

٢ - فالنشتين : ١٦٢٣ - ١٦٣٠ :

كان اسمه الحقيقي ألبرخت فون فالنشتين ، وهكذا كان يوقع اسمه دائما (٦٥) . وكانت أسرته من أعرق الاسرات النبيلة في بوهيميا . ولد في ١٥٨٣ ، وتلقى تعليمه أولا على يد الأخوة البوهيمين ، ثم على يد الجزويت ، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعا ، تاركة له ثروتها . وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمن بخس ، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية ، من الاملاك التى صادرها فرديناند . وكان مالكا ذكيا تقديما ، فحسن طرق الزراعة والإنتاج ومول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وأعانات الفقراء ، وأدخر بعض الفائض ليقدم الغذاء لشعبه زمن القحط . ولم يؤثر في في معاصرة بعبقريته العسكرية فحسب ، بل بحسبه الفارع النحيل ، ووجهه الشاحب الصارم ، وقلقه العصبى ، وزهوه وغضبه وطبعه الحاد المسيطر . وجعلته دعتته التى لم يتحول عنها (٦٦) ، يبدو وكأنه فوق مستوى البشر . وكانت ثقته بالتنجيم أقوى من إيمانه بالمسيح .

وملك قلب فرديناند وظفر بحبه ، بالوقوف إلى جانبه ومساندته في كل

للمراحل التي رقى فيها الأرشيدوق إلى صولجان السلطان. ومن ١٦١٩ وما بعدها أقرض الامبراطور مبالغ ضخمة تسكاد تسد نفقات العرش - على سبيل المثال مائتي ألف جلدن في ١٦٢١ ، وخمسمائة ألف في ١٦٢٣ . ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض ، ويكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا ، ويستطيع أن يحشد جيشا بمقتضى شاء ، ويتولى قيادته بمهارة فائقة . وفي ١٦٢٤ عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة في ممرات فالنتلين ، ولم يعد في مقدور الجنود والمؤن الأسبانية الوصول من إيطاليا إلى النمسا ، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم في خدمة الإمبراطور. فتزدد فرديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تल्ली في ١٦٢٥ تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فرديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل . وفي سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى ، كامل العتاد ، حسن النظام والانضباط ، يحب قائده إلى حد العبادة ، ويعيش على ما يسلبه من الريف .

وصد فالنشتين مانسفيلد في دسو ، وهزم تल्ली كريستيان الرابع في لتر (١٦٢٦) وقضى مانسفيلد نحيبه ، ووجد كريستيان جيشه الذي يتناقص عدده عاجزا متمردا . وأنقصمت عرى التحالف الكبير الذي كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع ، وأعلان انحلترا الحرب على فرنسا ، وحملة بكسنجهايم لمساعدة الهيجونوت في لاروشيل . فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالنتلين ، التي عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا . وتقدم فالنشتين الذي يزداد جيشه عددا يوما بعد يوم ، إلى براندنبرج وأرغم فاخبها جورج وليم على إعلان الولاء للإمبراطور ، واندفع نحو دوقية كريستان نفسه . وهي هولستين ، وتيسر له القضاء على كل مقاومة في غير عناء . وفي نهاية ١٦٢٧ كسنت الأجزاء الداخلية من الدنمرك في قبضته .

ووسع هواء البلاطيق الملح من خطط فالنشتين ، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالي الألماني تقريبا ، ومعظم أرض الدنمرك ، للإمبراطور ، فلم لا يبني بحرية

إمبراطورية ، وبيجي «الهانسا» ، وبالتجانف مع بولنفة الكاثوليكية يمد سلطان الإمبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال ، ومن ثم لا يعود الهولنديون والانجليز قادرين على الاتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ايشدوا أساطيلهم ؛ ويتحكموا في بحر الشمال وتجارته ويسدوا القنال في وجه الأسيان أن امتلاك الإمبراطور للبلاتينات يمكنه من السيطرة على نهر الراين ، ومن ثم يكون الطريق مسدودا أمام الهولنديين في النهر والبحر . فنتصار قوتهم وثورتهم العتيدة . وسوف يصبح جوستاف أدولف محصورا في شبه جزيرة اسكنديناوه وفي ١٦٢٧ كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر في المحيط وفي البلطيق .

ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين . ذلك أنهم رأوا أنه بينما تقص جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة مكسيميليان البافاري وكونت تللي إلى نحو ٢٠ ألف رجل ، فإن فالنشتين تولى أمرة قوات بلغ عددها ١٤٠ ألفا . كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الإمبراطور وحده ومادام الإمبراطور مطمئنا إلى وجود جيشه من خلفه ، ففي مقدوره أن يجد من «حريات» الأمراء . والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الاقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها في دولة قوية واحدة . كما كان يفعل ريشليو في فرنسا ، وكما كان على بسمارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاما .

ولدى اجتماع الناخبين الإمبراطوريين في مولها وزن . في شتاء ١٦٢٧ - ١٦٢٨ ، تبادلوا الرأي فيما يراودهم من آمال ومايساورهم من مخاوف . ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين ، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضى عليها في مهدها الأول . ولكن عندما أطاح فرديناند بدوق مكلنبزج البروتستانتى ، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (١١ مارس ١٦٢٨) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الإمبراطور بسلطة

خلع الأذواق وتعيينهم وفق مشيئته هو وحده . وما كان أمام الأمراء الاورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند ، فإنه كان على وشك أن يطلب لإيهم ضمان اعتلاء ابنه العرش الامبراطورى . وفي ٢٨ مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت امره فالنشتين . فإيهم لن يقدموا ضمانا مثل هذا . كما حذرهم مكسيميليان البافارى ، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطاته وقوته ، فلا بد يوما من أن يملى هذا القائد سياسة الامبراطورية .

وكأنما لحظ فالنشتين هذا التحذير ، فإنه شرع ، وواضح أنه على مشيئته الخاصة ، فى إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع ، انتهت لصالح لوبك (٢٢ مايو ١٦٢٩) . ولدهشة أوربا كلها ، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلمند وشلزويج والقطاع المملكى من هولشتين . ولم يفرض تعويضاً ، بل أنه طلب فقط تخلى كريستيان عن أسقياته الألمانية وسلطته العسكرية ، ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الكرم ، إنه من ناحية ، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضائق ، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا ، وأخيراً ، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لا كريستيان .

وربما أقلق استحواذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور ، ولكن كان لزاماً عليه أن ينتفى شكوكه وحقده المتزايدين ، لأنه كان الآن يخطط أجراً حركة فى تاريخه ، وقد يكون فى حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين فى كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة . أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار إمبراطورى ، لتسترد الكنيسة الكاثوليكية ، بقدر الإمكان ، أملاكها ومواردها التى اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الدينى ، أو على الأقل منذ ١٥٥٢ . ورأى فرديناند الكاثوليكي الشديد التمسك بعقيدته فى هذا المطلب شيئاً من العدالة ، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية ، فقد بيعت منذ ١٥٥٢ ممتلكات كثيرة من تلك التى كانت ملكاً للكنيسة ، ودفع ملاكها الحاليون ثمنها . ولتنفيذ هذا ، أى استرداد

الكنيسة لأملها ، لا بد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم ، والمفروض أن يتم هذا عنوة ، وقد تودى الفوضى الناتجة عن هذا بالمانيا إلى ثورة . وكان مكسيميليان أمير بافاريا يوماً يحبذ هذه الفكرة ، ولكنه الآن فزع لمداها ومضاعفاتها ، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستفيضة . وخشى فرديناند أن يرفضها الديت . وفي ٦ مارس ١٦٢٩ نشر د قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وجاء فيه د لم يبق أمامنا إلا أن تأخذ بيد الجماعة المظلومة ، ونبعث بموظفينا ليطلبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين فانونا أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار ، وسائر الممتلكات الكنيسية التي صودرت منذ معاهدة باسو ١٥٥٢ . وكان هذا والإصلاح المضاد ، انقترن بالانقمام وكان كذلك توكيداً للسلطة الإمبراطورية المطلقة . وهى سلطة مطلقة ربما تردد حتى شارل الخامس نفسه فى انتحاله لشخصه .

وقبول القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع ، ولكنه نفذ . وحيثما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعى جنود فالنشتين وأحدها فى كل مكان باستثناء مجد برج التى نجحت فى مقاومة حصار فالنشتين لها . وعادت مدن بأكملها أوجزبرج ، روتنبرج ، دورتمند ، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدي الكاثوليك ، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير ، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية ، ولما طبق المالكون قاعدة الناس على دين ملوكهم ، متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم ، اضطرت آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو يهاجروا . ومن أوجزبرج وحدها نفي ثمانية آلاف ، بما فيهم الياس هل الذى كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية النخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على وجوههم فى طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز ، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استصرخوا الحكومة أن تغيثهم (٦٧) . وما حال دون النجاح النهائى للقرار وللإصلاح المضاد فى ألمانيا ، إلا قدوم جوستاف أدولف .

وإذ استنفذ فرديناند غرضه في استخدام فالنشتين في تنفيذ القرار . ولم يجد أية قوات بروتستانتية في الميدان ، فإنه لم يعد حريصا على الاحتفاظ بقائده . فطلب إليه في مايو ١٦٣٠ أن يتخلى عن ٣٠ ألفا من جنوده للخدمة في إيطاليا ، فاعترض فالنشتين محتجا بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا ، فغلب أمره ، وأرسل الملاثون ألف جندي إلى إيطاليا . وعاد الناخبون في يوليه واقترحوا عزل فالنشتين . ووافق الإمبراطور ، وفي ١٣ سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيميليان أمير بافاريا قد حل في منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين في سلام إلى ضياعه في بوهيميا ، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضي الألمانية ، وأن الإمبراطورية لا بد أن يكون وشيكما في حاجة إلى قائد .

٣ — قصة جوستاف البطولية : ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

ينبغي ألا تصور العاهل العظيم في صورة دجالاهاد ، أي في صورة رجل نبيل طاهر ، تقدم لإتمام الديانة الحقة من الوثنيين . كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسي ونموها الاقتصادي ومن أجل هذين الهدفين قاتل بولندا الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن ، بموارده المتواضعة على الدخول في مباراة ضد الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا ، مجتمعة ، فما ذلك بسبب الكشككة ، بل لأنهم هددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل لملوك غرباء معادين . وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق ، هو إقامة معازل محصنة سويدية في الداخل . وترددت سكونيا البروتستانتية ، وانسأقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف ، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية في اللاهوت بل كفاحا من أجل الأمن عن طريق القوة . ومهما يكن من أمر ، فإن العقيدة ، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء ، حافز مثير قوى لدى الشعب ، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية ، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال .

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها ١١ ألفا في بواميرانيا، وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية ومخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفًا مصلتا ضد أسرة هابسبرج المنتفخة. وانتظر المدد من السويد والدمرك وبراندنبرج وبولندا حتى تجمع لديه نحو ٤٠ ألف جندي في أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفعيتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شابا في السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتمد عوده وقوى جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالبا ما يتقدم الصفوف، سائرا بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البغايا بلغ من كثرتهم تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهن، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو موسسات في معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود^(٦٨). وكانت كل كتيبة تؤدي الصلوات في الصباح وفي المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهنا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرم جوستاف، كما حرّم كرومول، الارتداد عن الدين قسرا، وحيثما دخل فاتحا ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام ١٦٣٠ في بسط سلطانه على بواميرانيا، وفي البحث عن حفاء. فاذا تبسّر له أن يجمع كل أعداء آل هابسبرج في حرب صليبية واحدة، لاجتمع له مائة ألف جندي صالحين لملاقاة جيش فنشستين. وفي ١٣ ديسمبر ١٦٣١ وقعت فرنسا والسويد ميثاقا يحصل الملك بمنقتضاه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) ٤٠٠ ألف تالر (٤ ملايين دولار؟) سنويا لحملة مدتها خمس سنوات، ولا تعقد أى من الدولتين صلحادون موافقة الأخرى. والتزم جوستاف ألا يتدخل في أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشيليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق الناخب، بدلا من ذلك أرسل القائد تلمى ليعوق تقدم الجيش السويدي، واستولى تلمى

على نيوبراند نبرج (١٩ مارس ١٦٣١) وذبح حاميتها المسكونة من ٣٠٠٠ رجل . وفي ١٣ أبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المسكونة من ألفى رجل ، وبينما قضى الملك وقته في بذل الجهد انضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف ، حاصر تल्ली وكونت باينهايم مجدبرج التي كانت لانزال تقاوم د قرار إعادة أملاك الكنيسة ، . وفي ٢٠ مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر ، سقطت المدينة ، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام . وقتل في هذه الحرب عشرون ألف رجل ، لالحامية المسكونة من ثلاثة آلاف فقط ، ولكن قتل كذلك ١٧ ألفا من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٦ ألفا ، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عدا الكاتدرائية .
ووصف هذا المنظر فقال : -

لم يعد هناك شيء الا الضرب والحرق والسلب والنهب
والتعذيب واقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة،
على الحصول على أكبر قدر من الغنائم . وتحت التهديد
بالضرب أو الرمي بالرصاص أو الذبح أو الشنق ، أُرهب
الاهالى المساكين وفزعوا ، فلو تبقى لديهم شيء لاحتجوه
لو كان مخبأ في ألف حرز مكين . وفي حمة الغضب المسعور ،
اجتاحت أسنه النيران المدينة العنابية الفخمة التي قامت وسط
الأرض كمروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من
الرجال والنساء والأطفال ، وسط ضجة رهيبه من صيحات
وصرخات تمزق الفؤاد ، بطريقة وحشية مخزية ، تقصر أية
كلمات عن وصفها . وأية دموع عن نديها والتوجع لها (٦٩) .

وبذل تल्ली ، وهو الآن شيخ هرم في الواحدة والسبعين ، كل ما في وسعه
لوقف المذبحة . وتنبأ بحق بأن الولاة البروتستانتية دون ريب سوف تشتد
كراهيتها بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم .

وفي ٢٢ يوليه ١٦٣١ وضع ناخب براند فبرج كل موارده تحت تصرف جوستاف وفي ٣٠ أبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد . وفي ١٧ سبتمبر سحقت الجيوش السويدية والسكسونية المجتمعة قوات تल्ली عند رينتليند بالقرب من ليزج وكان هذا أول نصر برتستانتى هام في الحرب ، وقد أحياء روح السكان البروتستانت . وأصبح شخص ملك السويد الذى كان يقا تل دون درع في قلب المعركة يعلوه الغيار ، ويتصبب منه العرق ، بوجهه ويقود رجاله غير هيا ب ولا وجل ، نقول أصبح رمزا يشد من عزم شعب كان منذ عهد قريب مزة عاجز يره ب جيش فالنشستين . واستردت مكلمبرج ، وأعيد الهوق المخلوع إلى عرشه ، ودخلت الولات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحلف السويدى وسرعان ما سيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأورو إلى الراين وأخذ مقر قيادته في ماينز في قلب إلفلم كاثولىكى عادة . وفي نوفمبر سار جون جورج بجيشه السكسونى إلى براج دون أن يلقى أية مقاومة ، وكان حريصا على عدم مهاجمة صياح فالنشستين في طريقة .

والان وقد بقى فرد يناند بلا حليف اللهم الا أسبانيا الفقيرة المدعمة ، وبلا قائد سوى تल्ली العجوز ، فانه في تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشستين (ديسمبر ١٦٣١) وطلب ليه أن يجهز جيشا لا تقا ذ بوهيميا وحماية النمسا . ووافق القائد المزهو المغرور ، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الامبراطورية ، وتكون له سلطة التفاوض وتوقيع المهادنات إلا مع جوستاف ، ويكون له في البلاد التى يفتحها حق مصادرة الأملاك واصدار العفو وفي أبريل ١٦٣٢ قبلت هذه الشروط جميعها . وجمع فالنشستين جيشا ، كما جمع الأهرال اللازمة له ، وعرض على جون جورج صلحا منفردا واستعاد براج دون طلقة واحدة . وانسحب الجيش السكسونى إلى سكسونيا .

وفي الوقت نفسه أستأنف جوستاف القتال ، وهزم تल्ली عند رين ، (١٥ أبريل) . ومات تल्ली بعد ذلك بأسبوعين متأثرا بجراحه . واحتل

جوستاف ميوفنيخ ، ومطار فالنشتين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش
هكسيميان (وهنا تفرقت هذه القوات على جيش جوستاف عددا ، إلى حد
بعيد ، وأرتاب حلفاؤه في أن له أطماعا أمبراطوية ، فانتابهم القلق وأصبحوا
لا يعتمد عليهم ، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعا ، فأعملت السلب
والنهب في البروتستانت والكاثوليك ونفرتهم منه ، على حد سواء . وأعرب
جون جورج ، وقد لعبت الخنزير برأسه يوما عن تلفه على التخلص من ملك
السويد وكان جوستاف يأمل في الاستيلاء على فيينا ، ولكنه كان يخشى
إنحياز جون جورج إلى فالنشتين ، فتحول إلى السخا . وفي نورمبرج ،
وهو يدرك تمام الإدراك أن الريح غير هوائية ، أرسل تعليماته الأخيرة
إلى أوكسنميرن ليتولى شؤون الحكومة السويدية والحرب . وفي أرفورت
ودع زوجته ، وفي ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ، في لوتزن بالقرب من ليزج ، التقى
القائدان العملاقان في ذلك العصر ، وجها لوجه ، وجيش جوستاف ٢٥ ألفا ،
وجيش فالنشتين ٤٠ ألفا . واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفا ، واضطربا
ثم التأما ، واضطر فالنشتين إلى التراجع ، ولكن بأبنيم قلب الهزيمة رأسا على
عقب ، إلى أن أصابته طلقة ورثته فاختنق بالدم وقضى نحبة . أما جوستاف فإنه
رأى قلب جيشه يتقهقر ، فقام بنفسه ، على رأس كتيبة من الفرسان ، وقاد
هزيمة ضارية ، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى ، وأخرى أصابت جوداه
فسقط عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره . فتجمع الفرسان الدارعون
الامبراطوريون حول وسألوه من يسكون ، فأجابهم : أنا ملك السويد الذي
قد ضمن عقيدة الأمة الألمانية وحريتها بدمه (٧٠) فأنهالوا عليه بسيوفهم مرة
ومرة ، ثم أعلنوا بأعلى أصواتهم نبأ موته ، وتولى القيادة بعده برنهارد دوق
سكس ويمار . وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقد مليكهم ، أنصارا
بأهرا واستخلصوا جنان جوستاف الذي شوهته الطلقات والطحثات . وفي
تلك الليلة ابتهج المنهزون فرحا ، واغتم المتصرون حزنا ، لأن أسد الشمال
قضى نحبه .

٤ - انحلال (١٦٣٣-١٩٤٨)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب، وتولى ريشليوز عامة البروتستانتية
الامان ونفذ أو كسنستيرنا وصيه سيده المتوفى في دبلوماسية حكيمة . وقاد
برنارد دوق ساكس ومار الفرنسيين ، وبانير وتورستون السويديين إلى
إنتصارات جديدة . ولكن الأجداد ولم يبق إلا الذعر والفرع . وتنفس
الأمراء البروتستانت الصعداء إلى حذما ، بموت جوستاف ، وتذمروا من الثمن
الباهظ الذي أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند ، وفي هذه العملية
اتلفت الأطراف المتنازعة مزارعهم ودمرت مدنهم ، وقاد ملك أجنبي الامان
ضد الامان ، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف .

ويبدو أن فالنشتين فقد أعصابه منذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة . وبعد
لوتزن عاد إلى بوهيميا وجرى في أناة وروية جيشا آخر ، ولكنه أيضا ، وقد
بلغ الآن الخمسين ، ستم الحرب وتمى بعض الفراغ ليعالج داء النقرس .
فتفاوض ، مستقلا ، مع زعماء البروتستانت ، حتى مع ريشليو^(٧١) ولا بد أن
فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين ، بموافقة أكسنستيرنا ، كانوا
يتآمرون لاجلاس فالنشتين على عرش بوهيميا^(٧٢) . وعندما قاد برنارد دوق
ساكس ومار جيشا إلى بافاريا توصل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن
يسرع لنجدتهما . ولكنه أجاب بأنه ليس في مقدوره أن يعد الرجال لعمل
من هذا القبيل . لقد وزع جيشه العاطل على الضياع الامبراطورية في بوهيميا ،
وطلب إليه الامبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضي
الامبراطورية فأبى .

وفي ٣١ ديسمبر ١٦٣٣ قرر فرديناند ومجلسه أنه لابد من عزل قائدهم
الأعظم ، وتناثرت الشائعات في جيش فالنشتين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه
ملكاً على بوهيميا ولويس الثامن ملكاً على الرومان . وفي ١٨ فبراير وزعت

أوامر امبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام ، ولى هاربا من بلزن ، ومعه ألف رجل . وفي اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته في لييجر نفر من الجنود الطامعين في المكافأة، فوجدوه وحيدا أعزل . وأشبعوه طعنا بسيوفهم، ويقول أحد المعاصرين «وفي الحال جروة من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم» (٧٣)، وأمرع القتل إلى فيينا حيث نالوا ترقية ومالا وأرضا . أما الامبراطور الذي قضى ليالي وأياما ، يستبد به الخوف ، يتعبد ويتهدد ، فقد حمد الله على معاونته سبحانه .

واستمرت الحرب تجر أذيالها أربعة عشر عاما أخرى . وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر ستا وعشرين سنة ، محل فالنشتين في منصب القائد الأعلى للجيش الامبراطورية . وكان شابا جديرا بأن يحب ، متعلما ، عطوفا كريما ، يحب الفلسفة ، ويكتب الموسيقى ، ويحفر العاج ، ومع ذلك لم يكن جاهلا بفنون الحرب . ودحر بمساعدة القواد القدامى ، برنارد في فرردانجن ، وهي أعظم المعارك الامبراطورية حسبا في الحرب . وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماما ، لولا أن أوكسدستيرنا أنقذ الموقف بعقد معاهدة كوميين (٢٨ أبريل ١٦٣٥) التي هيأت لريشليو لإسهما كاملا في الصراع . ولكن الأمراء البروتستانت في ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسي يتحكم في مصيرهم . وتبعوا ، الواحد منهم يتلوا الآخر ، جون جورج أمير سكسونيا في عقد الصلح مع الامبراطور الذي رحب بهم ، حيث ألغى نفسه تواجبه الجيوش والأموال الفرنسية معا . وبمقتضى معاهدة براغ (٣٠ مايو ١٦٣٥) وافق الامبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنييسة لمدة أربعين عاما . وفي مقابل ذلك وعد معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضي التي فقدوها منذ مجيء جوستاف أدولف . ولما كانت هذه الأراضي تشمل اللورين . فإن المعاهدة في الواقع كانت موجهة ضد فرنسا . والسويد ، وكانت تؤكد اجديدا للوحدة الألمانية ضد الغزاة . وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال . وفي نهاية عام ١٦٣٥ كان جيش سكسونيا

البروتستانتية يقاتل السويد البروتستانتية في ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستنسون يناضلان ، بعسكرية عسكرية حديرة بجوستاف ، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد .

وفي الغرب وقف برنارد بشجاعة في وجه القوات الامبراطورية المتزايدة وفي ١٦٢٨ أمدته فرنسا بالأموال ، وأفضل منها بألفى جندي بقيادة تورن الذى صعد نجمة آنذاك كقائد . وشن برنارد ، بعد أن وصله الامدادات على هذا النحو ، حملة جديدة بأن تسجلها حوليات الحرب ، من أجل التثبيت بالهدى ودقة الاستراتيجية ، وهزم الامبراطورين في وينوير . وأجبر قلعة بريساخ العظيمة على الاستسلام ، وأنهكت قواه وهو في الرابعة والثلاثين فقضى نحبه (١٦٣٩) وذهب جيشه وفتوحاته ، بما فيها اللورين . إلى فرنسا .

وفارق الامبراطور العجوز الحياة ، وخلا منه المسرح ١٦٣٧ . وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعاني فقرا وحرمانا لا سبيل للخروج منها ، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الإنفاق على جيوش تقف في وجه ريشليو الذى ما زال قادرا على ابتزاز الفرنكات من فرنسا المدممة . وفي ١٦٤٢ وصل تورستنسون بجيش السويد إلى مسافة ٢٥ ميلا من فيينا ، وأحرز نصرا ميينا في معركة برتينفيلد الثانية ، حيث فقد الإمبراطورين نحو ١٠ آلاف رجل ، بما حدا بالأرشيذوق المنهزم ليوبولد ولیم ، أخى الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكري ، بتهمة التجبن والخور . وقطع رؤوس ذوى الرتب الكبيرة ، وشنق من هم أقل منهم رتبة ، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب (٧٤) .

وبدا الآن أن كل عام يأتي بضربات جديدة تنصب على رأس الامبراطور الجديد . ففي ١٦٤٣ محضمت أسبانيا بانتصار دوق انجين في ركروا . وفي ١٦٤٤ غزا انجين وتورن أراضى الراين حتى شمال ماينز ، وفي ١٦٤٥ تقدم تورستنسون حتى صار على أبواب فيينا تقريبا ، وانتصر الفرنسيون في معركة دامية عند الليرهم ، واجتاح جيش سويدى بقيادة كونت هانس كريستوف

فإن كونجز مارك سكسونيا وامستولى على ليزج ، وأرغم جون جورج على الخروج من الغرب . وكان الجيش البافاري قد طرد من البالاتينات في ١٦٣٤ أما الآن ، في ١٦٤٦ فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخربها ، وتوصل مكسيمليان الذي كان قد ركبته الغرور يوما ، إلى عقد الصلح ، والتمس من الامبراطور أن يفاوض فرنسا من أجل الصلح . ولم يكن فرديناند الثالث صلحا لا ينثنى ، مثل أبيه ، وكانت تصل إلى مسامحة صرحات الإمبراطورية المنهوكة ، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا ، سعيا وراء شيء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات .

كان الإمبراطور الشلب أصغر من أن يدرك أن المذمحة والحراب ربما كانا أفظح ما اقترفته أيدي البشر في جيل واحد في أي بلد من قبل . فلم يكن هناك جيشان ، بل ستة جيوش - الألمانى والدمركى والسويدي واليوهيمى والأسباني والفرنسى معظمها من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألمانى ، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر ، وهى جيوش تعيش على استسلاب الحبوب والفاكهة والماشية من الحقول ، تقيم أو تأوى في الششاء إلى مساكن الشعب ، جزاؤها هو حرقها في السلب والنهب ، وابتهاجا بالقتل والغصب . وكان مبدأ مقبولاً مسلما به لدى كل الأطراف المتحاربة ، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام ، بعد أن أصبح الاستسلام أمرا لا مناص منه ، وأحس الجنود أن المدنيين فرائس أو ضحايا مشروعة ، فاطلقوا الرصاص على أقدامهم في الشوارع ، وجندوهم لخدمتهم . وحطفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشعلوا النار في مخازن التبغ وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو . لقد قطعوا أيدي وأرجل قسيس بروستاتى لأنه قاوم تحطيم كنيسته ، وربطوا القساوسة تحت العربات ، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء (٧٥) ، وكان حق الجندى في اغتصاب النساء أمراً مسلما به ، فإذا طالب والد أن يحاكم جندى اغتصب ابنته وقتلها ، أبلغه الضابط

المختص بأنه لو لم تكن ابنته ضنينة بمنزرتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة (٧٦) .

وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب ، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً ، ولكنه كان فاجعاً . وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من ٢١ إلى ١٥ مليوناً (٧٧) . وقدر السكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى ٨٠٠ ألف (٧٨) . وبين ٣٥ ألف قرية في يوهيميا ١٦١٨ ، هناك نحو ٢٩ ألف قرية هجرها أهلها أثناء الصراع (٧٩) . وهناك في مختلف أنحاء الامبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد، وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم مئتين ميلاً دون أن يرى قرية أو بيتاً (٨٠) ، وكان في ١٩ قرية في نورنجيا في ١٦١٨ نحو ١٧١٧ بيتاً ، لم يبق منها في ١٦٤٩ سوى ٦٢٧ بيتاً ، لم يكن كثير منها أهلاً بالسكان (٨١) .

وتركت آلاف الأقدنة الخصيبة دون فلاح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور ، أو لأن الفلاحين لم يكتفوا على ثقة من أنهم سوف يحصدون نتاج ما يزرعون . واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش ، وكان ما تبقى يحرق لثلاً يستفيد منه الأعداء . وأضطر الفلاحون في كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات المخبأة ، أو السكلاب أو القلط أو الفيران ، أو جوز البلوط أو الحشائش ، وقد وجد بعض الموتى وفي أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والسكلاب على لحم الخيول الميتة . وفي الألزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة ، تلهفاً على التهام جثثهم . وفي أراضي الراين كانت الصور تنبش وتباع الجثث لتؤكل . واعترفت امرأة في زويبروكن بأنها أكلت طفلها (٨٢) . وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض في جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة . وتهدمت الطرق بسبب المعارك ، وأوبات من الخطر إرتيادها بسبب قطاع الطرق ، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين .

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى . وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل . وأصبحت المدن الكبرى أطلالا خربة - مجدبرج ، هيدلبرج نورمبرج ، نيو ستاد ، بايريت . وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتجين والمشتريين والحرفيين ، وكسدت التجارة . وصار التجار الذين كانوا يوما أثرياء يتسولون أو يسرقون ويسلبون من أجل لقمة العيش . وامتنع الكروميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت أفلاسها . وأحجم الممولون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح . وأفقرت الضرائب كل الناس ، اللهم إلا القواد والحياة والقساوسة والماوك ، وبات الهواء ساما بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة في الشوارع . وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفود والدوسنتاريا والاسمقربوط بين السكان المدعورين ، ومن بلدة إلى أخرى . ومرت القوات الأسبانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعونا أودى بحياة عشرة آلاف ضحية في أربعة شهور (٨٣) . وذوت وذبلت في أتون الحرب الفنون والآداب التي كانت تضيء على المدن شرفا ومجدا .

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء ، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية . واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل سادده العنف ، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب ، أو يقاتلون بسبب الكراهية . على حين عبأ سادتهم عواطفهم في التنافس على اقتناء الأراضي التي يمكن أن يجمعوا منها الضرائب ، وعلى السلطة السياسية . وهناك وهناك ظهرت بعض النواحي الإنسانية ، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم ، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء وللدمار . وكتب أحد الفلاحين في مذكراته اليومية : اللهم أنا نتوسل إليك أن تضع نهاية لما نلاق ، اللهم أما نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام . يا إله السموات أنزل علينا السلام (٨٤) .

٧ - صلح وستفاليا

كان الحكام ورجالهم الدبلوماسيون منذ ١٦٣٥ يجسمون النبض ويتحسسون الرأي من أجل السلام . وفي تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة ، واجتمع المندوبون للتفاوض في كولون . ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة . وفي همبرج في ١٦٤١ صاغ ممثلو فرنسا والسويد والامبراطورية اتفاقية مبدئية لينعقد مؤتمر مزدوج في وستفاليا في ١٦٤٣ ، ففي مونستر تلتقي فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكهما في ظل وساطة البابا والبنديقية ، وفي أوسنابروك ، على بعد ثلاثين ميلا ، تلتقي فرنسا والامبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات في ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك . وكان هذا الفصل المطهر ، ضروريا بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين في الاجتماع تحت رياسة ممثل البابا ، ورفض ممثل البابا أن يجلس في سعيد واحد مع الزنادقة .

وجاء الأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول . واستحدث انتصار تورستنسون في بريتنفيلد الامبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون في ١١ يولية ١٦٤٣ ، وتلك المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاطعات المتحدة (في الأراضي الوطيئة) ضد أسبانيا . وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلا في ٤ ديسمبر ١٦٤٤ ، وضم ١٣٥ عضوا بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة . وانقضت منذ ذلك اليوم ستة شهور في تحديد نظام الأسبقية في دخول المندوبين إلى القاعات وجلوسهم وما كان السفير الفرنسي ليدخل في المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب « صاحب الفخامة » . وعندما وصل السفير الأسباني تجنب السفير الفرنسي ونأى بنفسه عنه ، لأن أيا منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية ، وانصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث . ورفضت فرنسا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا . كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار اللويس الرابع

عشر . وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت إليهم أوامر الملكة الشابة الجريئة كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم . ثم بعقدوا مع العدو . وفي الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم .

وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة ، تلكا المندوبون في المفاوضات أو عجلوا بها ، وشغل المحامون أيما شغل بخلق الصعوبات أو لإبتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق ، يحلون العقد أو يزيدونها تعقيدا . وكان قواد فرنسا يسرون بخطى واسعة ، ومن ثم فإنها أصرت على تمثيل كل أمراء ألمانيا في المؤتمر ، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد الصلح مع الامبراطور منذ أمد طويل . وطاب إلى الزمن أن يتوقف حتى يرسل كل الناخبين والأمراء والمدن الامبراطورية تمثيلهم ، ورغبة في إضعاف مركز فرنسا ، عمدت أسبانيا (٨ يناير ١٦٤٨) إلى توقيع صلح منفرد مع المقاطعات المتحدة - التي كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح منفرد ، ولكن الهولنديين لم يسكنوا ليضيعوا الفرصة التي لاحت لهم ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاما . فكان جواب فرنسا على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا ، واستمرت الحرب بينهما حتى صلح البرينز في ١٦٥٩ .

وكان يمكن أن ينفذ المؤتمر دون نتيجة ، لولا اجتياح تورن لبارفاريا ، وهجوم السويد على براغ (يولية ١٦٤٨) وهزيمة الأسبان في انز (٢ أغسطس) فإن هذه الأحداث كلها أقنعت الامبراطور بالتوقيع ، على حين أن ثورن الفروند في فرنسا (يولية) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التي تطلق يده للحرب في الداخل . وعلى هذا ، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا في مونستر وأوزنابروك معا في ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ - واستمر سفك الدماء تسعة أيام آخر ، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال ، وتعالت صيحات « الشكر لله ، خاشعة مبتهجة ، من ألف قرية ومدينة .

ولا بد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيدا من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين ، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمه ، قدر ما سمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين . ولا بد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوروبا من جديد ، لأنها أوجزت وأخرجت قدرا كبيرا من التاريخ .

١ - حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالها .

٢ - حصلت بافاريا على البالاتينات العليا (الجنوبية) ، مع صورتها الانتخابي .

٣ - أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية) ، بوصفها موطننا انتخابيا ثامنا ، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى .

٤ - حصلت براندنبرج على بوميرانيا الشرقية وأسقفيات مندن وهالبرستاد وكامين ، ووراثة أسقفية مجدبرج . وعاونت فرنسا أسرة هوهنزلرن الناشئة في الحصول على هذه الثمار الياقة ، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هابسبرج ، وما كان منتظرا من فرنسا أن تنبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتجدها على عهد فردريك الأكبر ، ثم توقعها الهزيمة على يد بيسارك .

٥ - ونالت السويد ، بفضل انتصارات جيوشها أساسا ، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر ، بشكل جزئي ، أسقفيتي بريمن وفردن ، ومدينتي ويزمار واستتن ، ومنطقة مصب نهر الأودر ، ولما كانت هذه كلها أقطاعات امبراطورية ، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت الامبراطوري ، ولما استولت بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلندة فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى ، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر .

٦ - واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان لها قبل الحرب من «حريات» في مواجهة الأباطرة .

٧ - وكان على الامبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية في بوهيميا والمجر . ومن ثم اتخذت امراطورية النمسا والمجر شكلها على أنها حقيقة واقعة في هيكل الامبراطورية الرومانية المقدسة . لقد أنهارت اقتصاديات الامبراطورية المعمره ، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب ، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد ، والراين إلى المقاطعات المتحدة .

٨ - وكان أكبر الغنم لفرنسا التي مولت ثرواتها السويديين المنتصرين ، وفرض قوادها الصلح فرضا . فسلبت إليها الأراض فعلًا ، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألماني من الراين . وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانكن كوثية واللورين ، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو - الذي كان الآن قد فارق الحياة - كسر شوكة آل هابسبرج ومد حدود فرنسا ، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها ، والإبقاء على فوضى الإمارات في الامبراطورية ، وعلى الصراع بين الأمراء والامبراطور ، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي ، مما يحمي فرنسا من خطر ألمانيا موحدة . وحلت فرنسا محل أسبانيا - أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هابسبرج بوصفها قوة عظمى مسيطرة على أوروبا ، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس .

أما الضحية الخفية للحرب فهي المسيحية ، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذي كانت عليه بتملكاتها في ١٦٢٤ ، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

البروتستانتية من بوهيميا موطن لإصلاح هس . لقد قضى على الإصلاح المضاد ، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولنדה المذهب الكاثوليكي في السويد البروتستانتية ، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل . ورفض ممثل البابا في مونستر أن يوقع المعاهدة . وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ أعلن البابا انوسنت العاشر « أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة ، ملعونة بغيبه ، ليس لها أى أثر أو تديحة على الماضى أو الحاضر أو المستقبل ،^(٨٥) . وتجاهلت أوروبا هذا الاحتجاج . وهذا تلك اللحظة لم تعد البايوية قوة سياسية عظمى ، وأخطت شأن الدين في أوروبا .

وكذلك احتج بعض البروتستانت ، وخاصة أولئك الذين فقدوا مسألتهم في بوهيميا والنمسا . ولكن المعاهدة في جملتها - وهى ثمرة جهود كاردينال توفى وآخر حى - كانت نصرا للبروتستانتية التى أنقذت في ألمانيا . لقد ضعفت في الجنوب وفي الراين ، ولكنها في الشمال قويت عن ذى قبل ، واعترفت المعاهدة رسميا بكنيسة الإصلاح أو الكنيسة الكلفنية . وبقيت خطوط التقسيم الدينى التى أقرت في ١٦٤٨ ، دون تغيير جوهرى حتى القرن العشرين ، حين بدأ التغير في معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان ، يوسع من رقعة الكشلكة بطريقة تدريجية سليمة .

ولكن على الرغم من إن الإصلاح الدينى قد أنقذ ، فإنه عانى ، مع الكاثوليكية ، من التشكك الذى شجعت به بذامة الجدل الدينى ، ووحشية الحرب ، وقساوة العقيدة . وأعدم أثناء المعركة آلاف من الساحرات . وبدأ الناس يرتابون في المذاهب التى تبشر بالمسيح وتقرت قتل الأخوة بالجملة . وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التى تستر تحت الصيغ الدينية ، وارتابو في أن حكامهم يتمسكون بعقيدة حقة ، بل أنها شهوة السلطة هى التى تتحكم فيهم - ولو أن فرد يناند اثنائى غامر بسلطانه المرة بعد المرة ، من أجل عقيدته . وحتى في أظلم العصور الحديثة هذه ، ولى كثير من الناس وجوههم

شطر العلم والفلسفة للظفر باجابات أقل اصطباغا بلون الدم من تلك التي سمعت العقائد أن تفرضها في عنف بالغ . وكان جاليليو يفرغ في قالب مسرحي ثورة كوبرنيكس . وكان ديكارت يشير الجدل حول كل التقاليد وكل الساطة . وكان برونو يشكو إلى أوروبا آلامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقا . لقد أنهى صالح وستفاليا سيطرة اللاهوت على العقل في أوروبا ، وترك الطريق إلى محاولات العقل واجتهاداته ، غير معبد ، ولكن يمكن المرور فيه .

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

١٦٤٨ - ١٥٥٨

الفصل الثاني والعشرون

العلم في عصر جاليليو

١٥٥٨ - ١٦٤٨

١ - الخرافة *

قد تولد الديانات ، وقد تفتى ، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر . وسعداء
الحظ هم الذين يحتملون العيش بدون أساطير ، والكثير منا يعاني في جسمه
وفي أتهاق نفسه . وأفضل عقمار مسكن في « الطبيعة » جرعة مما هو فوق
الطبيعة . وحتى كبار نيوتن مزجا علمها بالأساطير . وآمن كبار بالسحر .
وكتب نيوتن في العلم أقل مما كتب عن « سفر الرؤيا » .

وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد . فأذا لنا تلتهب عندما
يتحدث عنا الآخرون . ولا تسكون الزيجات التي تم في شهر مايو سعيدة .
وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذي أحدثها بالزيت المقدس . وتستأنف
الجثة نرف الدم في حضور القاتل . وإن الجنيات والجن الصغير المؤذى
والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتقوم في كل مكان . وثمة طلاس
معينة (مثل تلك التي وجدت عند كاترين دي مديتشي بعد وفاتها) تضمن الحظ
السعيد ، وتمائم وتعاويز تقي من التجاعيد ومن العنة ومن شر الحاسد ومن
الطاعون . ويمكن أن تبرىء لمسة من الملك المصاب بسبل الغدد اللمفاوية في
العنق . وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .

(*) يمكن الرجوع إلى الفصل السابع (الجزء ٢٨) الذي يعالج الخرافة والعلم والفلسفة

في إنجلترا في تلك الحقبة .

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه ، أو من عمل الشيطان . ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف . وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، أهو بدر أم في الحاق . وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفي الثؤلول . وتنذر المذنبات بالكوارث . إن العالم (في الكثير الغالب) يسير إلى نهايته^(١) .

وكان التنجيم لا يزال سائدا . على الرغم من تزايد استنكاره ونبذه لدى من يعرفون القراءة والكتابة . وفي ١٥٧٢ انقطع تدريسه في جامعة بولونا . وفي ١٥٨٢ استنكرته وشجيتة محاكم التفتيش الأسبانية . وفي ١٥٨٦ حذر البابا سيكستس الخامس الكاثوليك منه . ولكنه ظل بين الأبقاء والإلغاء في جامعة سالامانكا حتى ١٧٧٠ . وكانت الغالبية العظمى من الناس ، وكثير من أفراد الطبقات العليا ، يستنبئون البروج عن المستقيل من مواقع النجوم ، وكانوا يكشفون عن د طالع ، أى طفل مهما كان شأنه بمجرد ولادته ، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع أن النمسية عند ولادة لويس الرابع عشر^(٢) . وعند ما ولد جوساف أدرف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكوبراهي أن يكشف عن طالع ، فتنبأ المنجم في حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكا . وكان كبلر ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك ، ولكنه كان يداهن فيقول : د كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش ، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكينه من العيش . وفي ١٦٠٩ أجزل فالنشتين العطاء لمن أتاه بطالع سعيد ، وكان دائما يصطحب معه في رحلاته وجولانه منجما^(٣) ، وربما قصد بذلك تشجيع قواه . وكمن مرة استشارت كاترين دي مديشي وحاشيتها المنجمين^(٤) . وحظى جون دي بشرة فائفة في التنجيم ، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه^(٥) .

وكان التصديق بأفانين السحر آخذا في التقلص ، باستثناء واحد مخز حقير

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء . إن المعذبين ومن ينزلون بهم العذاب ، على حد سواء ، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويد أو بوسائل مشابهة ، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاعاة قديس بالصلوات ، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاحظته والتودد إليه . وثمة كتاب صدر في هيدلبرج ١٥٨٥ تحت عنوان « بعض الأفكار المسيحية حول السحر » ، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة : « أن كل مكان في العالم بأسره ، في الداخل والخارج ، في البر والبحر ، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية^(٧) ، وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن تلبسها ، الشياطين وتحل فيها . وفي ١٥٩٣ ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ستين شخصا ، وعذبهم عذابا ألما . . . بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقي عظته^(٨) . . . وتصور قصة : « قطيع الخنازير (النجيل منى ٨ : ٢٧ - ٣٤) ، كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم ، ألم يمنح أتباعه القدرة على إخراجهم بأسمه (النجيل مرقس ١٦ : ١٧) . وكان الناس يلجأون إلى المساوسة لعمل تعاويد مختلفة - لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم ، أو تهدئة الأعاصير في البحر ، أو تطهير المباني من الأرواح الشريرة ، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس وفي ١٦٠٤ أصدر البابا بول الخامس منشورا بمثل هذه الخدمات الكهنوتية . واستنكر الكتاب البروتستانت مثل هذه الرقى والتعاويد المقدسة على أنها ضروب من السحر . ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويد على أنها طقوس شافية معافية^(٩) . وهنا ، كما هو الحال في كثير من الطقوس ، كان الأثر النفسى عليها طيبا .

وكما أخذ الناس بزمام المبادرة في طلب التعاويد ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة ، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم . وجاء في

أحدى النشرات ١٥٦٣ ، د أن الدخول في علاقات مع الشيطان ، فيكون في
متناول يدك في الخواتم أو البللورات ، فتستحضره أو تحالفه ، وتقوم معه
بمئات من أفانين السحر ، أكثر الآن شيوعا عن ذى قبل ، بين الطبقات العليا
والدنيا . وبين المتعلمين وغير المتعلمين . وانتشرت د كتب الشياطين ، التي
توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين في ١٥٦٨ اشترى
أحد الأفراد ١٢٢٠ كتابا من هذه الكتب (١٠) . وفي بعض الحالات نصح
ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات د أن يظهروا الناس على أضاليل
السحرة وخرافاتهم ، وأشاروا بعدم التصديق د بسبب السحرة ، وأوصوا
بعزل قسيس كان بصغى في سذاجة إلى اتهامات السحرة (١١) . وطالب البابا
جريجورى الخامس عشر في ١٦٢٣ بعقوبة الإعدام لغير من الناس تسببت
شعوذتهم في الموت ، ولكن البابا أريان الثامن في ١٦٢٧ أدان المحققين
الكاثوليك ، لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية ... وانزعوا من
المتهمين إقرافات لا قيمة لها . . . وعاقبهم دون بينة كافية (١٢) د وأصدر
الإمبراطور مكسيميليان الثاني (١٥٦٨) قراراً بإختبار صحة إقرافاتهم
بتحديدهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علنا ، وأن يكون النفى أقصى عقوبة
يحكم بها عليهم بعد إداقتهم ثلاث مرات . ولكن الأهالى المذهورين طالبوا
بالصرامة في الإختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام .

أن السلطات المدنية والدينية التي كانت تشارك الناس خووفهم من السحر ،
أو ترغب في التخفيف من حدته ، عمدت إلى أقسى الإجراءات في محاكمة
المتهمين وعذبهم بشتى أنواع الإهتزازات . وكان لمجلس مدينة نوردلنجن
بمجموعة خاصة من آلات التعذيب ، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه
د بفضل هذه الآلات ، وبوجه أخص آلة الضغط على الإبهام ، يمن علينا الله
بكرمه بإظهار الحق ، أن لم يكن لأول وهلة ، ففى آخر الأمر على أية حال (١٣)
أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظا لا يذوق طعام النوم ، فكان وسيلة معتدلة

خفيفة . وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه . وكانت الاعتزافات غسيرة الموثوقة التي لا يعتد بها . هي التي تحير القضاة أحيانا .

وكان الإضطهاد في أسبانيا أقل قساوة . ففي مقاطعة لجرانو ووجهت محكمة التفتيش الإتهام إلى ٥٣ شخصا من المشتغلين بالسحر ، وأعدت منهم ١١ شخصا (١٦١٠) ورفضت الإتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو إنتقامية . وكان الحكم بإعدام السحرة نادرا . وفي ١٦١٤ أصدرت رئاسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى إعتزافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية ، وأن يستعملوا الرأفة في العقوبة (١٤) .

واجتاحت جنوب شرقي فرنسا في ١٦٠٩ موجة عاتية من الذعر من السحرة ، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حملت فيهم . وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا في النباح وعينت لجنة من برلمان بوردو لمحاكمة المشتبه فيهم وأبتدعت طريقة لإكتشاف المواضع التي دخل منها الشياطين إلى جسم المتهم ، ذلك بصب عيفيه وغرز الأبر في لحمه ، وأي مكان لا يحس فيه بوخز الأبر ، كان هو المكان الذي دخل منه الشيطان . وطامعا في العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضا . فحُكِمَ منهم ثمانية وهرب خمسة ، وأحرق ثلاثة . وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العفاريبت على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا (١٥) . وفي اللورين أحرق ٨٠٠ شخص بتهمة السحر على مدى ١٦ عاما . وأحرق في سترامبورج ١٣٤ شخصا في أربعة أيام (أكتوبر ١٥٨٢) (١٦) . وفي لوسرن الكاثوليكية ، أعدم ٦٢ شخصا فيما بين ١٥٦٢ — ١٥٧٢ . وفي برن البروتستانتية أعدم ٣٠٠ في السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر ، و ٢٤٠ في العقد الأول من القرن السابع عشر (١٧) .

وفي ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت في إعدام السحرة حرقاً . وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها ، ولو أنها لا تكاد تصدق ، بأن رئيس أساقفة تريير أمر بإحراق ١٢٠ شخصاً في فالزفي ١٥٩٦ بتهمة أنهم أطالوا فترة الجو البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية^(١٨) . ونسب طاعون الماشية في إقليم سكونو في ١٥٩٨ إلى السحرة . وحث مجلس بافاريا المخصوص في ميونيخ المحققين على إظهار مزيد من الجدية والصرامة في الإجراءات ، فكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحراً ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة^(١٩) . وفي هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة السحرة في عامي ١٧ - ١٦١٨ وقيل أنه في ١٦٢٧ - ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة^(٢٠) . وفي ١٥٨٢ أصدر الناشرون البروتستانت من جديد ، وبموافقة منهم «مطرقة السحرة» التي كان المحققون قد اكتشفوا أنها كانت جاكوب سيرنجر قد نشرها في ١٤٨٧ ، وهي عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد في الكشف عن السحرة وفي محاكمتهم . وأصدر أوغسطس ناخب ساكسونيا في ١٥٧٢ قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً . وفي اللينجن أحرقت ١٥٠٠ من السحرة في ١٥٩٠ ، وفي اللوانجن ١٦٧ في ١٦١٢ ، وفي وسترسهتن ٣٠٠ في عامين^(٢١) . وكادت ثمة موجات مماثلة في أوسنابروك ١٥٨٨ ، ونوردلنجن ١٥٩٠ ، وفي ورتمبرج ١٦١٦ . على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة معروفة بعدم الدقة . ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف في ألمانيا في القرن السابع عشر^(٢٢) .

وأرتفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل . وقد رأينا في مكان آخر احتجاجات يوهان ويروريجنالد سكوت ، كما رأينا كيف تحول مونتيني مرحة المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) في مقاله «الأعرج أو الكسبيح» : «كم هو طبيعي ومقبول أن أجد رجلين يكذبان ، أكثر من أن رجلاً يمكن في اثنتي عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب ٠٠٠ أو أن يحمل

أحدنا على مكنسة خلال مدخنة (٢٣) ، أن من يؤمنون بهذا أحوج ما يكونون إلى الدواء والعلاج ، لا الموت ، وحتى إذا ما انتهى كل شيء ، فما هي إلا مغالاة في قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدي إلى أحراق المرء حيا ، (٢٤) . وهاجم كورنيليوس لوس ، الأستاذ الكاثوليكي في ماينز ، مطاردة السحرة في كتابه « بين السحر الحقيقي والزائف » (١٥٩٢) ، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره ، أودع السجن واضطر أن يعترف علنا بأخطائه (٢٥) . وثمة جزويتى آخر ، هو الشاعر الورع فرديريك فون سبي ، فإنه بعد أن عمل كاهن اعترف لماتتى شخص متهمين بالسحر . استنكر الاضطهاد في كتاب جرىء « Cautio Criminalis » . (١٦٣١) ، سلم فيه بوجود السحرة ، ولكنه رثى للقبض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها ، ولبعد المحاكمات عن شرعة الانصاف ، وللتعذيب الغاشم الذى كان يمكن أن يجبر ، حتى فقهاء الكنيسة وأساقفتها على الاعتراف بأى شيء (٢٦) .

ولكل خصم من هذا القبيل أثنى عشر محاميا ينبرون للدفاع عن الظلم ، فإن رجال اللاهوت البروتستانت مثل توماس أراستوس فى ١٥٧٢ ، ورجال اللاهوت الكاثوليك مثل الأسقف بنزفلد (١٥٨٩) انفقوا على أن السحر سقيم وأن السحرة يجب أحراقهم . وأقر الأسقف التعذيب ، واسكنه أوصي بشنق السحرة التائبين قبل أحراقهم (٢٧) . وأيد المحامى والفيلسوف الكاثوليكي جين بودين الاضطهاد والتعذيب فى كتابه « حى العقارب » ، ١٥٨٠ ، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتى يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له ، وانضم إلى بودين فى الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تدين (٢٨) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حدتها ، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حربا سياسية بشكل صريح سافر ، لم يعد الدين يحتمل مكانا هاما فى كراهيات الناس وحزاناتهم . وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب ، ونهضت

المدارس ، وفتحت الجامعات ، وأسهم المسكافون الصابرون سنة بعد أخرى ، بوضع لبنة في البناء الناشئ ، بناء العلم والمعرفة . وفي مائة من المدن مكف المحبون للاطلاع على اختبار الفروض بالتجارب . وتقلص نطاق ماهو خارق للطبيعة ببطء ، ونما نطاق ماهو طبيعي وديوى . أنه تاريخ موضوعى مجرد قائم ، مؤلف من شظايا ، وهو أعظم مسرحية في الأزمنة الحديثة .

٢ - انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرون الذين غدوا بحرى المداد الذى تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل ، ومن جيل إلى جيل . واستأنفت داراستين الكبيرة للذشر ، نشاطها في جنيف على يد هنرى استين الثانى ، وفي باريس بفضل روبرت استين الثالث . ونشأت أسرة مثل هذه (نحو ١٥٨٠) في ليدن كان على رأسها لويس الزفير ، ونهض أبناؤه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته ، بالعمل ، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة . وفي زيورخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة في تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس .

وهيات دور الكتب مأوى جديدا للذخائر القديمة . ولقد عرفنا مكتبة بودليان في أكسفورد ومكتبة الاسكوريال ، ومكتبة امبروزيانا في ميلان (١٦٠٦) . وضمت كاترين دى مديشى كثيرا من المجلدات والمخطوطات إلى مايعرف الآن بالمكتبة الوطنية . وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التى أسسها البابا سكستس الخامس (١٥٨٨) « هى أنعم وأجمل وأحسن مكتبة أثاثا في العالم » (٢٦) .

وبدأ ظهور الصحف : ففي ١٥٠٥ كانت صحيفة « الأخبار » تطبع في ألمانيا ، في ورقة واحدة ، بشكل متقطع . وما جاء عام ١٥٩٩ حتى كانت

هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع ، وكأها غير منتظمة . وأقدم صحيفة منتظمة معروفة في التاريخ هي صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التي أُمست في أوجزبرج ١٦٠٩ ، وكانت تصم تقارير لوكلاء منششرين في مختلف أنحاء أوروبا ، ينقلها التجار والصيارفة ، واستمرت في الظهور حتى ١٨٦٦ ، صحيفة « بريد فرانكفورت » التي أُمست في ١٦١٦ . وبدأت صحف أسبوعية بمائة في الظهور في فيينا ١٦١٠ ، وفي بازل ١٦١١ . وسرعان ما بدأ فيشارت يسخر من الجمهور « الذي يصدق الصحف » ومن تليفه الساذج على الأخبار . أن النقل المفروض غير الملائم الأبناء فوت على الجمهور أي أسهام رشيد مخطط في السياسة ، ومن ثم جعل الديمقراطية أمرا بعيد المنال .

وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية ، في العالم المسيحي بأسره : الكاثوليك والبروتستانت ، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفي ١٥٧١ شكلت الكنيسة « لجنة من السكرادلة لتحديد الكتب المحظورة » ، لحماية المؤمنين من الكتب التي تعتبر مسيئة للكنيسة . ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها ، ولكنها جادة مثابة مثلها . وقد نشطت في إنجلترا واسكتلندا واسكندناوة وهولندا وألمانيا وسويسرا^(٣٠) . وهيا تباين التعاليم في مختلف الدول للهرطقة أن يتغلبوا ، بشكل أو بآخر ، على الرقابة بنشر كتبهم في الخارج ، وإدخال بعض النسخ منها سرا . والآدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخيرية وظرف وبراعة .

وفي مختلف الترجمات ، ظل الكتاب المقدس يفسر بأنه « كلمة الله » ، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشارا ، وأعظمها أثرا في العقيدة واللغة ، يلي حتى في السلوك ، فإن أسوأ الأعمال الوحشية - الحروب والاضطهادات - عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها . ومذ انحسرت الروح الإنسانية التي تميز بها عصر النهضة ، قبل قيام الإصلاح

الديني ، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإعجاب الأعمى بالأدب الوثنية القديمة . و نارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لا يكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس ، ولكن علماء اللاهوت أوضحوا أن « الروح القدس » استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل - الأستاذ البروتستانتي للعبودية واللاهوت في « سومور » ، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق في النص العبري الذي اعتمده الكنيسة للعهد القديم (التوراه) ، إن هي إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهدا ، يهود طبرية المازوريون في القرن الخامس ق . م . أو بعده . وأن الحروف المربعة في النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية . وتوسل جوهانس بوكستورف الأكبر ، أعظم علماء عصره . إلى كابل أن يطوى هذه الآراء عن الجمهور ويحتفظ بها لنفسه ، حتى لا تسمى إلى إيمان الناس بالإيحاء اللفظي للكتاب المقدس . ومع ذلك نشر كابل آراءه في ١٦٢٤ ، وحاول يوهانس بوكستورف الأصغر أن يدحضها ويفندها ، محتجا بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك . واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط ، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلالا لدى الشعب .

ويذمى إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين في التاريخ . منهم جوستوس لبيوس ، الذي تردد على جامعتي لوفان وليدن ، وتأرجح بين السكاثوليكية والبروتستانتية وذاع صيته في أوربا بفضل طباعته المصوبة لكتاب تاسيتس وبلوتس وسنكا ، وتفوق على كل الأجروميات السابقة في كتاب « فن الأجرومية » (١٦٣٥) . ورثى لغناء المدينة الأوربية الوشيك ، واسكنه هدا من روعه واستبشر خيرا « بسطوع شمس امبراطورية جديدة في الغرب » - يعني « الأمر بكتين » (٣١) .

وورث جوزيف جوستوس سكاليجر « وربما كان أعظم أستاذ فذ في

سعة المعرفة والاطلاع ظهر في العالم (٣٢) ، نقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر ، عرش البحث العلمي في أوربا . ففى آجن في جنوب غربى فرنسا ، اشتغل بكتابة ما يمليه عليه هذا الوالد . ونهل العلم والمعرفة طوال حياته . فقرأ هو ميروس فى ثلاثة أسابيع ، ووفق فى قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق . وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى . وتجراً على دراسة الرياضيات والفلك و «الفلسفة» (التى كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام . وربما ساعدت دراسته للقانون على شحن ملكة النقد عنده ، لأنه فى الطبقات التى أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتولوس وتيبولوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقداً متعلقاً بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل أو التفسير . وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة فى دراسة التاريخ . وفى أعظم مؤلفاته « فى تصحيح التواريخ » (١٥٨٣) ، وأذن لأول مرة بين التواريخ التى أوردها المؤرخون اليونان واللاتين ، وتلك التى وردت أو حددت فى التاريخ أو التقويم أو الأدب فى مصر وبابل وفلسطين وفارس والمكسيك . وجمع ورتب فى كتابه « تسلسل التواريخ » . (١٦٠٦) كل مادة تاريخية فى الأدب القديم ، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمنى على أساس علمى للتاريخ القديم . وهو الذى قال بأن السيد المسيح ولد فى العام الرابع ق . م . وعندما ترك جوستوس لبسيوس ليدن فى ١٥٩٠ عرضت الجامعة على سكاليجر كرسي « الأبحاث القديمة » فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات متردداً فى قبوله . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته ١٦٠٩ ، كانت ليدن مقر العلماء .

وكان سكاليجر ، مثل أبيه مزهواً بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دلاسلكالافى فيرونا . وكان ناقداً لاذعاً لزملائه العلماء والباحثين ، ولكن فى ساعة تغاض وصفح قال إن إيزاك كازوبون «أعظم الأحياء علماء» (٣٣) . وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن . لقد رأى النور فى جنيف لأن أبويه

كانا من الهيجونوت الذين هربوا من فرنسا ، وعادا إليها وهو في سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاما في ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهاد . وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة في جيوش الهيجونوت . وغالبا ما اختفت أسرته في الجبال لتسكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين . وتلقى إيزاك أول دروس في اليونانية في أحد الكهوف في جبال دوفيني وفي سن التاسعة عشرة التحق بأ كاديمية جنيف . وفي سن الثانية والعشرين صار أستاذا في اليونانية ، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاما وسط العوز والفقر والحصار . وعاش بشق النفس على راتبه . ولكنه كان يفتقر في طعامه ليشتري الكتب . وكان يخفف من وحشية العزلة والعكوف على العلم ، بما يتلقى من رسائل سكاليجرا العظيم . ونشر طبعاات لمؤلفات أرسطو وبلييني الأصغر ، وتيوفراستوس ، سحرت الألباب في دنيا العلم والمعرفة ، لا بمجرد تصويب النصوص ، بل كذلك بالتعقيبات البارعة على الأفكار والطرق القديمة . وفي ١٥٩٦ عندما أحمد هنري الرابع الصراع الديني ، عين كازوبون أستاذا في مونبلييه . ودعى بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس . ولكن الجامعة أوصدت أبوابها في وجوه غير الكاثوليك ، فأحاطه هنري برعايته ، كأمين للمكتبة الوطنية ، براتب محترم قدره ١٢٠٠ جنيه في العام . وقال رجل الاقتصاد صلي للعالم كازوبون إنك تكلف الملك كثيرا ياسيدي . إن راتبك يفوق راتب قائدين ، ولا نفع يرجى منك لبلدك^(٣٤) . فلما مات هنري العظيم ، رأى كازوبون أنه قد حان الوقت لقبول دعوة من إنجلترا . ورحب به جيهس الأول بوصفه رفيق علم وبحث ومنحه راتبا سنويا قدره ٣٠٠ جنيه إنجليزي . ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته في أثره وأزعجه الملك بالأبحاث ، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز في لندن عدم تحذئه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها هناك ترك المعترك (١٦١٤) في سن الخامسة والخمسين . ودفن في وستمنستر .

وكان لقبه العالم ، في ذلك الزمان أكثر احتراما وتشريفا من الشاعر

أو المؤرخ . فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته
الدؤوبة حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة في الآداب والفلسفة
القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها . ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول
الأمير الفاتح ، ولقى هناك ترحيبا كبيرا . وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب في أن
تحوذ كلود دى سوميز الذى عرفته الدنيا د عالما ، من أمثال سالامبوس وبعد
موت كلود بون أجمع العالم بأسره على أنه د أعلم الأحياء في ذلك الزمان ، وأنه
بصفة عامه معجزة الدنيا (٣٥) . فإذا فعل هذا العالم ؟ إنه ولد في برجندى ، وتلقى
تعليمه - وتحول إلى الكلفنية - في هيدلبرج . وفي سن العشرين تألق نجمه
في نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنين من كتاب القرن الرابع عشر عن
سلطة البابوات العليا المتنازع عليها ، وبعد ذلك بعام واحد ، نشر د خلاصة
عن النبات ، . وتوالت الكتب بعد ذلك ، حتى بلغت في جملتها ثلاثين كتابا
تميزت كلها بسعة الاطلاع وتناول كل ألوان المعرفة . وبلغ الذروة في كتاب
ضخم مكون من ٩٠٠ صفحة على نهرين بعنوان د أمثلة في تعدد جوانب الثقافة
والمعرفة ، (١٦٢٩) . وكان سولينيوس ، وهو أحد النحاة في القرن الثالث -
قد جمع في موسوعة تاريخ البلاد الأوربية الكبرى ، جغرافيتها وأعرافها البشرية
واقتصادها ونباتها وحيوانها ، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه د ثقافة
متعددة الجوانب ، ثم جاء سالامسيوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة
تشمل كل رومه الإمبراطورية . وكان امامه أن يختار بين اثنتى عشرة دعوة
وجهت إليه ، فاختار الأستاذية في ليدن ، ثم عين في المحال رئيسا لسلكية عظيمة
وسارت الأمور سيرا حسنا ، حتى كلفه شارل الثانى ملك انجلترا الذى كان
متغيبا آنذاك في هولنده ، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول
وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول في نوفمبر ١٦٤٩ بعد إعدام الملك بنحو
عشرة أشهر . ولم يرق الكتاب في عيني كرومويل ، واستأجر أعظم شعراء
انجلترا للرد عليه . وسنعود للكلام عليه مرة أخرى . وكتب سالامسيوس
ردا على ملتون ، ولكننه مات (١٦٥٣) قبل أن يتمه . ونسب إلى ملتون
نيل القضاء عليه .

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة ، بينما ظل ٨٠٪ من سكان أوروبا الغربية أميين . وقضى جون كومنيوس أربعين عاما يكافح في سبيل النهوض بخطط التعليم في أوروبا . ولد كومنيوس في مورافيا (١٥٩٢) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط لإيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته ، فإن رأس الحكمة مخافة الله . وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية في زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا ، فإنه بقي على إخلاصه لفلسفة التسامح في الوحدة الأخوية .

نحن أبناء عالم واحد ، يجرى في عروقنا دم واحد . وأنه لمن أشد الحقاقة أن نضمر البغض والكراهية لإنسان لأنه ولد في قطر آخر ، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا . أو لأن له رأيا مخالفا لنا في هذا الموضوع أو ذلك . إنى لا توصل إليكم أن تكفروا عن هذا ، فإننا بشر متساوون في الإنسانية فليكن لنا جميعا هدف واحد وغاية واحدة ، هي خير الإنسانية جمعاء ، ولنطرح جانبا كل الأنازيات والآثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين^(٣٦) .

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية ؛ لخص كومنيوس مبادئه في التربية المثلى (١٦٣٢) وهو من أهم الكتب في تاريخ التربية . أولا : يجب أن يكون التعليم عاما ، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة . فيجب أن يكون في كل قرية مدرسة ، وفي كل مدينة كلية ، وفي كل مقاطعة جامعة ، ويجدر أن يكون التعليم العالي متاحا لكل من يثبت القدرة على متابعته ، وينبغي أن تتولى الدولة الإتفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها ، وتدريبها والإفادة منها . ثانيا : يجب أن يكون التعليم واقعيا ، بحيث تربط الأفسار في كل خطوة بالأشياء الملموسة ، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بأية لغة أجنبية ، عن طريق مشاهدة الأشياء التي تمثلها أو لمسها أو استخدامها

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية) . ثالثا : يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية . وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب في الهواء الطلق . ورابعا : ينبغي أن يكون التعليم عمليا ، وألا يكون حبيسا في سجن التفكير النظري ، بل مقرونا بالعمل والممارسة ، وأن يمهّد ويعد للنهوض بمهمة الحياة . خامسا : يجب تدريس العلوم تدريجيا ، بتقديم الطالب في العمر ، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمي في كل مدينة أو مقاطعة . سادسا : ينبغي توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وحث التقوى في الفرد ، وإلى إشاعة النظام والسعادة في الدولة .

وكان ثمة شيء من التقدم . فإن الأمراء الألمان جدوا في تأسيس مدرسة ابتدائية في كل قرية . ونادى دوق ساكس - ويمار في ١٦١٩ بمبدأ التعليم العام الإلزامي لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة^(٢٧) ، مع عطلة مدتها شهر في موسم الحصاد . وما وافى عام ١٧١٩ حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها . وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الأناث ، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها . وفتحت في هذا العصر اثنتان وعشرون جامعة جديدة * . وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون في ١٦١٣ ، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكانتهم الاجتماعية ، بالمقارنة بنظراتهم في القارة . ففي ١٦٠٠ كانت رواتب الأساتذة في ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجأوا إلى بيع الجعة والخبز احتيالا على العيش ، وكان الطلبة في جامعة يينا يشربون ويلهون في حانات يديرها الأساتذة^(٢٨) . وتدهورت الجامعات الأسبانية بعد فيليب الثاني ، وساءت

(*) في يينا ١٥٥٨ ، جنيف ١٥٥٩ ، ليل ١٥٦٢ . ستراسبورج ١٥٦٧ ، ليدن ١٥٧٥ هلمستد ١٥٧٥ ، ولنو ١٥٧٨ ورزبرج ١٥٨٢ أدنبره ١٥٨٣ فرانكر ١٥٨٥ جراز ١٥٨٦ ، دبلن ١٥٩٦ ، لوبيين ١٥٩٦ ، هردريك ١٦٠٠ ، جيبسن ١٦٠٧ ، جروننجن ١٦١٤ ، أمستردام ١٦٣٢ . دوريات ١٦٣٢ ، بودابست ١٦٣٥ أوترخت ١٦٣٦ نووكو ١٦٤٠ بمبرج ١٦٤٨ .

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش ، في الوقت الذي أسست فيه عدة جامعات أسبانية في مستعمرات أسبانيا في أمريكا - في ١٥٥١ ، في مدينة المكسيك ١٥٥٣ ، أي قبل افتتاح كلية هارفرد (١٦٣٦) بـ زمن طويل . وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات في تلك الحقبة . وعندما نجحت ليدن في مقاومة الحصار الأسباني (١٥٧٤) ، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهالي البلدة ، ليدن ، ليروا رأيهم فيما يمكن أن يكافأوا به ، فطالبوا بإنشاء جامعة ، وكان لهم ما أرادوا . وكانت السلطات الدينية تسيطر على أمور التعليم في الأقطار الكاثوليكية والكلفنية . وفي إنجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة . وفي كل الجامعات تقريبا ، باستثناء بادوا ، كان مطلوبا من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمي ، وكانت الدولة والكنيسة كملتاهما تحدد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة . وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات ، فانحصرت الطلبة الأسبان في أسبانيا ، ولم يعد الطلبة الإنجليز يلتحقون بجامعة باريس . وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية الموافقة على مواد الكنيسة الرسمية التسع والثلاثين . ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات ، والنس ملبجا في الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية .

وهكذا قامت في هذا العصر أكاديميات خاصة ، لارقيب عليها ، للدراسة والبحث ، وخاصة في مجال العلوم . وفي رومه ، في ١٦٠٣ أسس فدريجوسينزي ، مركز هرتبلو د أكاديمية ذوى البصر الحاد ، التي التحق بها جاليليو ١٦١١ ، وحدد دستورها هدفها :

إن جامعة ذوى البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحقة ، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة ، وبخاصة الرياضيات ، ولن تهمل في الوقت

نفسه أو تزيف مناهجها بالأدب والدراسات اللغوية الجميلة التي يزدان بها ، بوصفها حلما وجواهر كريمة ، نطاق العلم بأكمله ، وليس في خطة هذه الأكااديمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات ويجدر بها أن تغضى في عدوه وصمت عن كل الخلافات السياسية . وعن أي لون من المهارات الكلامية (٣٩) .

وحدث هذه الجامعة ١٦٣٠ ، ولكن في ١٦٥٧ واصلت السير على نهجها أكاديمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان) . وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا . حتى يتسنى للروح العلمية الملهمة في العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث .

٣ _ أدوات العلم ومناهجه

كان لزاما ، منذ البداية ، أن تكون هناك آلات علمية . فما تستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كاف ، على مسافة بعيدة ، أو بأشياء بالغة الدقة . إلى الحد المطلوب ، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأشياء أو حرارتها أو وزنها . وما يستطيع العقل أن يقيس المسافة والزمن والكمية والنوعية والكثافة دون أن يخاطب بين توازنه الشخصي وبين الحقائق ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب) ، والمقرب (التلسكوب) ، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر) . ومقياس الثقل النوعي للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية .

كتب جامباتستا دالابورتا في « سحر الطبيعة » (١٥٨٩) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح ، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحا في معالمها ، فإذا عرفت على أية حال ، كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم ، لأمكتك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة واضحة معا (٤٠)

تلك كانت القاعدة التي بنى عليها المجهر ومنظار الميدان ومنظار الأوبرا ، والمقراب ، أى أنها مجموعة من المخترعات ، وكلها متنوعة الأنسجة . وكان المجهر البسيط . أى العدسة المحدبة الواحدة ، معروفة لأمديتويل . أما الاختراع الذى حول البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذى يجمع بين عدة عدسات لامة . ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة فى الأراضى الوطيفة وعاش سينيوزا عليها ومات بها . وحوالى ١٥٩٠ جمع صانع النظارات المدعو زخارياس جانس ، فى مدلبرج ، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة ، ليضع أقدم مجهر مركب معروف : وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث .

وجاء بعد ذلك تطبيق آخر لهذه القواعد تحول علم الفلك . ذلك أنه فى ٢ أكتوبر ١٦٠٨ قدم صانع نظارات آخر فى مدلبرج ، هو هانز لبرشى . إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التي مازالت فى حرب منغ أسبانيا) وصفا لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة . إن لبرشى وضع عدسة مزدوجة محدبة والعدسة الشيئية ، على الطرف البعيد من أنبوبة ، وعدسة مزدوجة مقعرة العينية ، على الطرف القريب . وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافأوا لبرشى بتسعمائة فلورين . وفى ١٧ أكتوبر أثبت رجل هولندى آخر - جاكوس متيوس ، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحى تفكيره هو ، آلة مماثلة . وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقراب) الخاصة فى بادوا (١٦٠٩) ، التي كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها ، وتلك هى الآلات التي كبر بها العالم . وفى ١٦١١ اقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل ، إذا عكست أوضاع العدسات فى اختراع جاليليو ، باستخدام العدسة المحدبة فى العينية ، والمقعرة فى الشيئية . وفى ١٦١٣-١٦١٧ صنع الجرويتى كرسنوف شينر ، على هذا الأساس ، مقرابا تلسكوب ، أفضل ، بيد أنه أدخل شيئا من التحسين على ما كان معروفًا من قبله (١) .

وفي الوقت عينه ، وعلى نفس الأسس التي كانت معروفة لدى «هيرو» ،
السكندري في القرن الثالث الميلادي أو قبله ، كان جاليليو قد اخترع
(حوالي ١٦٠٣) مقياسا للحرارة (ترمومتر) . بأن وضع الطرف المفتوح
لأنبوبة زجاجية في وعاء من الماء ، وكان طرفها الثاني عبارة عن بصيلة زجاجية
(ممتفخ الترمومتر) فارغة ، عمدا إلى تسخينها بلامستها ليديه . فلما سحب يده
بردت البصيلة ، وارتفع الماء في الأنبوبة . وفي ١٦١٣ قسم جيوفاني ساجريدو ،
صديق جاليليو ، الأنبوبة إلى مائة درجة .

وجاء أفانجلستا تور شللي ، أحد تلاميذ جاليليو ، فأحكم سداد أحد
طرفي أنبوبة طويلة ، وملاها بالزئبق ، وأوقفها بظرفها المفتوح مغمورة في
وعاء به الزئبق ، فلم يفيض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء . وأرجع علماء الفيزياء
هذه الظاهرة إلى «اشتمزاز الطبيعة من الفراغ» . وأرجعها تور شللي إلى ضغط
الهواء المحيط على الزئبق في الوعاء . وعللها بأن الضغط الخارجي لا بد أن يرفع
الزئبق في الوعاء إلى الأنبوبة الخالية المفرغة من الهواء . وأثبتت التجربة صحة
ما ذهب إليه . وأوضح أن التغييرات في ارتفاع الزئبق في الأنبوبة يمكن
استخدامها مقياسا للتغيرات في الضغط الجوي ، ومن ثم صنع في ١٦٤٣ أول
مقياس للضغط الجوي (البارومتر) الذي لا يزال الآلة الأساسية في الأرصاد
الجوية .

ومنذ تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة ، فإنها اتجهت إلى الرياضيين
تسألهم طرقا أفضل للحساب والقياس وللتدوين بالعلامات والرموز واستجاب
نايير وييرجي - كما عرفنا - لهذا النداء باللوغاريتمات ، وأترد بالمسطرة
الحاسبة ، ولكن كانت ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض
آراء أو مقترحات اجتهادية قدمهدت الطريق ، كما هي العادة . فإن الكاشي السمرقندي
(المتوفى ١٤٣٦) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها
هي : ٣,١٤٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، وهذا كسر عشري - مستخدما مسافة

ببعض بدلا من النقطة ، أى العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح . ثم جاء فرانسيسكو بللوس من مدينة نيس ١٤٩٢ فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة فى رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد ، هى « الطريقة العشرية » (١٥٨٥) عرض فيها كيف « تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تودى كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون كسور ، و نفذ « النظام المترى ، فى قارة أوروبا أفكاره فى قياس الأطوال والأحجام والعملة . ولكن الدائرة والساعة أقرتا بفضل الرياضيات البالية ، فاحتفظنا بالقسمة الستينية .

وفى ١٦٣٩ نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطى . وأحيا فرانسوا فيير الباريسى دراسة علم الجبر التى كانت قد ضعفت ، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستيق ديكارت فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية فى ومضة من مضات الالهام ، حين اقترح التعبير على الأعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن إيضاح التناقض المستمر فى قيمة العملة فى فترة معينة فى رسم بياني إحصائي) ؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلا هندسيا ، يمكن جبريا استخراج نتائج تثبت صحتها هندسيا ، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة . واقتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة أسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (٤٢) . أن هندسته التحليلية ونظرية كافا ليرى عن « غير القابل للانقسام أو التجزئة » (١٦٢٩) وتربيع لبلر التقريبي للدائرة . وقياس روبرفال للنخط المنحني ، وتورشلى وديكارت ، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام ليبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاصيل والتكامل .

وبانت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هي أدواتها . ولحظ كبير أن العقل إذا هجر « علمة الكمية ، فإنه يهيم في متاهات الظلام والشك » (٤٣) . وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد « الفلسفة الطبيعية » أو العلوم :

ان الفلسفة مدونة في هذا السفر الضخم ، ألا وهو الكون الذى يقف دوما مكشوفاً أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء . ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا ، أول الأمر ، كيف نعى اللغة ونقرأ الحروف التى تتألف منها . أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات (٤٤) ،

وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية .

وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهى الفلسفة . لقد هن كتفيه لأرسطو غير مبال به . وأدار ظهره للميتافيزيقا متجها نحو الطبيعة ، وطور وسائل التمييز لديه ، وسمى لتحسين حياة الانسان على الأرض . أن هذه الحركة تنتسب إلى قلب عصر العقل ، ولكنها لم تؤمن كل الايمان ولم تثق كل الثقة « بالعقل الخالص » - أى العقل المستقل عن التجريب والاختبار . وم من مرة ضل مثل هذا التفكير ، ونسج خيوطا واهية مضللة . أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها . ومهما قال المنطق ، فيجدد العلم ألا يتقبل الا ما يمكن قياسه كمياً ، والتعبير عنه رياضياً ، واثباته بالتجربة

٤ - العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام فى تسلسل منطقي ، خلال التاريخ الحديث :

الرياضة والفيزياء في القرن السابع عشر، والكيمياء في الثامن عشر، والبيولوجيا في التاسع عشر، وعلم النفس في القرن العشرين.

والشخصية البارزة في تلك الحقبة هي جاليليو . ولكن تمة أبطال كثيرين أقل شأنًا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينوس في تحديد قوانين البكرة والرافعة ، وأجرى دراسات قيمة في ضغط الماء ، ومركز الجاذبية، ومتوازي أضلاع القوى ، والمستوى المائل . وحوالي ١٦٩٠ في دلمت ، استبق جاليليو في تجربته المزعومة في بيزا ، حيث أوضح - على خلاف الاعتقاد القديم - أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا في الوزن ، يسقطا معا من عل فإيهما يصلان إلى الأرض في وقت واحد^(٥٥) . ووضع ديكارت قانون القصور الذاتي ، في صيغة بالغة الوضوح - وهو أن أى جسم يظل في حالة الجمود أو في حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية . وسبق هو وجاسندي ، إلى نظرية الجزيئات في الحرارة . وأسس رسالته في « الأرصاد ، (١٦٣٧) على الكوزمولوجيا (علم الكويونات يبحث في أصل الكون وبنية العامة وعناصره ونواميده) التي لم تعد مقبولة ، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيرا في وضع أسس الأرصاد الجوية كعلم من العلوم . وتوسع تورشلي ١٦٤٢ في دراساته عن الضغط الجوي لتشمل ميكانيكا الرياح ، حيث ذهب إلى أن هذه هي التيارات الموازية التي تنجم عن الاختلافات المحلية في كثافة الهواء . أما جاسندي ، ذلك الرجل المشهور بالمهامه بكل العلوم ، فإنه تابع التجارب في قياس سرعة الصوت ، وتوصل إلى أنها ١١٤٣٧ قدما في الثانية . وأعاد صديقه الكاهن ، مارتن مرسن ، التجربة ، وقرر أنها ١١٣٨٠ قدما ، وهذا أقرب إلى الرقم السائد ، وهو ١١٠٨٧ ووضع مرسن في ١٦٣٦ السلسلة الكاملة للنتجات التوافقية التي يحددها سالك رنان .

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العريضة ، وبخاصة عند مشاهدتها في قوس قزح . وحوالي ١٥٩١ وضع ماركو أنطونيو

دى دومينيس رسالة في « الضوء » أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسى ، (وهو الوحيد الذى يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء فى السماء أو الرذاذ . وتكوين قوس قزح الثانوى (وهو قوس من الألوان فى ترتيب عكسى ، يرى أحيانا بشكل باهت ، خارج القوس الرئيسى) . على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكسين . وفى ١٦١١ عالج كبلر فى رسالة « الانكساريات » موضوع انكسار الضوء فى العدسات . وبعد ذلك بعشر سنين جاء ولبرورد سنل من ليدن ، وصاغ قوانين الانكسار فى دقة جعلت من الميسور اجراء حساب أدق لعمل العدسات فى الضوء ، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل . فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكى لزوايا الاشعاع فى قوس قزح . أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاما أن ينتظر بحىء نيوتن .

وأدى بحث جالبرت - الذى يعتبر بداية عصر جديد - فى الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب . واقترح فيمانوس سترادا عضو جمعية يسوع ، الارسمال البرقى (١٦١٧) ، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر ، من بعيد ، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لبرتين مغناطيسيتين وضعتا بحيث تشيران فى وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه ، وفى ١٦٢٩ أدلى جزويتى آخر ، نيقولو كايو ، بأول وصف عرفه العالم للتنافر الكهربى . وجاء عالم آخر هو أنناسيوس كيرشر ، فوصف فى كتابه « المغناطيس » (١٦٤١) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس فى إحدى كفتى ميزان ، ومقاومة تأثيره بوضع موازين فى السكفة الأخرى . وعزاديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزيئات التى تنفثها الدوامة الكهربى التى اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها .

وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لاتزال شائعة ، وخاصة كبديل ملكى لخفض قيمة العملة . فكان الامبراطور رودلف الثانى ، وناخبو سكسونيا

وبراندانبرج والبالاينيات ، ودوق برنزويك وكونت هس ، يستخدمون جميعا
أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة أو الذهب^(٤٦) . ومن هذه التجارب ومن
الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة ، ومن الحاح الطبيب الألماني
باراسلوس على الدواء الكيمياوى ، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل .
وكان أندريا ليبافىوس يمثل هذا الانتقال من الخيمياء ، إلى الكيمياء . وكان
مؤلفه د الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة ، (١٦٠٤)
استمرارا للسعى وراء المطلب القديم ، ولكن كتابه « الكيمياء » (١٥٩٧)
كان أول رسالة منهجية فى الكيمياء العملية الحديثة . واكتشف باراسلوس
كلوريد القصدير ، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم ، وكان من أوائل من
اقترح نقل الدم كعلاج . وكان معمله فى كوبرج إحدى عجائب المدينة . ووضع
جان بابتستافان هلمونت — وهو نيل ثرى أكب على العالم وصرف همه فى
تقديم الخدمات الطبية للفقراء — وضح اسمه بين مؤسسى الكيمياء بتمييز
الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها . ونحت لفظه د غاز ، من اللفظة
الأغريقية Chaos وحقق إكتشافات كثيرة فى مجاله المختار ، ابتداء من الغازات
المتفجرة فى البارود ، إلى امكانيات الاشتعال فى دريح الإنسان^(٤٧) ، واقترح
القلويات فى علاج الحوضنة المفرطة فى الجهاز الهضمى . وأوصى يوهان جلوبر
بيللورات سلفات الصوديوم للاستهمال كعلاج يمتاز من الظاهر أو من الباطن .
ولا يزال د ملح جلوبر ، يستخدم كملين . ان جوهر وهلمونت كليهما اشتغل
بالخيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية .

وأسهمت كل هذه « العلوم الطبيعية » فى تحسين الانتاج الصناعى ،
وأدوات القتل فى المحروب . وطبق الفينيون المعرفة الجديدة بالحركات والضعفوط
فى السوائل والغازات ، وتكوين القلوى ، وقوانين التذبذب ، ومسارات
الاسقاط والقذف ، وتنقية المعادن . واستخدم البارود فى تفجير المناجم (١٦١٣)
وفى ١٦١٢ اخترع سيمون ستورن تافانث طريقة لانتاخ لحم الكوك ، لتخليصه

من العناصر المتطايرة . فهذا « الكوك » له قيمته وأهميته في صناعة المعادن ، لأن شوائب الفحم العادى تصير بالحديد ، وقد حل محل الفحم النباتى وأتخذ الغابات . وقلت تكلفة صناعة الزجاج ، حيث عم استعمال زجاج النوافذ في ذلك العصر . وينمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية . لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت . ومن هنا فاننا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولبى في ١٥٧٨ ، واطار الحليك و الربط في ١٥٨٩ . والمسرح الدائر في ١٥٩٧ ، وآلة درس القمح وقلم الخبز في ١٦٣٦ .

وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الاعجاب حتى في أيامنا هذه ، فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هن رومه باقامة مسلة في ميدان القديس بطرس . وابتدع ستفينوس مهندس موريس ناسو ، نظام البوابات للتحكم في السدود — وهى حارسه جمهورية هولندة . واستخدم منفاخ ضخمة في تهوية المناجم ، والمضخات المعقدة في رفع المياه إلى أبراج لتضغمت المياه إلى البيوت والتافورات في المدن مثل أوجز برج وباريس ولندن وأنشئت قنطرة ترووس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهى أن المثلث لا يمكن أن يعدل شكله إلا بتغير طول أحد الجوانب . وفي ١٦٢٤ سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين في نهر التاميز^(٤٨) . وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دلابورتا ، وبيالموندى كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام ، وفي ١٦١٥ وضع كوز وصفا لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار^(٤٩) .

ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد ، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجودا ، وكانت دراسة الأرض تسمى « علم المعادن » وجمال النظر بعين الإجلال إلى قصة « الخلق » في التوايرة دون المقامرة بالبحث في نشأة الكون . ورمى برنارد هاليى بالزبدقة لإحيائه الفكرة القديمة التى تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة . وغامر فيكارت بالقول

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوماً كتلا متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نازمركزية داخلية، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل (٥٠).

وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر دياتهم أو التوسع في العلم والمعرفة أو التجارة . وفي ١٥٦٧ وما بعدها ارتاد الملاحون الأسيبان البحار الجنوبية، وكشفوا جزيرة جوادالكانال وغيرها من جزر سليمان - وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان . وزار المبشر البرتغالي بيكوياس (الذي أخذ أسيراً في الحبشة (١٥٨٨)، النيل الأزرق . وحل لغزاً قديماً بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب إلا فعل الأمطار في مرتفعات الحبشة. وواضح أن وللم جانسزون كان أول من وطئت قدماه أرض أستراليا (١٦٠٦). وكشف آبل تسمان تسمانيا ونيوزيلند (١٦٤٢) وجزر فيجي (١٦٤٣) ودخل التجار الهولنديون سيام وبورما والهند الصينية . ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين، وردت إلينا أساساً عن طريق المبشرين الجزويت . وبأمر من هنري الرابع ملك فرنسا ارتاد صمويل تسمانلن ساحل نوفاسكوشيا وصعد في نهر سانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك، وبنوا على الخريطة البحيرة التي تحمل اسمه .

وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جيرهارد كريمر) الذي درس في لوفان، وأسس محلاً لصنع الخرائط والأدوات العلمية والكسرات الأرضية . وفي ١٥٤٤ قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة، ولكنته تفادى العواقب الوخيمة، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعوة وجهت إليه من جامعة دوزبرج، حيث أصبح رساماً للخرائط لدى دوق جوليس كليهنز (١٥٥٩). وطوال حياته التي امتدت اثنين وثمانين عاماً، جهد مركيتور دون كلل أو ملل في رسم خرائط

للفلاندرز والورين وأوربا والأرض . وفي مؤلفه المشهور « الوصف الجديد
الدقيق للأرض وطرق الملاحة » (١٥٦٨) أدخل نظام « الأسقاط المركاتوري »
في الخرائط الذي أدى إلى تيسير الملاحة . بإظهار دوائر خطوط الطول موازية
بعضها لبعض ، ودوائر العرض خطوطا مستقيمة ، وكلتا المجموعتين من
الخطوط تشكل زوايا قائمة ، الواحد منها مع الآخر . وفي ١٥٨٥ شرع في
اصدار « أطلسه » الكبير (ونحن مدينون له بالفضل في استخدام هذا اللفظ) ،
محتويا على إحدى وخمسين خريطة ، في اتفاق ودقة لم يسبق لهما مثيل ، ووصف
فيها الأرض المعروفة آنذاك . ودخل صديقه أبراهام أورتل في مبارات معه
بكتابه « مدار الأرض » (أنتورب ١٥٧٠) . أن هذين الرجلين
كليهما حرر الجغرافيا من ارتباطها الألفي السعيد ببطليموس (الفلكي الإسكندري
في القرن الثاني الميلادي) ، ووضعها في شكلها الحديث . في بفضلها احتفظ
المولنديون بما يكاد يكون اختكارا تاما لصناعة الخرائط طيلة قرن
من الزمان .

ه - العلم والحياة

وكان على علم الإحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى
يتسنى الذروة ، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبيعية للأعشاب
العلاجية واستيراد النباتات الغريبة إلى أوربا وجلب المبشرون الجزويت
لحاء الشجر من بيرو (الكينين) والونيلية (نبات أمريكي استوائي ، الفانيليا)
والراوند . وأدخل البطاطس حوالي ١٥٦٠ من بيرو إلى أسبانيا ، ومنها انتشر
في أنحاء القارة . ووصف برسيرو ألبيني أستاذ علم النبات في بادوا خمسين نباتا
أجنيبا زرعت مجددا في أوزبا . ومن دراساته لتخيل البلح استدل على التكاثر
الجنسي في النبات الذي أوضحه تيوفراستوس في القرن الثالث ق . م . يقول
ألبيني : « إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمرا إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار
الذكور والأشجار الإناث بعضها ببعض ، أو كما يحصل عادة ، إلا إذا تناثر

الغيار الموجود في غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الاناث (٥١) .
وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقا لطرق تكاثرها ، ولكن الآن في
١٥٧٣ قدم أندريا سيسالينيو الفلورنسي أول تقسيم منهجي للنباتات ، ١٥٠٠
نوع منها - على أساس بذورها وثمارها المختلفة . وأورد جاسبار بوهين
(من مدينة بازل) في مؤلفه الضخم « جدول عالم النبات » (١٦٢٣) تصنيفا
لنحو ٦٠٠٠ نبات ، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك ليناؤوس من تصنيف
وتسمية ثمانية تبعا للجنس والصنف ، وقضى بوهين أربعين عاما في إعداد
« جدول النبات » ، ومات بعد سنة من صدوره ، وبقي مرجعا أساسيا لمدة
ثلاثة قرون .

وبدأت معشبات الأطباء الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها
الجامعات أو الحكومات للجمهور . وكان لأقدمها التي أسست في بيزا ١٥٤٣ ،
شهرة كبيرة أيام سيسالينيو . وأسس في زيورخ حديقة نباتية في ١٥٦٠ ،
ثم في بولونا وكاسل وايدن وليبنج وبرسلا وبازل وهيدلبرج وأكسفورد .
وفي ١٦٣٥ نظم جي دى لا بروس - طبيب لويس الثالث عشر - حديقة النباتات
الطبية ، المشهورة في باريس ، أما حدائق الحيوان ، بوصفها معارض للوحوش
لتسلية الجماهير ، فقد وجدت في الصين (١١٠٠ ق م) وفي رومه القديمة ،
وفي المكسيك أيام الأزتيك (حوالي ١٤٥٠) ، أما الطراز الحديث فقد افتتح
في درسدن في ١٥١٤ ، وفي فرساي في عهد لويس الثالث عشر .

ولقي علم الحيوان عناية أقل مما لقي علم النبات ، لأنه قدم علاجات أقل ،
الهم لإف الطب الأسطوري أو الخرافي ، وفي ١٥٩٩ شرع بوليس ألدروفاندى
في نشر ١٣ مجلدا ضخما في التاريخ الطبيعي ، وعاش حتى رأى ستة منها في
المطبعة ، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من مخطوطات المؤلف على نفقة
الدولة . ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون « التاريخ
الطبيعي » (١٧٤٩ - ١٨٠٤) . وابتدأ الجزويتى المتعدد الثقافات أنناسيوس

كيرشر علم الأنسجة العضوية بكتابته الذي وصف فيه (١٦٤٦) الديدان المتناهية الصغر التي وجدها مجهره (الميكروسكوب) في المواد المتعفنة . أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالدا تلقائيا من اللحم المتعفن أو الفاسد ، أو حتى من الطين ، كاد يكون سائدا تماما ، ولو أن هارفي كان على وشك أن يدحضه في كتابه « توالد الحيوان » ، (١٦٥١) . وكان علم الحيوان متخلقا ، لأن نفرا قليلا من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم في الإنسان ولكن في ١٦٣٣ كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر : « ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جدا ، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلا من التباين بين نبي البشر أنفسهم ^(٥٧) » . أن العقل الحديث كان يرتد يبطء إلى ما عرفه الاغريق قبل ذلك بألفي عام .

وآوى علم التشريح إلى شيء من الركود بعد جهود فيساليوس . وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة - كما فعل هو جو جروتيموس ^(٥٨) . ولكن « دروس التشريح » للكشيرة في الفن الهولندي تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل . والاسم اللامع هنا ، مثلما هو في الجراحة هو جيولامو فابريزو أكوابندانتي . تلميذ فلوريو وأستاذ هارفي . وفي أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى - وهي المبنى الوحيد المحفوظ به كاملا من تلك الحقبة ، إن اكتشافه للصبغات في الأوردة ، ودراساته في تأثيرات الأربطة قادتا هارفي إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل في الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللي للأوعية اللمفاوية التي تنقل الكيلوس الشبيه باللبن (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة . والحق أن أسللي ، على الرغم من اسمه « الجحش الصغير » وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفي نظريته بست سنين . وكان اندريا ميديسينو قد شرح النظرية الأساسية (١٥٧١) قبل هارفي بنصف قرن . وظل يتعلق بالفكرة القديمة ، وهي أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب ، ولاكنة

أقرب ، أكثر من هارفي ، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك لإنها معارك العلم .

٦ - العلم والصحة

وفي هذا النضال من أجل العلم والمعرفة ، كانت المعركة الأساسية هي معركة الحياة ضد الموت ، وهي معركة خاسرة على الصعيد الفردي ، ظافرة بانتظام على المستوى الجماعي . وكم للأطباء والمستشفيات ، في نضالهم لعلاج الأمراض والآلام ، من أعداء بشريين في القذارة الشخصية ، والقذارة العامة ، والسجون الكريهة الرائحة والمثيرة للاشمئزاز ، والدجالين وجرعاتهم السحرية ، والمتصرفين العلميين ، ومعالجي الفتق ، ندبي الحجارة ، ومعالجي اعتياد عدسة العين ، وخالعي الأسنان ، هواة تحليل البول . وسارت الأمراض الجديدة في سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة .

وكان مرض الجذام قد اختفى ، وقللت الوسائل الوقائية من الإصابات بمرض الزهري ، وكان فالوبيو قد اخترع (١٥٦٤) غلافات من السكتان لإتقاء عدوى هذا المرض . (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل ، وكان يباع لدى الحلاقين والمومسات أو أصحاب المواخير^(٥٤)) . ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى والمالاريا والدفتريا ، والاسقربوط والانفلونزا والجدرى والدوسنتاريا ، ظهرت في تلك الحقبة في عدة أقطار في أوروبا ، وبخاصة ألمانيا . وثمة احصاءات قد يكون مبالغاً فيها ، بأن الوفيات بلغت ٤٠٠٠ من الطاعون الدملي في بازل ١٥٦٣-١٥٦٤ ، وأن ٢٥٪ من سكان فريبورج - أم - بريزوماتوا بالطاعون ١٥٦٤ ، و ٩٠٠٠ في ردمستوك ، و ٥٠٠٠ في فرانكفورت ١٥٦٥ ، ٤٠٠٠ في هانوفر ، و ٦٠٠٠ في برونزويك^(٥٥) ١٥٦٦ وعزا السكان المذعورون مثل هذا للطاعون إلى دس البسيموم عمداً . وفي فرانكشتين في سيليزيا أحرق ١٧ شخصاً

أحياء حتى الموت (الاشتباه في أنهم دسوا السم^(٥٦) . وكانت وطأة الطاعون الدملي شديدة جدا في فرانكفورت في ١٦٠٤ حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفى للقيام بدفن الموتى^(٥٧) . وتلك مبالغاة واضحة ، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملي في إيطاليا ١٦٢٩ - ١٦٣١ مات في ميلان ٨٦ ألفا ، وفي جمهورية البندقية ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف ، وفيما بين ١٦٣٠ - ١٦٣١ كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص في جنوب إيطاليا وحده^(٥٨) ، وقلما سار معدل الانجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الخيلة في إزهاق الأرواح . وضوعفت آلام الوضع بتزايد عدم جدواه . وكانت نسبة الوفيات في الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر^(٥٩) وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين .

وكانت الصحة العامة آخذة في التحسن ، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعليم الطب يصطبغ بالثبوت والصرامة - ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية . وكان في بولونا وبادوا وبارزلوليدن ومونيليه وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوروبا الغربية . وأمامنا مثال فذ من البحث الضبي الدؤوب طيلة ثلاثين عاما من التجارب حاول بها سائكتور يوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظم كمية . وأنجز قدرا كبيرا من عمله بينما كان جالسا إلى مائدة على ميزان كبير ، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل ، بل إنه وزن العرق نفسه . ووجد أن جسم الإنسان يخرج بضعة أرطال يوميا عن طريق التنفس العادي . وانهى إلى أن هذا شكل جوهرى من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد . واخترع مقياسا طبييا للحرارة (١٦١٢) وآخر للنبيض ، ليعاون هذا وذلك في تشخيص الأمراض .

وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة . ووصف بمض مشاهير الأطباء ، كعلاج ، الضفادع المجففة تخاط في كبس يعلق على الصدر ، كصيدة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم في المناطق المصابة بالطاعون^(٦٠) . وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم ، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء ، على أساس أن بعض السائل الداخلى إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير ملوث . وكانت ثمة مدرستان للعلاج تنبيران على الفريسة ، وهو المريض : مدرسة العلاج الميكانيكى التى نشأت عن آراء ديكارت التى تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية ، ومدرسة العلاج الكيمياءى التى بدأها باراسلسوس ، وطورها هلمونت . والتى تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيميائية . وكانت المعالجة المائية العلمية شائعة . وكانت المياه العلاجية موجودة فى باث انجلترا ، وفى سبا فى الأراضى الوطیئة ، وفى بلومبيير فى فرنسا ، وفى أماكن أخرى كثيرة على الراين وفى إيطاليا ، وقد رأينا موتينى يجرب العلاج بالمياه فى هذه الأماكن ، ونثر حصى السكلى طوال الطريق . وأدخل إلى أوربا عقاقير جديدة ، مثل الناردين (حوالى ١٥٨٠) ، والانتيمون (الأتمد) حوالى ١٦٠٣ ، وعرق الذهب (١٦٢٥) ، والسكينين (١٦٣٢) . ودون دستور الصيدلة والأدوية فى انجلترا (١٦١٨) نحو ١٩٦٠ عقارا . ويذكر موتينى علاجات خاصة ادخرها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين

القدم اليسرى لسلحفاة ، بول السحلية ، روث الفيل ، كبد حيوان الخلد ، الدم المستخرج من الجناح الأيمن لحمامة بيضاء . وبالنسبة للمصابين بحصى السكلى مثلئى ٠٠٠٠ روث الفأر المسحوق ٠٠٠ وغير ذلك من السخافات التى توحى بالسحر والتعاويد أكثر منها بالعلم الجاد^(٦١) .

وكانت مثل هذه العلاجات التافهة الغريبة باهظة التكاليف إلى حد مثير وكان الناس فى القرن السابع عشر يثنون من أثمان الدواء أكثر مما يضحون من أجور الأطباء^(٦٢) .

وترك طب الأسنان للحلاقين ، وكان يقوم في معظمه على الخلع . وكان بين « الحلاقين الجراحين » آنذاك جماعة من المحترفين المهرة ، من أمثال امبرواز بارى ، فرانسواروست ، اللذين أحيا الخلع القيصري ، وجسبارو طليبا كوتسى المتخصص في إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفة ، من لدائن البلاستيك ، وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل في صنع الله ، ونبشت رفاة من الأرض المطهرة ، ودفنت في أرض غير مقدسة (٦٣) . وكان ولهم فبرى « أبو الجراحة فى ألمانيا » أول من أوصى ببتز العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب . وأورد جيوفنى كول أقدم وصف معروف لعملية نقل الدم (١٦٣٨) .

وامتعض المرضى من أجر الطبيب ، كما هو الحال فى كل العصور . وسخر الممثلون الهزليون من ردائه الطويل وحذائه الاحمر ، ومن رزائنه ووفاره وهو إلى جانب فراش المريض ، وإذا كان لنا أن نصدق هجوم الممثلين الهزليين الفكاهيين ، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تغلو كثيرا من مرتبة المعلم ، ولكننا لو رجعنا إلى تاريخ درس التشريح ، لمربرانت ، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة فى المجتمع ، قادرة حتى على الاسهام فى لوحة عظيمة . أن أعظم فلاسفة ذلك العصر ، الذى كان يحلم ، كما يحلم كل منا ، بمستقبل أفضل للبشرية ، فكسر فى تحقيق حلمه على أساس تحسین الخلق الانسانى والنهوض بالعلوم الطبية ، بوصفهما أكثر العوامل ملائمة لمثل هذه الثورة ، وفى هذا يقول ديكارت : « إن العقل نفسه يعتمد كثيرا على سلامة أعضاء الجسم وتمظيم أداؤها لوظائفها ، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفتش عن وسيلة تزيد بها من عقل الانسان وقدرته ، فاعتقادي أنه ينبغى أن نلشمسها فى الطب والدواء ، (٦٤) .

٧ - من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له في خاتمة المطاف ، لأن أبطاله ، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة ، يشككون العناصر الرئيسية فيها .

أن نفس الكنيسة التي كان عليها أن تخرس جاليليو ، قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى في علم الفلك الحديث - ألا وهو إصلاح التقويم . أن مراجعة التقويم التي كان قد قام بها سوسينزايوليوس قيصر حوالي ٤٦ ق.م . أدت إلى زيادة السنة باحدى عشرة دقيقة و١٤ ثانية . ومن ثم فإنه في ١٥٧٧ تخلف التقويم اليولياني عن تعاقب الفصول بنحو ١٢ يوماً ، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة في المواعيد التي قصد لها أن تقع فيها . ولم من محاولات بذلت لإصلاح التقويم : في عهد كليمنت السادس ، سكستس الرابع ، ليو العاشر - ولكن نشأت عوائق جمّة ، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين . وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك . وفي ١٥٧٦ قدم إلى البابا جريجوري الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لوجي ججليو . وأحاله البابا إلى لجنة من اللاهوت والحامين ورجال العلم ، ومن بينهم الجزوي البافاري كرسوفر كلافيوس الذي اشتهر بتضليله في الرياضيات والفلك ، وواضح أن المخطط النهائي كان من صنعه . واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم في هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعي التي بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية . وفي ٦٤ فبراير ١٥٨٢ وقع البابا جريجوري الثالث عشر المرسوم الذي أقر « التقويم الجريجوري » في العالم الكاثوليكي . ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقائق الفلكية ، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر ١٥٨٢ ، أي أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر ، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم في حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية . وللتعويض عن الخطأ في التقويم اليولياني ، فانهم زادوا في سنوات القرون التي تقبل القسمة على ٤٠٠ ، يوماً في شهر فبراير ليصبح ٢٩ يوماً .

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالي في فرانكفورت (على نهر السين) وفي بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن موثني نفسه زيج وشكا، وهو الشديد الطمع في الزمن، فقال « إن ما عمد إليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجني إلى حد أني لا أكاد استرد عافيتي^(٦٥)، ولكن التقويم الجديد — الذي لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة ٣٣٣٣ سنة — أخذ بالتدرج يلقى قبولا في الولايات الألمانية في ١٧٠٠، وفي إنجلترا في ١٧٥٢، وفي السويد في ١٧٥٣، وفي روسيا ١٩١٨*).

وثمة تلكو شبيه بهذا حدث في ارتضاء وتقبل فلنك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه في إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لا على أنه حقيقة واضحة^(٦٦). ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كمانلا إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها^(٦٧). وتسايق اللاهوتين البروتستانت مع الكاثوليك عامة في إستنكار الطريقة الجديدة، ودحضها بكون وبودين على السواء^(٦٨). والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكيين في نصف القرن التالي لوفاة كوبرنيكس (١٥٥٣)، رفضها كذلك.

ولد تيكوبراهي في ١٥٤٦، في مقاطعة سكانيا التي كانت آنذاك ديمركية

(*) من الناحية المثالية كان يمكن تقسيم السنة إلى ١٣ شهرا في كل منها ٢٣ وما، مع يوم أجازة لا تاريخ له (أو يومين في السنة السكبيسة) في نهاية العام. ومن ثم يكون التقويم في الصحيفة الواحدة، مع بعض إشارات دواراة للدلالة على الشهر والسنة، نافعا لسكل الشهور إلى ما لا نهاية، حيث يقع كل يوم من أيام الأسبوع في نفس المواضع على مر الشهور والأعوام. ويمكن أن تنقسم سنة العمل إلى شهور متساوية وارباع متساوية. ولكن هذا، مع اشد الأسف قد يزعم القديسين ويوقمهم في حيرة.

وهي الآن في الطرف الجنوبي للسويد ، وكان أبوه عضواً في مجلس الدولة الدنمركي ، وأمه مديرة ملابس الملكة . أما عمه الثرى جورجني الذي انفطر قلبه غما لأنه لم ينجب أولاداً ، فقد اختطفه ، وتملق أبويه واسترضاها بكل الوسائل ، ابتغاء موافقتهما ، وهياً للطفل كل فرص التعليم ووسائله . وفي سن الثالثة عشرة التحق تيكونو بجامعة كوبنهاجن . وطبقاً لما ذكره جاسندي ، انجذب تيكونو إلى الفلك عندما سمع أحد المعلمين يناش موضوع كسوف شمس قادم . ولحظ حدوث الكسوف كما تنبأوا به ، وعجب لهذا العلم الذي بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ ، واشترى نسخة من كتاب بطليموس « المجسطي » . وأكب عاينها إلى حد أهمال سائر الدراسات . ولم يتخلى قط عن النظرة الهندسية التي تجلت في القرن الثاني من عصرنا .

وفي سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة ليبزج ، حيث درس القانون بالنهار ، ودرس النجوم بالليل . وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدي إلى انحطاط في الجسم وإنهيار في الأعصاب . ولكن تيكونو أصر وثابر ، وأنفق كل ما يحصل عليه في شراء الآلات الفلكية . وفي ١٥٦٥ مات عمه ، تاركا له ثروة كبيرة . وأسرع تيكونو ، بعد تسوية أموره ، إلى وتبرج ، لمزيد من الرياضيات والفلك ، ثم غادرها فراراً من الطاعون ، إلى روستوك ، وهناك اشترك في مباراة أطاحت بجزء من أنفه ، فاحذ أنفياً برافاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته . وانهمك في التنجيم ونبأ بموت سليمان القانوني ، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل^(٦٩) . وبعد كثير من التجوال في ألمانيا عاد إلى الدنمرك ، وشغل نفسه بالكيمياء . وأعادته إلى الفلك كشف نجم جديد في مجموعة ذات الكرمي (١٥٧٢) . أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتنقل ، وما كتبه عنه في أول مؤلف نشر له « النجم الجديد » ، أكسبها شهرة في كل أنحاء أوروبا . ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمرك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذي لا يليق بالدم الأزرق . وأذهلم

١٧-٣٠ الحضارة

تيكو بزواجه من بنت فلاحه . ويبدو أنه أحس بأن زوجة ورثة بيت بسيطة،
خير رفيق لفلكى منصرف بكليته إلى الفلك ، وأحسن صنو منفتح سمح
لرجل ذى أنف ذهبي .

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلكية في كوينهاجن ، فإنه اتخذ طريقه
إلى كاسل ، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى ١٥٦١ أول مرصد ذى
سقف دوار ، وطور يوست بوجى ساعة حائط ذات رصاص (بندول)
جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها فى دقة لم يسبق لها
مشيل . وامتلا تيكو حماسا جديداً أفعاد إلى كوينهاجن ، وأثار اهتمام فردريك
بمشروع لإقامة مرصد . فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس)
فى مياه السويد . وأجرى عليه راتبا كبيرا ، واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة
إلى موارده الخاصة ، أن يشيد هناك قصرأ وحدائق أطلق عليهما أورانيبرج
(مدينة السماء) ، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مرصد ومصنعا
لما تحتاج إليه من آلات . ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب) ، حيث كان
لابد من انتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه - على أن أرصاد تيكو
هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد .

وطيلة لإحدى وعشرين سنة فى جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من
المادة ما يفوق فى حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل . وسجل كل يوم ،
وأعدة سنوات ، حركة الشمس الظاهرية ، وكان من أوائل الفلكيين الذين
أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات ، ولذلك عاود
أرصاده وملاحظاته مرات ومرات . وكشف عن التغيرات فى حركة القمر
ووضعها فى صيغة قانون . وأدى به تدقيقه الشديد فى تفقد أحد المذنبات فى
١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم الآن ، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية
تتحرك فى مدارات محددة منتظمة ، بدلا من كونها تنشأ فى الغلاف الجوى
للارض . وعندما نشر تيكو الثبت الذى جمعه عن ٧٧٧ نجما ، وحددها
بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة فى مكتبته ، فإنه بذلك برر حياته .

وتوفى فردريك ثانياً في ١٥٨٨ . وكان الملك الجديد طفلاً في الحادية عشرة ، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبرا على غرور تيكو براهي وحدته وإسرافه . كما فعل فردريك من قبل . وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت في ١٥٩٧ . فمادر تيكو الدنمرك ، وأستقر به المقام في قلعة بناتك ، بالقرب من براغ ، ضيفاً على الإمبراطور رودلف الثاني الذي أمل في الحصول منه على نبوءات تنجيمية . وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيمن ، وأعلن عن مساعد . لجأه كبلر (١٦٠٠) ، وعمل مع سيده للذي يصعب التعامل معه وإرصاده ، عملاً متقطعاً ، ولكنّه كان مخلصاً فيه . وفي الوقت الذي كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التي جمعها بنظرية معقولة عن السموات ، دهمه وهو جالس إلى المنضدة أفندجار في المائة ، وبقي يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوماً ثم فارق الحياة (١٦٠١) . وهو حزين على عدم إتمام عمله . وقال خطيب الجنائز أنهُ «لم يطمع في شيء سوى الوقت (٧٠)» .

٨ - كبلر : ١٥٧١ - ١٦٣١

كان أنتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم ، لأن كبلر ورث أُرصاده وملاحظاته ، واستنتج منها قوانين الكواكب التي مهدت لنظرية نيوتن في الجاذبية . وبمجمعت ، من براهي إلى كبلر إلى نيوتن ، ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن ، خطوط أساسية لتكوين علم الفلك الحديث .

ولد كبلر في فيل Weil بالقرب من شتتجارت، وكان أبوه ضابطاً في الجيش، طالما خرج للحرب مؤثراً ميدانها على حياة المنزل ، وأخيراً عاد وافتتح حانته اشتغل يوهان نذلا فيها . وكان الصبي سقيماً معتل الصحة ، شل الجدرى يديه وأضعف باستمرار بصره . وآس منه دوق روتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظاً فاضلاً . فتولى الاتفاق على تعليمه . وفي توبنجن ، حول ميكائيل ما ستلان الذي كان يقوم بتدريس فلك بطليموس - حول كبلر سرّاً إلى

نظرية كوبر نيكس . وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفسير في أى عمل كنسى .

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبلر مدرسا في ستيريا ، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل ١٥٠ جلدن في العام ، مع مسكن بالمجان ، يضاف إلى هذا ٢٠ جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمي سنوى . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج كبلر من سيدة فى الثالثة والعشرين ، كانت قد شيعت زوجها لها إلى مثواه الأخير ، وانفصلت عن زوج ثان ، وقدمت له هذه السيدة مهراً وأتت إليه بابنة ، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن . وبعد سنة من الزواج أرغم كبلر على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيا (١٥٩٧) ، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيًا صميما فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده . وكان كبلر قد اقترف إثما آخر بنشره « الكون الخفى » (١٥٩٦) الذى دافع فيه بحجارة عن نظرية كوبر نيكس ، وأرسل نسختها منه إلى تيكو وجاليليو وملافى عونهما . وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع ، انقضت دعوة تيكو لإياه إلى براج . ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وارضائه . ولقى كبلر عنتا فى العقيدة وفى كسب العيش . وأنتاب الزوجة مرض عصبى . بعد ذلك توفى تيكو ، وعين كبلر خلفا له براتب سنوى قدره ٥٠٠ فلورين .

وكان تيكو براهى قد أوصى لكبلر بسجلاته ، وام يورثه آلاته . ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات ، فإنه وجد نفسه مسوقا إلى دراسة أرساد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئا . وما كان له أن يقول مع نيوتن « إني اخترع فروضا ، بل على العكس . امتلأ رأسه بالفروض وبات بهمهم بها ، « عندى ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات الخيال » (٧١) . وكانت مهارته الفذة تكمن فى اختبار الفروض . كما تمثلت حكمته وعقله فى طرحها جانبا ، إذا ثبت أن النتائج التى توصل إليها رياضيا ، لا تتماشى مع الظواهر التى رصدها أولا حظها (٧٢) . وفى محاولته لتعيين مدار المريخ جرب ٧٠ فرضا على مدى أربع سنوات .

وفي آخر الأمر في ١٦٠٤ توصل إلى كشفه الأساسى الممتاز الذى فتح عصرأ جديدا - وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص ، وليس دائرة ، كما ظن الفلكيون ابتداء من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبر نيكس . فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذى ينسجم مع الأرصاد المتكررة التى قام بها تيكو وغيره . وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل : ماذا لو كانت مدارات كل الكواكب على شكل قطع ناقص ؟ وبأذن إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة ، فاتفقت معها اتفاقا يكاد يكون تاما . وفى رسالة باللاتينية عن حركات المريخ « الفلك الجديد وحرركة المريخ » . (١٦٠٩) نشر أول قانونين من « قوانين كبلر ، أولهما : أن كل كوكب يدور فى مدار على شكل قطع ناقص ، الشمس إحدى بؤرتيه ، والثانى أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس ، لا كلما ابتعد عنها ، وأن نصف القطر الذى يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع ، فى دورانه مسافات متساوية فى أزمنة متساوية ، وعزا كبلر الاختلافات فى سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التى يحسها الكوكب كلما اقترب من الشمس ، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جلبرت فكرة الجذب المغناطيسى وهى قريبة جدا من نظرية نيوتن فى الجاذبية .

وعند موت الامبراطور رودلف (١٦١٢) انتقل كبلر إلى لنز ، وطاد ثانية إلى العيش على التعليم فى المدارس ، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة . وفيما كان يزود بيته الجديد بالخر ، افتتن بالصعوبة التى لقيها فى تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية . وساعد البحث الذى نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر) .

وبعد أن فكر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيرا عميقا فى إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه ، نشر فى كتابه « تناسق الكون » ، (١٦١٩) قانونه الثالث ، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يتناسب مع الجذر التكعيبي

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك . أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه ١٠٨٨ من زمن دورة الأرض ، ومربع هذا هو ٣٠٥٣ والجذر التكعيبي لهذا هو ١٠٥٢ ، أى أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصبح ١٠٥٢ من المسافة بين الأرض والشمس . وكان لكبير أن يتهج أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة في المدار بنغمة على السلم الموسيقي ، و انتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت « تناغم النجوم ، الذى لا تسمعه ، على أية حال ، إلا روح ، الشمس . ومزج كبير عليه بالتصوف موضحا مرة أخرى مقالة جوته الكريمة . إن عيوب الإنسان هي أخطاء زمانه ، على حين أن فضائله هي من عنده . ويمكن أن نفتخر غروره حين كتب في مقدمة « تناسق الكون » ،

أن ما وعدت به أصدقائي في عنوان هذا الكتاب . . . وما أثرته منذ ١٦ عاما كموضوع يستحق البحث . وهو الذى من أجله انضمت إلى تيكوبراهي . . . وهو الذى خصصت له أحسن سنى حياتي . . . قد أخرجته اليوم إلى النور . . . لم تمض بعد ثمانية عشر شهرا حين سقطت الشمس المشرقة على . . . ان يعرفنى شيء ، سوف أطلق العنان لثورتي المقدسة . . . إذا غفرتم لى فلسوف أبتهج . . . ولئن غضبتم فلسوف أحتمل غضبكم . . . سبق السيف العذل . لقد وضع الكتاب ، وليس يهمنى كثيرا أن يقرأ الآن ، أو أن تقرأه الندارى والأعقاب ، ولم لا ينتظر قرنا ليجد فارنا ، كما انتظر « الله ، الاله ستة آلاف عام حتى وحد مستكشفا (٧٢) .

وفي « خلاصة فلك كوبر نيكس » (١٦١٨ - ١٦٢١) أوضح كبير كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبر نيكس ، فقال « لقد شهدت من أعماق نفسى بأنها صحيحة ، وإنى لأتأمل جمالها فى ابتهاج غامر لا يكاد يصدق (٧٤) ، ووضعت الرسالة فى عداد الكتب المحظورة لأنها تمت

عن أن نظرية كوبرنيكس كانت قد أثبتت . ولم ينزعج كبلر ، وهو البروتستانتى الورع . وعاش لفترة قصيرة في بحوحة من العيش وسط التهليل والتصفيق . وكان بصفة عامة يتقاضى راتبه بوصفه فلكى الامبراطور ، ومن بريطانيا النائبة دعاه جيمس الأول (١٦٢٠) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكى ولكنه رفض الدعوة خشية أن يعانى من أن يصبح حديسا في جزيرة (٧٥) .

وشارك كبلر أهل زمانه في الإيمان بالسحر ، واتهمت أمه بممارسته . وادعى بعض اليهود أن ماشيتهم ، بل أنهم هم أنفسهم ، قد اتنابتهم العلل لمجرد أن دفر وكبلر ، قد مستهم ، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابتها البالغة من العمر ٨ سنوات قد أصابها سحر أم كلر بالمرض ، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادل بإبراء البنت . وأنكرت المرأة المتهمة كل ما نسب إليها ، ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبلة في الأغلال ، ودافع عنها كبلر في كل مراحل نظر الدعوى . واقترح المدعى العام في الولاية أن ينتزع عنها الاعتراف بالتعذيب ، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمة فيه ، ولكنها ظلت تؤكد براءتها . وأفرج عنها بعد أن قضت في السجن ثلاثة عشر شهرا . ولكنها ما لبثت أن ماتت (١٦٢٢) .

أن هذه المأساة بالاضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك ، ملأت سنى كبلر الاخيرة بالغم والقنم . وفي ١٦٢٢ احتلت القوات الامبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعا . وفي وسط هذه الفوضى وأصل كبلر صياغة أرصاده وملاحظاته ، وأرصاد تيسكو وغيره من الفلكيين وملاحظاتهم ، وتدوينها في « الجداول الرودفية » التي ضمت وصنفت ١٠٠٥ نجما ، وبقية ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان . وفي ١٦٢٦ انتقل إلى أولم . وأبطأ به راتبه الامبراطورى ولاقى عنتا شديدا في الانفاق على أسرته . وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجما ، فكان له ما أراد ، وظل لعدة سنوات يتبع القائد يحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية . وقصد في ١٦٣٢ إلى رجنز برج يلتمس من الديت أن يدفع له رواتبه المتأخرة .

واستنزفت الجهود مابقى له من قوى جسمية ، فإنتابته الحمى ، وأودت بحياته في أيام قلائل (١٥ نوفمبر ١٦٣٠) وهو في التاسعة والخمسين من العمر وقد طمست الحرب كل معالم قبره .

وكانت رسالته في تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن . وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية ، وبالتخلي عن الانحرافات وأفلاك التدوير ، وفي وضعه الشمس في إحدى بؤرتي القطع الناقص ، لافي مركز دائرة . وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التي كادت تهرر رفض نيكوبراهي لها . وعن طريقه بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر إنتشاراً واسعاً . وحول ما كان مجرد حدس براق ، إلى فرضية مصوغة في تفصيل رياضي . وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التي قادتته إلى نظرية الجاذبية . وعلى حين احتفظ كبلر بعقيدة الدينية راسخة لا تتزعزع ، أظهر أن الكون كيان له قانون ، ونظام كامل متغامم متناسق ، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هي نفسها النجوم . وهو يقول ، أن كل ما أصبوا إليه أن أدرك كنهه الذات الألهية . فأنى أجد الله في الكون الخارجى مثلما أجد في داخلي أنا ، (٧٦) .

٩ - جاليليو : ١٥٦٤ - ١٦٤٢ :

١ - الفيزيائي :

ولد جاليليو جاليلي في بيزا يوم وفاة ميكلانجو (١٨ فبراير ١٥٦٤) ، في نفس العام الذي ولد فيه شكسبير . وكان أبوه فلورنسيا مثقفاً أسهم في تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى . ولم يكن من قبيل العبث أن يكون جاليليو ، على وجه الدقة تقريباً ، معاصراً لمتفردى (١٥٦٧ - ١٦٤٣) لأن الموسيقى كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة ، وبخاصة في سنى شيخوخته التي فقد فيها بصره ، فعزف على الأرغن عزفاً جديراً بالاكبار والتقدير ،

وعزف على العود عزفاً جيداً . وأحب الرسم والتصوير ، وأبدى في بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فناناً . وفي إيطاليا العجيبة التي قضى فيها شبابه ، ظل تيار النهضة يلفح الوجوه موحياً إلى الناس بالسكال . وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالاً أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة^(٧٧) ، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله ، وإنما نتحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت . وكان يمكن تحت أى الظروف على اختلافها ، أن يكون مثل هذا الانسان رجلاً عظيماً في أية ناحية من النواحي . ونزع جاليليو في صباه ، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الآلات واللعب بها .

وأرسل وهو في السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة . وبعد سنة واحدة أنجز كشفه العلمي الأول - وهو إن تأرجحات البندول ، بصرف النظر عن إتساعها ، تستغرق نفس الوقت . وباطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدل ذبذبته حتى تزامنت مع نبضه ، وبهذه « البلسياوجيا » (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة .

وحوالى هذا الوقت اكتشف أفليدس ، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغللمان دوق تسكانيا الأكبر ، فبدأ له أن منطلق الرياضيات أسمى ، بما لا يقاس ، من الفلسفة الاسكولاستية (الفلسفة النصرانية في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو ، اللتين تلقاهما في قاعة الدرس فانصرف خفية ، وفي يمينه « مبادئ » ، إقليدس ، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم ، ولقنه الدروس سرا . وفي ١٥٨٥ ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة ، وتوجيه من المعلم انصرف في ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا . وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزاناً هيدروستاتياً ليقدر الأوزان النسبية للمعادن في سيبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويقي لبحث في مركز الجاذبية في الأجسام الصلبة . وفي تلك الأثناء انحطت موارد أبيه ، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

فتقدم بطلبات للتدريس في بيزا وفلورنسة وبأدوا ، فرفضوا تعيينه لصغر سنه وفي ١٥٨٩ ، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسميان للحصول على عمل في القسطنطينية وفي الشرق ، نمت إلى عنده خلوكرسى الرياضيات في بيزا . فتقدم لشغله ، وهو قليل الرجاء في الحصول عليه . وكان بعد في الخامسة والعشرين . وعين في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره ٦٠ سكودي في العام . وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعا . ولكنه استطاع أن يكشف عن نشاطه وجلده .

لقد اشتد عوده إلى حد كبير ، فبدأ لفوره ، من منصة التدريس ، في شن الحرب على فيزياء أرسطو . لقد قال الإغريق د بأن الحركة إلى أسفل لأية كتلة من الذهب أو الرصاص أو أى جسم آخر يهبط نتيجة تنقله ، أسرع بالنسبة لحجمه^(٧٨) . وذهب لكريشيس^(٧٩) وليونارد ودافنثي^(٨٠) إلى هذا الرأي . وفي الأزمنة القديمة نفسها ناقش هبارخس (حوالى ١٣٠ ق . م) رأى أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل ، . وذهب يوانس فيليبونس (٥٣٣) وهو يعلق على أرسطو د إلى أن الفرق الزمنى بين سقوط جسمين وزن أحدهما ضعف وزن الآخر ، هو لا شيء البتة ، أو أنه فرق ضئيل جدا لا يمكن^(٨١) ادراكه وهنا نأتى إلى قصة مشهورة ، ولو أنها محل نزاع ، وردت أولا في سيرة حياة جاليليو ، التي كتبها صديقة فنشيزو فيفيانى في ١٦٥٤ (بعد ١٢ عاما من وفاة جاليليو) ، مدعيا أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه .

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم ، حين أثبت جاليليو أن كثيرا جدا من النتائج التي استخلصها أرسطو ، زائفة ، عن طريق التجارب والبراهين الدامغة . . . من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة واحدة ، ولكن مختلفة الوزن ، ومتحركة في نفس الوسط لا تحتفظ بالتبادل بتناسب وزنها . كما قال أرسطو . ولكنه أثبت أنها تتحرك بنفس السرعة . مد للاعلى ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا ، بحضور

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة... أنه عزز مكانة كرسى التدريس وحظى بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده (٨٢).

أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئا عن تجربة بيزا في كتاباته الباقية . كما أنه لم يرد ذكرها فيما دونه لإنان من معاصرة في ١٦١٢ و ١٦٤١ عن تجاربهما الخاصة بهما في إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل (٨٣) ورفضت قصة فيفياني على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين في ألمانيا وأمريكا . وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة في بيزا استاءوا . وترك هذه الجامعة في صيف ١٥٩٢ ، وربما كان السبب في ذلك أنه عرض عليه مركز أعلى ومرتب أكبر ، فراه في سبتمبر أستاذا في بادوا يدرس الهندسة والميكانيكا والفلك ، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه طلبته وأصدقائه . وتجنب الزواج ولكنه اتخذ عشيقته أنجبت له ثلاثة أطفال .

ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب ، في كتابه «محاورات حول علمين جديدين ، وذلك في أيامه الأخيرة ، قبيل وفاته ، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا وأثبت عدم قابلية المادة للفناء . وصاغ قواعد الرافعة والبكرة . وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطا مطلقا تزيد بنسبة

(*) إن كتابات أرسطو هي في الغالب ملاحظات موجزة ، ربما توسع فيها أو عدلها في محاضراته . وربما قصد بقطمة «De Coelo» أنه في وسط مقاوم ، بما في ذلك الهواء الطلق ، تسقط الأشياء ذات الكتلة المكثفة مثل قطعة النقود ، أسرع ما تسقط الأشياء ذات الحجم الكبير والوزن الصغير مثل قطعة الورق . وهذا بطبيعة الحال صحيح . ولكن في فراغ ، تسقط قطعة النقود والورقة أو كرة من الرصاص وريشة ، بنفس السرعة . بل أنه حتى في الهواء الطلق ، فإن قطعة الورق إذا تفصنت في كتلة متضامة تسقط بنفس السرعة التي تسقط بها العملة تقريبا . وإذا لحظنا التعديل في بيان فيفياني أن الأشياء يجب أن تكون من نفس المادة . . . وأن تسقط في نفس الوسط ، فإن الهوة بين فيلسوف اليونان وعالم بيزا تضيق كثيرا .

منتظمة . وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة ، وحاول أن يبرهن على أن أى جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوى ما يمكن أن يصعد على مستوى مماثل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه . لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى . وانتهى إلى قانون القصور الذاتى (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) — وهو أن أى جسم متحرك، يستمر بشكل غير محدود فى نفس الخط وبنفس معدل الحركة ، ما لم تتدخل معه قوة خارجية^(٨٤) وأثبت أن أية قذيفة تدفع فى اتجاه أفقى تسقط إلى الأرض فى منححن قطعى مكافئ . يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية . وحول العلامات المرسقية إلى مسافات موجبة فى الهواء ، وأوضح أن درجة النخم تعتمد على عدد الذبذبات التى يحدثها الوتر المعزوف فى وقت محدد . وقل بأن النغمات تبدو متوافقة متألفة إذا طرقت الذبذبات الآذان فى انتظام لإقاعى^(٨٥) . إن خواص المادة لا تكون إلا للمادة التى يمكن معالجتها رياضيا — التمدد ، الوظيفة ، الحركة الكثافة . أما الخواص الأخرى — الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها ، فإنها تستقر فى الشعور فقط ، فإذا فنيتم المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت^(٨٦) ، وراوده الأمل فى أن هذه الصفات الثابوتية ، يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية للمادة والحركة ، ويمكن قياسها رياضيا^(٨٧) .

وتلك إضافات أساسية ثمرة للعلم ، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية . ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء فى سقوط الأجسام والقذائف . ولكن ما من رجل ، منذ أرشميدس ، أدى للفيزياء مثلما أدى جاليليو .

٢ — الفلكى :

كان جاليليو ، فى أخريات أيام إقامته فى بادوا ، يخصص جزءا أكبر فأكبر من وقته للفلك . وفى ١٥٩٦ كتب إلى كبلر (الذى يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه « الكون الخفى » ، جاء فيها : —

لأنى لأعتبر نفسى سعيدا لأجد فى شخصك زميلا عطيا مثلك ، فى بحثى عن الحقيقة . . . وسأعكف على قراءة كتابك تحدفنى كل الرغبة فى استيعاب ما فيه ، لأنى كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس ، ولأنه (أى الكتاب) يكشف لى عن أسباب كثير من الظواهر الطبيعية البالغة الإبهام والى لا يمكن فهم كنهها فى ضوء الفرضية المقبولة عامة . ودخضا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة . ولكنى لا أنشرها ، حيث يشينى عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذى حظى لى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة ، ولكن لقى تجربا واستنكارا من كثرة لا يحصى عديدها (لأن عدد الأغبياء كبير جدا) . وقد أنجاسر على نشر تأملاتى إذا كثر أمثالك (٨٨) .

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس فى محاضرة ألقاها فى بيزا ١٦٠٤ وصنع فى ١٦٠٩ أول مقراب (تلسكوب) له ، وفى ٢١ أغسطس عرضه على السلطات الرسمية فى البندقية وإليك روايته فى هذه المناسبة : —

أن كثيرا من النبلاء وأعضاء السناتو ، برغم كبر سنهم ، صعدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة فى البندقية (سان مارك) لكى يروا الأشرعة والمراكب . . . وهى بعيدة جدا بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظارى المقرب . . . لأن تأثير آلتى يصل إلى حد أن أى جسم على مسافة خمسين ميلا . يظهر كبيرا كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط . . . إن السناتو الذى عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاما فى بادوا . . أصدر أمرا باختيارى للأستاذية مدى الحياة (٨٩) .

وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة . وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التى تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل . وشوهد أن المجموعات الآن تحتوى على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ورئى أن «بنات أطلس» ستة وثلاثون

بدلاً من سبع ، وأن « كوكبة الجبار ، ثمانون بدلاً من سبع وثلاثين ، وظهرت « المجرة » ، لا كتلة سديمية ، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة . ولم يعد القمر سطحاً أملس ، بل تغضن من الجبال والأودية ، ويمكن أن يفسر ضوءه في نصفه غير المواجه للشمس بأنه ، بصفة جزئية ، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض . وفي يناير ١٦١٠ اكتشف جاليليو أربعة من « الأقمار ، التسعة ، أو توابع المشتري . وكتب يقول : « هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جداً ، مثلما يدور حول الشمس ، عطارد والزهرة ، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة ^(٩٠) ، وفي يولية اكتشف دائرة زحل الذي ظنّه خطأ ثلاثة نجوم . وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس ، فلا بد أن يكون لها ، مثل القمر . أوجه - أي تغييرات في النور وأشكال ظاهرية ، وغالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغييرات . ولكن في ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه ، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس .

إننا لا نكاد نصدق ، ولكن جاليليو أكد في رسالة إلى كبلر ، أن أساندة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشف جاليليو ، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره ^(٩١) . لقد سئم الحياة في بادوا وتطلع إلى مناخ علمي أفضل في فلورنسه (التي كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابع المشتري اسم « سيديرا مديشيا ، وهو اسم كوزيمو الثاني دوق تسكانيا الأكبر وفي مارس ١٦١٠ أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (*Sidereus nuncius*) لخص فيها كشوفه الفلكية . وفي شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتبب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليونارد وللي دوق ميلان في ١٤٨٢ . وعدد فيها الموضوعات التي كان يدرسها ، والكتب التي يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج ، وتسامل هل في مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث . وفي

يونية عينه كوزيمو د كبر الرياضيين في جامعة بيزا ، وكبير الرياضيين في
والفلاسفة لدى الدوق الأكبر ، ، براتب سنوي قدره ألف فلورين ، دون
التزام بالقيام بالتدريس . وفي سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسه ، دون أن
يصطحب معه خليلته .

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضى على السواء ، لأنه أراد
أن يؤثر في الفلسفة والرياضيات كتيهما . وأحس ، كما أحس راموس وبرونو
وتلزيو وغيرهم من قبل ، وكما كان يدال بيبكون في نفس هذا العقد من السنين .
على أن الفلسفة (التي فهمها على أنها دراسة وتفسير للطبيعة في جميع مظاهرها)
قد ارتمت في أحضان أرسطو ، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين مجلدا
اليونانية ، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلافا وعبون وعقول مفتوحة .
أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة . د إني السكى أثبت لخصومي صحة
النتائج التي انتهيت إليها ، اضطررت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة . ولو أني
أنا وحدي لم أحس قط . بأنه من الضروري أن أفوم بتجارب كثيرة (٩١) .

وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبتكرون المجددون ،
ولو أنه تحدث أحيانا في تواضع حكيم ، د ما قابلت قط يوما رجلا جاهلا
إلا تعلمت منه شيئا (٩٢) . . وكان مجادلا عنيدا بأرعا في طعن غريمه بعبارة ،
أو سلقه بالسنة حداد . وعلى هامش كتاب للجزيوتى أنطونيو روتشو يدافع
فيه عن فلك بطليموس ، كتب جاليليو : « جاهل ، فيل ، أحمق . غبي ،
خصي (٩٤) .

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزيوت إلى إتهامه . وقل اعطداه بحكمة
التفتيش كان له أصدقاء كثيرون في د جماعة يسوع ، وعمد كريستوفر
كلافوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظاته هو نفسه . وأطنب جزويتى
آخر في مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين في ذلك العصر . وثمة لجنة من
الباحثين الجزيوت ، عينها الكردينال بلارمين لفحص كشف جاليليو ،

فككتيب تقريراً أيدت فيه كل النقاط^(٩٥) . وعندما قصد إلى رومه في ١٦١١
أكرم الجزويت وفادته على أنه « زميل روماني ، لهم . وكتب يقول :
« أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفصلي للكواكب
الجديدة ، وظلوا يرصدون رصدها لمدة شهرين ، وقارنا ملاحظتنا وأرصاداتنا
فوجدناها متفقة كل الاتفاق^(٩٦) » ورحب به كبار رجال الكنيسة ،
وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذي لا يتغير نحوه ورضاه
عنه^(٩٧) .

وفي أبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم في رومه نتائج
أرصاده التي كشفت عن وجود البقع الشمسية التي فسرها هو بأنها سحب . ومن
الواضح أن جاليليو كان يحجل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن
كشفها في بحثه « البقع الشمسية » (ويتبرج ١٦١١) ، واستبق جاليليو
فيما استخلصه من أن دورية ، البقع تدل على دوران الشمس ، وفي ١٦١٥
وجه كرسوف شينر أستاذ الرياضيات الجزويتي في انجلوستان ، إلى ماركوس
ولزر كبير القضاة في أوجزبرج ، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع
الشمسية في أبريل ١٩١١ . فلما عاد جاليليو إلى فلورنسه تلقى من ولزر نسخة
من رسائل شينر ، وناقشها في بحث له « ثلاث رسائل عن البقع الشمسية » ،
نشرته أكاديمية دي لنسي في رومه ١٦١٣ ، وزعم أنه رصد البقع في ١٦١٠ ،
وعرضها على الأصدقاء في بادوا . وفي ملحمة ادعاء السبق إلى كشف البقع
تخلخت أواصر الصداقة بين جاليليو والجزويت .

واقناعاً من جاليليو بأنه يمكن تفسير كشوفه على أساس من نظرية
كوبرنيكس ، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها . ولم يكن
لدى الفلاسكين اليسوعيين أى اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية . وأرسل
شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها :
« إذا أردت أن تتقدم بحجج مضادة فإنها لن تسمى إلينا فى شيء ، بل على

النقيض من ذلك ، إن كل هذا سيعيننا على إظهار الحقيقة (٩٨) . دوأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس . وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس . ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأمامية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقرا (كرسيا) دنيويا له — هذه الأرض التي يريدون اليوم أن يجردها من مكاتها السامية ومنزلتها الرفيعة ، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة ، وبين نجوم لا حصر لها ؟ .

٣ — في المحاكاة :

واجه جاليليو هذه المشكلة في عناد وتشدد . وفي ٢١ ديسمبر ١٦١٣ كتب إلى الأب كاستللي : د حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيراً يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلما يحدث عند تحدّثه عن غضب الله ، وبغضه وتأنّبه ويديه وقدميه) . فإنه يبدو لي ليس للكتاب المقدس كبير شأن في حال الجدل والمناظرات الرياضية وأعتقد أن العمليات الطبيعية التي ندرکها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة ، أو نستنتجها بالدليل المقنع . لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس (٩٩) . وانزعج الكاردينال بلارمين ، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين ، بعتاب قاس ، وكتب إلى فوسكاريني تلميذ جاليليو يقول : د يبدو لي أنه ينبغي أن أنصحكما ، أنت وجاليليو ، ألا تتحدّثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد ثبتت صحته) ، بل على سبيل الافتراض لحسب ، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكوس نفسه قد فعل من قبل (١٠٠) .

وفي ٢١ ديسمبر ١٦١٤ بدأ الهجوم توماسو كاتشيني ، وهو واعظ دومنيكاني ، اتخذ تورية بارعة من آية الانجيل د أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء ، (أعمال الرسل ١ — ١١) ومضى يوضح أن نظرية

كوبرنيكس تتعارض تعارضاً تاماً لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معارضون أقل شأناً بشكاوى إلى محكمة الأنفتيش ، وفي ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع كاسيني اتهاماً رسمياً ضد جاليليو في المحكمة ، فكتب المونسنيور ديني إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع في منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبرنيكس هو مجرد فرضية (١٠١) . وليكنه أفي ، كما قال ، لن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس . في رسالة نشرت في ١٦١٥ ، كتب إلى دوقه تسكانيا الكبرى يقول : « بالنسبة لترتيب أجزاء الكون ، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة في مركز دوران الأجرام السماوية * . على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس (١٠٢) ، ثم مضى يمشي في المرطقة :

« إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير ، ولا تتجاوز قط القوانين التي فرضت عليها . ولا تنكث في قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المبهمة . ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شيء طبيعي تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا ، أو تثبته لنا البراهين الضرورية ، ينبغي أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس ، التي قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ ، .

على أنه وعد بالامتثال للكنيسة :

إني أعلن (ولسوف يتضح صدق وإخلاص) لا مجرد أن أقصد أن أستسلم حراً مختاراً وأعترف بأخطائي التي يمكن أن أقع فيها في هذا النقاش ، نتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين ، بل أني كذلك لا أحب أن أدخل في نزاع حول هذه الأمور مع أي إنسان كان . . . وهدفي

(*) من سخرية التاريخ أن هذه قضية لا يؤمن بها اليوم أي فلكي ، وربما كان الفلك بأسره ، مثل التاريخ برمته ، يجب أن يؤخذ على أنه مجرد فرضية . وليس ثمة يقين من العالم الآخر ، كما أنه ليس ثمة يقين من الأمس .

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التي قد تكثر في بحث موضوع بعيد عن اختصاصي ، أي شيء يفيد الكنيسة المقدسة في اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس ، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به ، كما يحلو لرؤسائها ، وإلا فليمزق كتابي ويحرق . لأنني لا أفسد ولا أزعج أن أجنى ثمارا تجانبها التقوى والكشاكفة (١٠٣) .

ولكنه أضاف : د أني لا أشعر بأني مضطر إلى الإيمان بأن الله الذي أمدا بالاحساس والعقل والفكر ، قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامها والاتفاع بها (١٠٤)

وفي ٥ ديسمبر ١٦١٥ قصد إلى رومة من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوى النفوذ من المطارنة والأساقفة ، وإلى سفير فلورنسة في الفاتيكان . وفي رومة أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى ، وعرض نظرية كوبرنيكس كلها سنحت له فرصة وفي كل مناسبة ، وسرعان ما بات د كل فرد في رومة يبحث في النجوم (١٠٥) .
وفي ١٦ فبراير ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمين بأن يستدعي من يدعي جاليليو ويتذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة ، وفي حالة امتناعه . . . يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالافلاج عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها ، بل حتى مناقشتها ، فإذا لم يدع لهذا يودع السجن (١٠٦) . وفي اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاردينال بللارمين وأعلن امتثاله للأمر (١٠٧) . وفي ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخي :

إن الفكرة التي تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة ، وهي من الناحية الفلسفية فكرة زائفة ، وهي كذلك هرطقة لا جدال فيها ، لأنها تناقض النصوص المقدسة . والفكرة التي تقول بأن الأرض ليست مركزا للكون بل حتى أن لها دورة يومية ، زائفة من الناحية الفلسفية ، وأنها على الأقل اعتقاد خاطئ (١٠٨) .

وفي نفس اليوم حرمت « لجنة فهرست الكتب المنوعة » نشر أو قراة

أى كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة ، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس ، (١٥٤٣) فقد حظرت استخدامه حتى يتم تصويبه . وفي ١٦٢٠ أباح لكاثوليك قراءة الطبقات التي حذفت منها تسع عبارات كانت تثبت أن النظرية صحيحة .

وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسه وخطا إلى الدروس في داره « بللو سجادو » ، وكف عن الجدل حتى ١٦٢٢ . وفي ١٦١٩ نشر أحد مريديه ، ماريو جيدوتشى ، مقالا يجسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهى أن المذنبات عبارة من إنبثاقات فى الغلاف الجوى للأرض ، منتقدا بشدة آراء الجزويتى أورازيو جراسى فاكان من الخبر أو الأب الغاضب إلا أن نشرتحت اسم مستعار هجوما على جاليليو وأشياعه . وفى ١٦٢٢ أرسل جاليليو إلى المونسنيور شيزاريني فى رومه مخطوطة « للمحال » ، يرد به على جراسى وينبذ فى مجال العلم أى استشهاد أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة . وبموافقة المؤلف خفف أعضاء أكاديمية لندى بعض عبارات قليلة . وهذه الصيغة قبل البابا أريان الثامن أن يهدى إليه ، وأجاز طبعه (أكتوبر ١٦٢٣) أنه ألمع تأليف جاليليو ، وإحدى روائع النثر الايطالى والقدرة والبراعة فى الجدل والمناظرة . وقيل إن البابا سر به ، وأن الجزويت نصايقوا منه .

وما أن ظهر جاليليو بهذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى رومه (أول أبريل ١٦٢٤) أملا فى تحويل البابا الجديد إلى الايمان بأراء كوبرنيكس . وتلقاه أربان بالود والترحات - واستقبله ست مرات فى لقاءات طويلة ، وأغدق عليه الهدايا . واستمع إلى حجج كوبرنيكس ، ولكنه أبى أن يرفع حطر المحكمة . وفضل جاليليو راجعا إلى فلورنسه ، يعزبه تصريح أربان للدوق الأكبر : « لقد غمرنا بعطفه الأبوى لوقت طويل هذا الرجل العظيم الذى تتألق شهرته فى السماء كما تملأ الأرض (١٠٩) » . وفى ١٦٢٦ شد من عزم جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاستللى رياضيا للكبرى البابوى ، وتلميذ آخر هو الأب نيقولو رينشاردى كبير مراقب المطبوعات ، فسارع الآن لاستكمال

مؤلفه الأساسى ، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له . وفى مايو حمل المخطوطة إلى رومه ، وعرضها على البابا ، وحصل على ترخيص من الكنيسة بنشرها ، شريطة معالجة الموضوع على أنه فرضية . وعاد إلى فلورنسه حيث راجع الكتاب وأصدره فى فبراير ١٦٣٢ تحت عنوان طويل ومحاوره جاليل جاليليو حيث أنه فى اجتماعات دامت أربعة أيام ، نوقش فيها المنهجان الوئيسيان فى العالم : منهج بطليموس ومنهج كوبرنيكس مع عرض ، دون تمييز ولا تجديد ، للحجج الفلسفية والطبيعية الممنهجين كليهما ،

وربما جاب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل ، وكسب له شهرة ، لولا بدايته وخاتمته . تقول المقدمة : « إلى القارىء البصير الفطن ، :

منذ عدة سنوات نشر فى رومه مرسوم بابوى مفيد ، قضى — تجنبا للزعات الخطيرة فى عصرنا الحاضر — بفرض نطاق من الصمت المعقول على الرأى الذى نادى فيه فيتاغورس . والذى يقول بأن الأرض تدور . ومن الناس من ذكر فى توقع وصفاقه — أن هذا المرسوم لم ينبع من تحريات وتدقيقات تنسم بالحكمة وحسن التمييز ، بل عن هوى يتم عن قلة الدراية والمعرفة ، وتعالى الشكاوى بأنه يجدر الإيتاح للمستشارين الذين ليس لديهم أية دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضييق على ذوى العقول المفكرة المتأملة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة (١١٠) .

والحق أن فى هذا إشارة للقارىء بأن صيغة الحوار تنسم بالمرأوخة تملصا من محكمة التفتيش . وكان فى الحوار شخصيتان هما سلفياتى وساجريدو ، وهذان أسمان لائذين من أصدق أصدقاء جاليليو ، وهما يدافعان عن منهج كوبرنيكس ، وشخصية ثالثة — سمبلشيو ، يدحضه ، ولكن فى مغالطة صريحة واضحة ، وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة ، كان أزرمان الثامن قد أصر على إضافتها . وهى بالحرف الواحد تقرىبا :

« إن الله هو القوى وهو على شىء قدير ، ومن ثم لا يجوز أن تقدم المد

والجزر دليلا ضروريا على حركتي الأرض لأننا بذلك نجد من سعة علم الله وقدرته ، وعلى هذه العبارة يعاق سلفياتي تعليقا ساخرأ فيقول : « أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة ، (١١١) .

أن الجزويت اللذين تناولت « المحاورات ، كثيرا منهم في لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيمة تافهة ، ، أوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة ، فعين أريان لجنة لفحص الكتاب ، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة ، بل على أنها حقيقة ، وأنه حصل على الترحيص بدشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة ، وأضاف الجزويت إلى ذلك ، عن حكمة وبصيرة ، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطرا على الكنيسة من هر ظقات لوثر وكلفن . وفي أغسطس ١٦٣٢ حظرت المحكمة الاستمرار في بيع كتاب ، المحاورات ، وأمرت بمصادرة النسخ الباقية . وفي ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمشور أمام مندوب الحكومة في رومه . وتوسل أصدقاؤه إلى أولى الأمر أن تشفع له لديهم سقامه وشيخوخته (٦٨ عاما) ، ولكن على غير طائل . وبعنت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمثل للكنيسة ، كما نصحه الدوق الأكبر أن يدعن ، وزوده بمحفة الدوق الأكبر ، ودبر مع سفير فلورنسه أمر اقامته في السفارة . ووصل جاليليو إلى رومه في ١٣ فبراير ١٦٣٣ .

وانقض شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المشور أمامها (١٢ أبريل) هاتهم بنبقض عهده بالالتزام بقرار ٢٦ فبراير ١٦٣١ ، وحثوه على الاعتراف بذنبه ، فرفض محتجا بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية ، وظل سجينا في قصر المحكمة حتى ٣٠ أبريل ، وهناك اتنابه المرض ، ولم يعذبه ، ولكنهم ربما أشاعوا في نفسه الخوف من التعذيب . وفي مشوله الثاني أمام اللجنة اعترف في ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

إتحيانا إليه منه ضده ، وعرض أن يصحح هذا في حوار ، يلحق بالأول .
فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير . وفي ١٠ مايو أعادوا التحقيق معه ،
وعرض أن يكفر عن خطيئته ، ونوسل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلاله
صحته . وفي التحقيق معه للمرة الرابعة (٢١ يونية) أكد أنه بعد قرار ١٦١٦
« لم يعد يخاف من أى شك ، وآمنت ، ولا زلت أو من ، برأى بطليوس — أن
الأرض لا تدور ، وأن الشمس هي التي تدور — علي أنه حق كل الحق ، ولا
يقبل الجدل » (١١٢) ، فاعتصمت المحكمة بأن محاورات جاليليو اوضحت ،
بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه يقر آراء كوبرنيكس ، وأصر هو على أنه كان ضد
هذه الآراء منذ ١٦١٦ . وغال البابا على اتصال بالتحقيق ، ولو أنه لم يشهده
بشخصه . وكان جاليليو يأمل في أن يجد له أريان الثامن يد العون ،
ولكن البابا رفض التدخل . وفي ٢٢ يونيه أصدرت المحكمة قرارها بادانته
بالهرطقة والتمرد والعصيان . وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علنا
أمام الجمهور بالتخلي عن آرائه ، وحكمت عليه بالسجن في هذه المحكمة
لمدة تحددها هي وفق مشيئتها ، ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير
الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية ، وجعلوه يجثو ويرأمن
نظريه كوبرنيكس ، ويضيف :

بقلب مخلص ، وإيمان صادق ، أئمن وأبغض وأعلن التخلي
عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلى ، وبصفة عامة ، عن أى
خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها . . . الكنيسة المقدسة .
وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شىء قد يشير مثل هذه الريب
حولى ، وأنى إذا عرفت أى هرطيق أو أى شخص مشتبته
فى أنه هرطيق فلا بد أن أبلغ عنه هذه المحكمة وأدعو
الله أن يمنحنى العون ، وأرجو أن تساعدنى هذه الكتب المقدسة
التي أضع يدي عليها (١١٣) .

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة ، ولكن البابا لم يصدق عليه (١١٤) .
أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متحدياً ودمع ذلك فهي تدور
فعلاً . فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل ١٧٦١ (١١٥) . وبعد قضاء ثلاثة أيام
في سجن محكمة التفتيش ، سمح له ، بأمر من البابا ، بالذهاب إلى قصر الدوق
الأكبر في ترينتا موتى في رومه . ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح في قصر
تلميذه السابق ، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولوميني في سينا . وفي ديسمبر
١٦٢٣ . سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة في أروستري بالقرب من فلورنسه
أنه من الناحية العملية كان لا يزال سجيناً ، محظوراً عليه مغادرة مسكنه ،
ولكنه كان حراً في مواصلة دراساته . وتعليم تلاميذه ، وتأليف كتبه
واستقبال زائريه - وهنا زاره ملتون في ١٦٢٨ . وجاءت ابنته الراهبة لتقيم
معه . واحتملت هي نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة .

٤ - الشيخ الجليل :

واضح أن جاليليو كان الآن رجلاً متهدماً مغلوباً على أمره ، أذنته كنيسة
أحسّت بأنها وصية على عقيدة بنى البشر وآمالهم وأخلاقهم ، أن تخليه عن
آرائه بعد قضاء عدة شهور في السجن . وعدة أيام في المسائلة والمحاكمة ، بما
كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم إرادته ، نقول أن هذا
التخلي كان أمراً يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذكريته لإحراق
برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً ولكن في الواقع لم يهزم فقد انقشر كتابه
في كل أنحاء أوروبا في أكثر من عشر لغات ترجم لإيها . ولم يمح أثره .

وخفف من أحزانه وآلامه في سينا وفي أروستري اشتغاله بتلخيص أبحاثه
الفيزيائية في مؤلف ضخم آخر : دمحاورات ... حول علمين جديدين ، .
ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذي صدر
ضده ، فإنه أجرى مقاضات سرية مع طابعين أجنب ، وانتهى الأمر بأن مطبعة
الزفير أصدرت الكتاب في ليدن ١٦٢٨ . وهللت له دنيا العلماء على أنه سما

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل . وبعد صدوره ، عكف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق ، وأشار إلى ما جاء به نيوتن فيما بعد في قانونه الثاني عن الحركة . ويقول أول مؤرخي سيرة جاليليو : « في آخريات أيام حياته ، وفيما كان يعاني كثيرا من اعتلال صحته ، كان عقله مشغولا دوما بالمسائل الميكانيكية والرياضية^(١١٦) ، وفي ١٦٣٧ وقبيل أن يفقد بصره ، أعلن عن آخر كشوفه الفلكية ، نودان أوميسان القمر - تغيرات جانبه المواجه للأرض دائما . وفي ١٦٤١ ، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل ، شرح لابنه طريقة صنع ساعة ذات بندول .

إن اللوحة التي رسمها له سوسترمان في أسترى (والموجودة الآن في قاعة بيتي) هي العبقرية مجسمة : جبهة عريضة ، وشفتان مشاكستان مولعتان بالجدل والمناظرة ، وأنف دقيق ، وعينان حادتان ، نفاذتان ، وهذا وجه من أكرم الوجوه في التاريخ . وفقد الشيخ الحليل بصره في ١٦٣٨ . وربما كان التحديق المجهد سبب ذلك ، وكان يجد شيئا من العزاء في اعتقاده بأن أحدا من بني الإنسان من عهد آدم ، لم ير أكثر مما رأى هو ، فهو يقول : « إن هذا الكون الذي سمعت فيه وكبرته ألف مرة ، تقلص الآن وانحصر في نطاق جسمي الضيق ، هكذا أراد الله ، ولا بد أن أريد هذا أنا أيضا^(١١٧) . وفي ١٦٣٩ حين كان يعاني من الأرق ومن مائة من الآلام الأخرى رخصت له محكمة التفطيش في زيارة فلورنسه ، تحت مراقبة دقيقة ، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس . فلما عاد إلى أسترى ، أملى على فيفاني وتورشالي ، وعزف على العود حتى فقد سماعه كذلك . وفي ٨ يناير ١٦٤٢ ، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين ، فاضت روحه بين أيدي حواريه .

وأطلق عليه جروتوس د أعظم عقل في كل العصور^(١١٨) . وثمة شيء من القصور في العقل والخلق بطبيعة الحال . فأخطأوه - الغرور والزهو والانفعال والخيلاء - إن هي ببساطة لإعشرات مناقبه أو ثمنها : الثبات

الشجاعة ، الأصالة . ولم يعترف بأهمية حسابات كبلر في مدارات الكواكب وكان يتراخى في الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه ، وقلما تحقق . كم من كشافه في الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله . لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسه لإسمه ليوناردو . ولكن الآراء التي عوقب من أجلها ليست هي بالضبط ما يعتنقه الفلكيون اليوم ، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ — ولكنه لم يكن على خطأ في إحساسه بأنه خلق من الديناميكا علما كاملا ، وأنه وسع العقل البشرى وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها النسبية ، بفضل إبرازه ، بمقياس أكبر كثيرا عن ذي قبل ، أن الكون واسع سعة رهيمة . وشارك كبلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس ، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون . ثم أنه ، بوصفه من أفاضل أبناء عصر النهضة ، كتب أحسن نثر إيطالي في زمانه .

وانتشر أثره حتى عم كل أوروبا . أن إدادته هي التي رفعت مكانة العلم في البلاد الشمالية ، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة في إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم في إيطاليا ، فان تورشلي وكاسيني وبورللي وربدى ومالييجي وهورجاني حملوا المشعل إلى فولتا وجلفاني وماركوني ، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علققت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية في العلم . وبعد إعدام برونو حرقا وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو ، باتت الفلسفة في أوروبا احتكارا بروتستانتيا .

وفي ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المحطم المقهور على أقوى النظم في التاريخ .

الفصل الثالث والعشرون

١٥٦٤ - ١٦٤٨

الفلسفة تولد من جديد

١ - الشكا كون

في ظل صراعات الدول القومية ، والقوى الاقتصادية ، والأحزاب السياسية ، وتنوع المذاهب الدينية ، في غمرة هذا كله ، بدأت تشكل المسرحية الأساسية في التاريخ الأوربي الحديث ، وما هي إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظمت ، ضيق عليها الخناق واستنزفت قوتها ، العلم والطائفية والأيديولوجية والفلسفة . هل المسيحية في الطريق إلى الفناء ؟ أو هل الديانة التي أمدت المدنية الغربية بالأحلاق والشجاعة والفن تعاني انحلالاً بطيئاً ، بفعل انتشار المعرفة واتساع الآفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية ، والتحقق من الشر في التاريخ والنفس ، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة في حسن توجيه العالم ؟ . وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا هو الحديث الأساسي في الأزمنة الحديثة ، لأن الديانة هي روح المدنية ، والمدنية تفنى بغناء عقيدتها . ولم تعد القضية في نظر برونو وديكارت ، وهوبز وسبينوزا ، وبسكال وبل ، وهلباخ وهلفيش ، وفولتير وهيوم ، لبنتز وكانت ، قضية كاثوليكية ضد بروتستانتية ، بل قضية المسيحية نفسها ، قضية الشك والرفض والإنكار - لأعز الأساسيات في العقيدة القديمة . أن مفكرى أوروبا - وهم طلائع العقل الأوربي - لم يعودوا يناقشون سلطة البابا ، بل يناقشون وجود الله .

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر . إن مبدأ المحاكاة العقلية أو تكوين

رأى خاص ، وهو المبدأ الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية ، نادى به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريبا ، ثم شجبتة وأدانتها فيما بعد ، وفى الوقت نفسه قوض هذا المبدأ أركان العقيدة . أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضا ، وكأها ذرارى بالغة الكثرة ، وفضحت مطالب بعضها بعضا ، وتركت الديانة عارية فى مهب رياح العقلانية . وأهابت هذه الفرق والشيع لنصرتها فى أثناء صراعها ، الأسفار المقدسة والعقل كليهما . ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك فى معانيه وفى عصمته من الخطأ . وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان . وحقق الإصلاح البروتستانتي أكثر مما كان يصبو إليه . وأضربت بصورة خاصة ، حملات النقد الذى أنصب على الكتاب المقدس ، بالمذهب البروتستانتي الذى أقيم فى طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عند الله . إن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الناس ، خففت من الأرهاب والقسوة ، وأحس الناس أنهم لابد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف بما صوره لهم بولص وأوغسطين وليولا وكفن ، ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أمورا يمكن تصديقها ، وأجزت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم . وهيا نمو الثروة لا انتشار نزعة حياة ابيقورية التمس لها فلسفة تبررها . إن كارثة الحروب الدينية أنصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هى ضحيتها . إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعبادات والطقوس الآسيوية أثار مقارنات محيرة مزعجة بالمسيحية . ألم نسمع أرزم يدعو ويتوصل إلى « القديس مسقراط » ، ألم نر موتيني يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب ؟ وكشف تقدم العلم عن عمل « القانون الطبيعى » فى كثير من الحالات ، ومثال ذلك مسار المذنبات الذى رأت فيه الديانة يد العناية الآلهية . ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين اتهج وفاخر بها غير المثقفين . ثم هذه

الأرض التي تقول الأساطير الأثرية لدى العامة بأنها أحست «بأقدام الرب»، أليست كما الملح كوبرنيكس وجاليليو مجرد فقاعة ومرحلة قصيرة في هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الخاسدين الحاقدين الوارد ذكرهم في سفر التكوين؟ وأين ذهبت السماء، والتقلبات على أشدها حتى أهما لتغير المواقع مرتين في اليوم الواحد.

وكان «الموحدون»، أكثر المشككين اعتدالا، وهم الذين، في إيطاليا وسويسرا وبولنده وهولنه وإنجلترا، أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح. وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين (*) الذين آمنوا بالله متأنلا مطلقا مع الطبيعة، وأنكروا ألوهية المسيح، ورغبوا في أن يجعلوا المسيحية مذهبا أخلاقيا لا عقيدة دينية، وكانوا حتى تلك اللحظة مشككين حذرين، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكاتهم فباتوا يزعمون الجلاد، كما فعل إدوارد هربرت من شربورى. ولسوف نجدهم بعد ١٦٤٨، وقد ارتفع صوتهم عن ذى قبل. وأشد جرأة منهم كان الأبيقوريون في ألمانيا، الذين سخروا من «يوم الحساب» الذى طال ترقبه، ومن الجحيم التى يحتمل ألا تكون رهيبه مزعجة، برغم كل شيء، مادام أكثر الناس ابتهاجا ومرحاسوف يحشرون^(١) فيها. وفي فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس «ذوو العقول الصلبة»، أو «الإباحيون»، وهم الذين بدأت أساليبهم المانعة الطليقة تضفي معناها الحديث على لعظة كانت تعنى فى الأصل «المفكرين الأحرار». وفى ١٥٨١ ألف فيليب دوبلسير — مورنى كتابا فى ٩٠٠ صفحة «حقيقة الديانة المسيحية»، فى مواجهة الملحدين،. وفى ١٦٢٣ نشر الجزويتى فرانسوا جاراس كتابا فى

(*) الربوية : Deism الايمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة - مذهب فكرى فى القرن الثامن عشر يدعو إلى الايمان بدين طبيعى مبنى على العقل ، لا على الوحى ، ويؤكد على الناحية الأخلاقية ، منسكرا تدخل الخالق فى نواميس الكون .

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع ، حمل فيه على الإباحيين ، الذين يؤمنون بالله شكلا أو من أجل دين العوالة . . . ولا يرتضون إلا الطبيعة ، والقضاء والقدر (٢) . وفي العام نفسه قدر مدين مرسن عدد الملحدين في باريس بنحو ٥٠ ألفا (٣) ، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم في هاتيك الأيام بشكل فضفاض ، وربما قصد بها مارين ، الربوبيين . وفي ١٦٢٥ أوضح جبرائيل فودى أن الشرائع التي نزل بها الوحي المقدس على «توما بمبليوس» (ملك رومه الأسطوري ٧١٥ - ٦٧٢ ق . م) رعى موسى ، ماهى إلا خرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعي ، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويفسذوا الجمهور الساذج . وفي ١٦٢٣ نشر فرانسوا دى لاموث لافاني - سكرتير ريشيليو ، ومعلم لويس الرابع عشر ، الذي تولى الملك فيما بعد - كتابه المسمى «محاورات أورازيوس تايرو» ، صرح فيه بشكوكيه عامة : «إن معرفتنا هراء في هراء ، وأن حقائقنا خيالات وأوهام ، وأن دنيانا بأسرها . . . مهزلة متصلة» (٥) وكان فرنسوا هذا من بين الذين ضعف لإيمانهم قبل تعدد المذاهب المعصومة : «ليس في هذه العقائد التي لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق ، وأن غيره هو الباطل» (٦) . وعلى الرغم من شكوكيته تزوج في سن الثامنة والتسعين ، ووافته المنية في الرابعة والثمانين وهو على فراشه . وكان ، وهو متشكك فاضل : قد كف عن معارضة الكنيسة .

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبيا لموتيني . ثم أصبحت قوة إيجابية بناءة في شخص صديقه بيير شارون ، وهو قسيس من بوردو ، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته ، وورث مكتبته ، وكتب في ١٦٠١ «رسالة عن الحكمة» في ثلاثة مجلدات في وصف الحكمة ، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق ، بأنها ترتيب منهجي لموتيني ، ولكنها ، على الأصح ، رسالة مستقلة تدین بكثير من الفضل «للبقالات» ، ولكنها تحمل

طابع شخصية شارون الدمشة الوقورة . وهو يقول بأن كل المعرفة تنبع من الحواس ، وهي لذلك عرضة لتقييدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة ، فليسب الحقيقة من شأننا نحن . ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يثبتها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله . ولكن شارون يعتقد أكثر ما يعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة ، وأنه صوت الآراء التي تلتفح لهم ، وأن الإنسان يجب أن يتشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به^(٧) . إن الروح قوة خفية حادة لا تهدأ ، متصلة بالمشح ، وظاهر أنها تفتني ببناء الجسم^(٨) . إن أسبانية تنطوى على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة ، وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية . وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد) ، يتعشقون الحكمة ويمارسونها ، فإن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقي طبيعي مستقل عن اللاهوت أو الدين ، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل ، دون سماء ولا جحيم^(٩) . ولكن إذا أخذنا في الاعتبار ما فطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجول ، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام^(١٠) . وبناء على هذا يتقبل شارون كل أساميات المسيحية ، حتى الملائكة والمعجزات^(١١) ، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التي تضعها الكنيسة التي ينتسب هو إليها عن غير قصد ، على أية حال^(١٢) ، وإن يكون المتشكك الحق هرطيقا أبدا^(١٣) .

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التي خلص إليها شارون فإن أحد الحزويت المعاصرين يحشره في زمرة أخطر الملحدون وأشهرهم وأخبثهم^(١٤) . ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية ، في سن الثانية والستين (١٦٠٣) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عند الله على كفره والحادة^(١٥) . وقيل وفاته أعد طبعة ثانية من كتابه ، خفف فيها من الأجزاء الأكثر تهورا وطيشا ، وأكد لزملائه من رجال الدين أنه إنما قصد بالطبيعة ، الله سبحانه وتعالى ،

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه في عداد المكتب المحظورة . ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات د مونتيني انتشارا وشعبية . وطبع كتاب د محاورات ، الحكمة خمسا وثلاثين مرة في فرنسا فيما بين عامي ١٦٧٢-١٦٠١ . وفي القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه . ولكن نفس العرض المنظم الذي جذب القرن السابع عشر الكلاسيكي ، بدأ في أعين القرن التاسع عشر وعظا كشييا مدرسيا ، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد ، من تألق وبهجة في مونتيني .

٢ - جيوردانو برونو ١٥٤٨-١٦٠٠

كان كوبرنيكس قد وسع الكون . فمن ذا الذي يمكن أن « يوسع الله » اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية في لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهائلة التي لا يحصى عددها ؟ أن برونو حاول هذا .

ولد برونو في نولا على بعد ١٦ ميلا إلى الشرق من نابلي . وعمد باسم فلبو ، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان في سن السابعة عشرة ، دخل دير الدومنيكان في نابلي . وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية ، لا بكتب اللاهوت فحسب ، بل كذلك بالكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية . وتعلقت طبيعته الشاعرية على الفور بالأساطير الوثنية التي رسخت في فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحي . وافتتن بمذهب ديمقريتهس الذي تابعه أبيقور ، وبسطه كوبرنيكس في صورة رائعة . وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد ، والفيلسوف اليهودي ابن جايبرول . وتسرب إلى نفسه شيء من التصوف العبراني ، مختلطا بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تليزو عن اتحاد الأضداد في الطبيعة وفي الله ،

كما تصرّب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لانهاى ليس له مركز أو محيط ، تنفخ فيه الحياة روح واحدة . وأعجب بالتصوف الطبيّ الثائر عند ياراسلسوس وبالرمزية الروحية ، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموند للمي ، وبفلسفة كورنيليوسى أجريبا الغامضة . وعمل كل هذا على تشكيل برونو ، كما أشعل فيه نار البغض لأرسطو وللفلسفة التصراينية فى العصور الوسطى (السكولاستية) ولتوماس أكويناس . ولكن برونو كان فى دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم .

ولم يتكّن بد من أن يزعم الراهب الشاب رؤساءه بالاهترافات والأسئلة والنظريات . أضف إلى ذلك أن حاسة الجنس كانت تضطرب بين جنبيه ، واعترف فيما بعد بأن كان ثلوج القوقاز ما كانت لتنعق غلته أو تطغى شهوته ، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل . وفى ١٥٧٢ رسم كاهنا ، ولكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلبه خفية . كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة فى واحد هو الله سبحانه وتعالى ؟ كيف يتسنى لسكان مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع للمسيح ودمه ؟ . وبعد رسامته ، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفا رسميا . وفى ١٥٧٦ ، بعد أن قضى أحد عشر عاما فى الرهبنة ، فرجأة من الدير ، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت فى رومه . وخلع رداء الرهبنة ، وعاد إلى اسمه الذى عمد به ، والتس الأمان والتستر فى الاشتغال بالتعليم فى مدرسة للبنين فى نولى بالقرب من جنوه .

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال ، سرى فيها القلق والأرق فى جسمه جنبا إلى جنب مع التردد والتذبذب فى عقله . وبعد أربعة أشهر قضاها فى نولى ، انتقل إلى سافونا ، ثم إلى تورين ، وإلى البندقية ثم إلى بادوا . وعاد فارتدى ثانية ثوب الراهب الدومنيكانى ليحظى بسكرم الوفادة فى الأديار . ثم سار إلى برسكيا ، وإلى برجامو ، وعبر جبال الالب إلى شامبرى حيث أستقبله

وأطعمه دير للدومنيكان . ثم إلى ليون ، ومنها إلى جنيف . وهناك في معقل
السكافنية جرد نفسه من ثوب الرهبنة مرة أخرى ، وهناك قضى شهرين في
هدوء لا يلتئم مع مزاجه ، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع
ومن بين هذه ، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين السكافنيين
في جامعة جنيف . وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ في هذه المحاضرة . وألقى
القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة ، أما برونو فاستدعى للمحاكمة أمام
محكمة الكنيسة ، فقدم اعتذرا وصفحوا عنه . وتولاه اليأس والقنوط حين
ألقي نفسه يهرب من شراك رقابة ليقع في بران أخرى ، فغادر جنيف وعاد
إلى ليون ومنها إلى تولوز ، حيث ظهر ظل عابر من التسامح في صراع
الكاثوليك مع الهيجونوت ، وفي تدفق اليهود المرتدين إرتدادا يسيرا من
أسبانيا والبرتغال . وربما حدث أثناء إقامته (١٥٨١) ، أن نشر فرانسوا
سانكي في تولوز ، رسالته الشكوكية ، المعرفة الصحيحة الكريمة . . . ليس
ثمة شيء معروف ، ، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهرا في رسالة أرسطو
د الروح ، . ولأسباب غير معروفة . وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم .
رحل برونو إلى باريس .

وكان برونو قد أحرز شهرة ، لا بوصفه فيلسوفا فحسب ، بل كذلك
بوصفه خبيرا في فن تقوية الذاكرة . وأرسل هنري الثالث في طلبه واستولى
على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة . وسرا الملك من دروس برونو
وعينه مدرسا في الكوليج دي فرانس . واحتمل برونو في هدوء لمدة عامين ،
ولكنه في ١٥٨٢ نشر رواية هزلية (كوميدية) تحت عنوان د حامل المشعل ،
يهجو فيها هجاء لاذعا ، الرهبان والأساقفة والمنحذاتين . . . ولنسج
المقدمة تتحدث :

سترون ، في فوضى مشوشة ، نتفا عن النشائين ، وألوانا من
الزيف والخداع ، ومغامرات الأوغاد ، كما ترون الاشمزاز الطريف .

والحلوى . المرة ، والقرارات الحقاء ، والايان الخاطيء والامال
المشلوله ، والصدقات الشحيحة والنساء القويات الشكيمة
(الرجوليات) والرجال المخنثين وحب الذهب (المال) في
كل مكان .

ومن ثم تنشأ الحيات الربعية (الراجعة) ، والسرطانات الروحية ،
والأفكار الهزيلة ، والحقائق المتسلطة والمعرفة المتقدمة ،
والعمل المثمر ، والصناعة الهادفة . وفي إيجاز ، سترون في الرواية ،
أمننا نأفها ، وقدرا ضئيلا من الجمال ، وإن تروا شيئا طيبا
أو حسنا .

ووقع على الرواية : د برونو النولى ، المتخرج في أكاديمية تسمى
الازعاج ، (١٦) .

وفي مارس ١٥٨٣ قصد انجلترا وكان هنرى الثالث أكبر استعدادا
للتوصية به خير أ لدى الآخرين منه للاحتفاظ بخيماته لديه (١٧) ، فزوده
بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسى فى لندن ، ميشيل دى كاستلنو ، سيردى
لاموفيسير ، وهنا بدأت أ معد اللحظات فى حياة برونو . حيث أقام فى قصر
السفير عامين يأكل ويشرب ، متحررا من أية نفقة أو ضرورة إقتصادية ،
وهنا أيضا كتب بعضا من أهم مؤلفاته ، كما وجد ملجأ من العواصف التى يثيرها
خلقه وشخصيته ، وكان يخفف عنه مناظراته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك
الدنيا ، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجدل . وفى هذا
البيت التقى برونو سير فيليب سدنى ، وأرلى لستر ، وجون فلوريو ، وأدموند
سبنسر . وجراييل هارفى وغيرهم من ألمع العقول فى انجلترا فى عصر اليزبث .
إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التى بنى عليها معرض
آرائه ، ، وحظى بمقابلة الملكة نفسها . وامتدحها فى عبارات أخذتها عليه
محكمة التفتيش فيما بعد .

وفي ١٥٨٣ طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له فيلقاء المحاضرات في قاعاتها، ووصف بهذه المناسبة، مؤهلاته في لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع (١٨)، وحصل على الترخيص، فتحدث عن خلود الروح، وعن الكرة السماوية المكبره إلى خمسة أمثالها، أي عن نظرية كوبرنيكوس في الكواكب. وتحدثه وضايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لشكولن، كما يروي برونو بطريقته الخاصة : -

هلا عرفت كيف استاعوا أن يردوا على حججه (برونو)؟ وكيف أنه لخمس عشرة مرة، وبخمس عشرة قياسا منطلقاً. ضيق الخناق على الدكتور، المسكين الذي صدره، لهذه المناسبة الرهيبة، بوصفه رئيساً للأكاديمية، حتى وقف حائراً كعصفور في قفص؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غاظة تصرف هذا الخنزير، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تدرع بهما من أثبت أنه حقاً مولود في نابلي وأنه نشأ في ظل سماء أكرم وأرحب؟ وهلا عرفت كيف أنهموا محاضراته العامة (١٩)؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيها بعد اسم «أرملة التعليم الصحيح»، مجموعة من الجهل المتحدلق العنيد والوقاحة، امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب (٢٠) .

ولكن فيلسوفنا لم يكن «أيوب»، وكتب كتابه رائعة عن النجوم، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق. وأحس بأن عرضه الفلسفي لملك كوبرنيكوس كان خطوة طيبة في سبيل فهمه، وأنه كان «ناقداً لا ذعاً» (٢١)، لسكل من رفضوا آراءه. ولو أن فلوريو ألفاه، بعد أن هدأ رعبه ودبعا لطيفاً (٢٢) وكان غروره امتحانا لأصدقائه، مثل الريح في شراعه. وخلع على نفسه ألقاباً خفية: «دكتور في اللاهوت الأكثر تطوراً، استاذ في الحكمة الخالصة غير الضارة» (٢٣)، وكان يتمتع بخيال النابوليتاني المتقدم

وفصاحته المشيرة. وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلي في عروقه،
«إني لأرهب نفسي وأعدبها وأقهرها ، حبا في الحكمة الحقة ، وغيره على
التأمل الصادق» (٢٤)

وفي أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، في أثر السفير الذي استدعى
إليها . وحاضر في السوربون مثيرا عداوة أنصار أرسطو ، كما هي العادة .
وأغرته حروب العصبة ضد هنرى الثالث بأن يختبر الجامعات الألمانية، فتسجل
في جامعة هاربرج ، ولكنه رفض القاء المحاضرات ، وعرض برئيس الجامعة
وقصد إلى وتنبرج ، وقضى عامين يحاضر في جامعة لوتر ، ولدى مغادرته لها
عبر عن شكره في خطاب محلق ودع فيه الجامعة . ولكن لاهوت رجان
الإصلاح لم يرقه ، فالتمس رعاية رودلف الثانى فى براغ . وظلنه الامبراطور
رحلا غريب الأطوار ، ولكنه منحه ٣٠٠ ثيلر ، وأذن له بالتدريس فى
جامعة هلمستد فى برزويك . وبقي سعيداً فى عمله لعدة أشهر ، لإتمه بعدها
رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة (٢٥) . ولسنا
نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى ، ولكن برونو رحل إلى فرانكفورت
وزيورخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (١٥٩٠ - ١٥٩١) حيث استقر به المقام
ليؤشر مؤلفاته اللاتينية .

وفى تلك الأثناء - قبل إيداعه السجن بأمر من محكمة التفتيش بعام واحد -
كانت فلسفته قد اكتملت ، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط .
أننا عند النظر فى أهم مؤلفات برونو لتصدمنا العنوانات التى وضعها فى صيغة
مقتضبة . ويغاب عليها أن تكون شاعرية مبهمه ، نندرنأ بالألتوقع فلسفة
منهجية متماسكة ، بل هى على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية
أو نشوات . وقل ألى مجد فى أى مؤلف آخر ، اللهم إلا رابليه ، هذا الخليط
من النعوت والألقاب والمجازات البلاغية والرموز والخرافات والنزوات
والفكاهات ، والكلام المنمق والتوافه والتمجيد والسخرية وخفة الدم ، مكدسة
بعضها فوق بعض ، فى فوضى من المبادئ والأفكار الشاقبة والفرضيات .

لقد ورت برونو براعة الكتاب المسرحيين الايطاليين والمرح الصاخب المؤذى لدى الشعراء الايطاليين الذين يحشون قصائدهم بالفاظ ايطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى ، كما ورت هجاء برنى وأرتينو اللاذع . وإذا كان المقصود بالفلسفة : القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبية ، والتحفظ أو التقييد المعقول المنطقي ، والقدرة على الاحاطة بكل الجوانب ، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة ، فإن برونو ، على هذا الأساس ليس فيلسوفا ، بل أنه محارب أو مصارع ، يصم أذنيه ويغشى عينيه ، لكيلا لا تصرفه الأخطار المحدقة عن هدفه — الذى كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان — محو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير فى برونو فى تهكمه الوحشى للمعالجة اللاهوتية المثالية للايمان الغافل الخالى من التفكير :

إنى لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مرآة توضع أمام أعين البشر ، خير من المحاربه أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الانسان الذى . . . يفتش عن ثواب يوم الحساب . . . ومن ناحية أخرى ، ليس ثمة شئ أشد فعالية فى تردينا فى هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس . . . وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور . فحاولوا إذن أن تكونوا حميرا ، يأبها الرجال ، ويأبها الذين أنتم بالفعل حمير ، وأدرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن ، وتحققوا هذه الغاية والمسكاته اللتين لا يمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت ، بل بالايان ، واللتين لا يحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة ولا يمكن يحول دونهما الكفر . وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدى فى سجل الحياة فسوف تحظون ببركة الكنيسة « المحاربة » ، وبمجد الكنيسة المنتصرة » ، التى « يعيش فيها الله ، ويحكم فى كل العصور . . . آمين (٢٦)

أن رؤية برونو للكون رؤية جمالية فى أصلها ، وهى تقدير عميق يتسم

بالتعجب والدهشة من كون لا نهائى ساطع براق . ولكنها كذلك محاولة
فلسفية لتكليف الفكر البشرى مع كون يشكل فيه كوكبنا الذى نعيش عليه
جزءاً غاية فى الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه . أن الأرض ليست
مركز العالم ، وكذلك الشمس ليست مركز الاله . وفيما وراء العالم الذى نراه (ولم
يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب
بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضا كما
أثبت التلسكوب بعد تحسينه) ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، أننا لا نستطيع أن
ندرك نهاية أو بداية . وبدلاً من النجوم « الثابتة » كما ظن كوبرنيكوس أنها
ثابتة، فإنها تغير مواقعها على الدوام ، وحتى فى السموات كل الأشياء تجري .
والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية . وليس هناك مركز ولا
محيط ، ولا ارتفاع وانخفاض . وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من
أماكن أو نجوم مختلفة . ولما كان الزمن هو مقياس الحركة ، فإن الزمن نسبي
كذلك ، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية . فهل مات المسيح
من أجلهم كذلك ؟ على أنه فى هذا الاتساع الذى لا نهاية له ، هناك بقاء ثابت
للإبادة ، وولاء دائم لا يحيد عنه للقانون .

ولما كان الكون لا نهائياً ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك « لانهائى » ،
فاذن يكون « الله » اللانهائى والكون اللانهائى شيئاً واحداً (وهنا قول
سبينوزا « الله أو المادة أو الطبيعة ») ، وليس هناك « مدبر أول » كما قال
أرسطو . بل هناك حركة أو طاقة متصلة فى كل جزء من هذا السكل ، .
وليس الله عقلاً خارجياً والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية
للحركة ، وهى طبيعته وروحه ، (٢٧) . والطبيعة هى العقل الخارجى الالهى ،
على أن هذا العقل ليس موجوداً فى « سماء عليا » بل هو موجود فى كل جزء
من جزئيات الواقع .

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة ، ومن حياة ، ومن عقل بدائي (وهنا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشوس وليبنز) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به ، ومع ذلك فإن حريته لا تعني التحرر من القانون ، ولكنها تعني (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به . وهناك في الطبيعة قاعدة التقدم والتطور ، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو . (Entelechia أرسطو) .

وهناك في الطبيعة أعداد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات . ولكن عمل الكون بأسره في « مشيئة الله » تتوافق كل المتضادات وتختفي . كذلك فإن الحركان المتباينة للكواكب هي التي تحدث الانسجام في السموات ، ووراء التنوع المحير الساحر في الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشدّ عجباً ، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء في كائن واحد . « أنها وحدة تسحرني ، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً ، سعيد في غمرة الحزن ، غني في حمة الفقر ، حتى في الموت » (٢٨) (إني ، ولو أني خاضع للقانون ، أعبر عن طبيعتي الخاصة . وبرغم أني أقاسي فاني أجد عزاء في التحقق من أن « شر » الجزء يصبح غير ذي معنى في المشهد العام للكل) . ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هي هدف العلم والفلسفة ، وهي الدواء الشافي للعقل . (الحب العقلي لله ، عند سبينوزا) .

إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولي ، وهي تنطوي على اتصال وتماسك في تفكيره مغايرين له كل المغايرة ، لأنها تختصر على متناقضات وتوكيدات جازمة ، وعلى فيض من التقلبات ، لا تتفق إلا مع المذهلات الكونية . وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه في عداد المتصوفة الجوس . أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون « تحت تأثير » الزهرة

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون تحت
تأثير ، المربخ فيميون إلى النزاع والبغض . وآمن بالخصائص الخفية للأشياء
والأرقام ، وأن الأمراض قد تكون عفاريت ، ويمكن علاجها في بعض
الحالات بلمسة ملك أو لعاب ابن سابع (٢٩) .

وكان وهمه الأخير أنه كان يؤمل ، في حال عودته إلى إيطاليا واستجواب
محكمة التفتيش له ، في أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته
ينخدع بها الكنييسة فتحسبه ابنها البار . وربما راوده الأمل في أن إيطاليا
لم تكن قد سمعت بكتابه الذي نشره في إنجلترا ، طرد الحيوان المنتصر ، .
والذي كان يمكن أن يفسر الحيوان الذي طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو
المسيحية أو المبادئ الدينية عامة (٣٠) . ولا بد أنه قد ناقث نفسه إلى إيطاليا
وإلا كيف نفسر لهفته على قبول دهوة جيوفني موسنيجو للقدوم إلى البندقية
معلم له وضيافاً عليه ؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أسر البندقية ،
وكان كاثوليكياً ورعاً ، ولكنه كان مهتماً بالقوى الخفية ، وقد أبلغوه أن
برونو كان على علم تام بفروع السحر ، وأنه يختزن في ذاكرته القوية الكثير
من الحفايا والأسرار . وكانت محكمة التفتيش قد أهلنت منذ أمد طويل أن
برونو خارج على القانون ويجب القبض عليه في أول فرصة . ولكن البندقية
اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون ، متحدية بذلك محكمة
التفتيش . وعلى ذلك سارع برونو إلى مغادرة فرنكفورت في أواخر ١٥٩١
وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا .

وأعد له موسنيجو مسكناً وتلقى عنه دروساً في تقرية الذاكرة . ولكن
تقدم التليذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية
كما أنه في نفس الوقت ارتعد فرعاً من المرطقات التي تمثلت في الفيلسوف
الثرثار القليل الحذر ، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه
أن يبلغ محكمة التفتيش عن برونو ، فذصحه الكاهن بالتريث حتى يتثبت من
حقيقة برونو بشكل أدق . وامثل موسنيجو لمشورة الكاهن ، ولكن عندما

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت ، أبلغ مونسنيجو المحكمة وفي ٢٣ مايو ١٥٩٣ وجد برونو نفسه نزيلا في سجن المحكمة في البندقية . وأوضح مونسنيجو أنه « تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره ، وبأمر من كاهن الاعتراف (٢١) . وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان ، ولو أن الكهنة كانت أحبا إلى نفسه ، ولكنه أنه أنكر التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان ، وأنه اتهم المسيح والرسول بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة ، وأنه قال بأن كل الإخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة ، وأن الانغماس في الملذات الدنيوية ، ليس خطيئة وأنه ، أي برونو ، أشبه شهواته قدر ما صنعت له الفرص (٢٢) ، وأن برونو كان قد قال له « أنه استمتع بالنساء كثيرا ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان (٢٣) .

وحققت المحكمة مع السجن على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٣ ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفا ، وأنه كان يستفيد من تمييز بمبونا تزي بن « المحققين ، أنه يجوز للإنسان أن يناقش ، بوصفه فيلسوفا ، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكيا . وصرح بما يساوره من شكوك في موضوع التثليث . واعترف بأنه مذنب في أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة وهي تعرف سقامه وعيوبه ، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة (٢٤) . ولم تستجب المحكمة إلى شيء من هذا وأعادته إلى زنانه لمدة شهرين آخرين وفي ٣٠ يولييه حققوا معه مرة ثانية ، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن . وفي سبتمبر طلبت محكمة التفتيش في رومه من البندقية إرسال السجن إليها . فاعترضت حكومة البندقية ، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطني نابلي ، لا البندقية . ووافق السناتو على تسليمه . وفي ٢٧ فبراير ١٥٩٣ تم ترحيله إلى رومه .

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجنين يقبع مكشوباً حزيناً في السجن لفترات طويلة قبل التحقيق وفي أثناءه وبعده . وكادت تنقضي سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة رومه في ديسمبر ١٥٩٣ ، وحققوا معه ، أو قل عذوبه بالتحقيق ، ثانية ، في أبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر ١٥٩٤ . وأجتمعت المحكمة مرتين في يناير ١٥٩٥ لتدرس الأوراق . وتقول أوراق المحاكمة أنه في مارس ١٥٩٥ وأبريل ١٥٩٦ ، مثل برونو أمام كبار الكرادلة ، وأنهم زاروه في ززانته . وأستمعوا له وسألوه عما يمكن أن يكون في حاجة إليه^(٣٥) ، ، وفي ديسمبر ١٥٩٦ استمعوا إلى شكواه « من الطعام » . وفي مارس ١٥٩٧ استدعى للمثول بين يدي المحققين الذين استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه ، ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه ، ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها ، ليس من بينها هذا التسوية الطويل ، المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حسد الإذلال المهذب للنفس . وانقضى عام آخر ، وفي ديسمبر ١٥٩٨ سمح له بورق وقلم ، وفي ١٤ يناير ١٥٩٩ استدعى مرة أخرى ، وتليت عليه ثمان مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه . وطلبوا إليه أن يشجها علناً ، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا في المسائل ساقفة الذكر . وفي ٤ فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة . ولم يرد في أوراق المحاكمة ذكر لأراء برونو في نظريات كوبرنيكس ، بل أن الهرطقة أنصبت على التجسيد والتثليث . وسمح له بأربعين يوماً أخرى للاعتراف بأخطائه .

واستمعوا له مرة أخرى في ١٨ فبراير ، ثم في أبريل وسبتمبر ونوفمبر . وفي ٢١ ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع . وفي ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم إلى البابا مذكرة يدعى فيها أن المسائل الواردة في الاتهام اتبست من مظانها بشكل خاطئ ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين ، ويقول مرة أخرى أنه يرتضى حكم البابا . وبناء على ذلك ، كما تقول سجلات المحاكمة « أصدر قداسة

البابا كليمنت الثامن أمرا بإتخاذ الإجراءات النهائية في القضية وبالنتطق بالحكم ، وبإحالة الأخر المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية . وفي ٨ فبراير استدعى المحققون برونو ، وكرروا على مسامحة الإتهامات الموجهة إليه ، وأبلغوه أنهم أهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبدى الندم ، وأنه وافق على حكم البابا في أمر مرقه عن الدين ، وأن البابا قرر أنه مارق ، وأن المتهم لا يزال مصراً على هرطقته ، « سائراً في غيه ، عنيداً ، مكابراً ، ومن ثم صدر الحكم بإحالاته إلى المحكمة المدنية إلى حاكم رومه ، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التي تستحقها ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين ، بالنسبة لما تعاناه من آلام ، وألا يكون جزاؤك الإعدام أو بتر الأعضاء . » . ووقع على الحكم ثمانية كرادلة ، من بينهم بللارمين . ويقول كسبار سكيوبيوس - وهو عالم ألماني تحول حديثاً إلى الكشلكة ثم أقام في رومه - أن برونو ، عندما تلى عليه الحكم ، قال لقضائه : « ربما كنتم يا من نطقتم بالحكم بإعدامى ، أشد جزعاً وخشية مني أنا الذي تلقيتهم ، » (٣٦) .

ونقل برونو على الفور إلى سجن مدني . وفي ١٩ فبراير ، وهو لا يزال مصراً على موقفه ، جرد من ثيابه وربط لسانه ، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركاب من الخطب في « بيازا كامبودي فيوري ، وأحرق حياً على مشهد من جمع غفير متعظ . وكان في الثانية والخمسين من العمر ، وفي ١٨٨٩ ، أقيم له في نفس المكان ، تمثال ؛ جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا .

٣ - فانيبي وكبانا

بعد تسعة عشر عاماً من هذا الذي أسلفنا ، ظهرت نزعة مماثلة ، ولقيت من فورها نفس المصير .

ولد جيوليو سيزار لوسيليو فانيبي في جنوب إيطاليا لأب إيطالي وأم

أسبانية - بارود يتزوج ناراً . ويعد أن تجول فائني في أنحاء أوروبا - كما فعل برونو - يختبر الأجواء واللاهوتيات ، ويؤلف الكتب ، وفيها ومضات عارضة من فكر نايب (مثل قوله أن الإنسان كان يوماً من إذوات الأربع) لا تكاد تتوازن مع الهراء الغامض ؛ استقر به المقام في تولوز (١٦١٧) ، حيث قضى - مثل برونو - عامين نعم فيهما بالهدوء . ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود « إله بشري » (٣٨) . وثمه مستمع آخر ، هو سيردى فرانسون - كسب ثقة فائني ، واستدرجه - كما فعل موسيديو مع برونو من قبل - وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة . فقبض عليه في ٢ أغسطس ١٦١٨ ، لا بأمر الكنيسة ؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام . وإستناداً إلى محاضراته أتهم بالإلحاد والتجديف ، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة . وأكد فائني لإيمانه بالله ، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بالإلحاد وكفره أكثر من مرة قائلاً بأن الطبيعة هي الإله الوحيد ، وأقر القضاة شهادة الشاهد ، وعلى الرغم من إحتياجات فائني الصارخة ، وما أظهره من تقى وورع في سجنه ، صدر الحكم عليه - وهو في الرابعة والثلاثين : -

بأن يسلم إلى الجلاد ، الذي يجره إلى سياج تقال ، وهو في قبضه ، وحبل المشنقة حول عنقه ، حاملاً فوق كتفيه إعلاناً يقول « ملحد دنس اسم الله ، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيسي للكنيسة القديس ستيفن ، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب العفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، عن تجديفه وألحاده ، ثم يسوقه إلى ميدان سالين ، ويشده إلى خازوق مقام هناك ، ويقطع لسانه ، ويشنقه ، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتدوره الرياح » (٦٥) .

ويروون أن فانتيق ، حين جرى به من السجن ليلقى عقابه (٩ فبراير ١٦١٩) صاحب معجبا ، دعوني أذهب ، دعوني أذهب فرحا مبتهجا لاموت موتة فليسوف (٣٩) ، .

كذلك ولد توماسو كمباللا ، ودم كاليريا الحار يجرى في عروقه ، وخفف من حرارته لبعض الوقت في دير للدومنيكان ، ودرس تليزو وامبيد وكليس ؛ ونبد أرسطو ، وتناول بالتعريض والتسخيف ، قرار البابا بالحرم من الكنيسة فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش في نابلي لبضعة شهور (١٥٩١-١٥٩٢) وبعد الإفراج عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات في بادوا ، واتهم بالفسق والفجور ، وهناك دون أول مؤلف هام له في الفلسفة (١٥٩٤) نصح فيه المفكرين - كما فعل فرانسيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاما - بدراسة الطبيعة ، لا دراسة أرسطو - وأعد برنامجا للعودة إلى العلم والفلسفة . ولما عاد إلى نابلي انضم إلى مؤامرة لتخليصها من نير أسبانيا . ولكن المؤامرة أحبطت ، وزج به في سجون الولاية لمدة سبعة وعشرون عاما (١٥٩٩-١٦٢٦) وعذب اثنتي عشرة مرة ، استمر التعذيب في إحداها أربعين ساعة (٤٠) . وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية ، وفي قصيدته (السونيت) وعنوانها « الشعب » بعبء عن استيائه عن عجز الأهالي عن مساعدته في ثورته فيقول :

الشعب دابة لها مخ مشوش غبي ، لا تعرف قوتها ، ومن ثم تقف محملة بالخشب والحجاره ، تقودها يدان هزيلتان لمجرد طفل بالشكيمة واللجام ، إن رفسة واحدة تكفي لتحطيم القيد ، ولكن الدابة تخاف وتجن ، وتفعل ما يطلبه الطفل ، ولا تدرك قدرتها على إرهابه ، لأن « البعيج » الثافه يدهلها ويربكها . وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكتم لسانها بيدها - وتجلب على نفسها الموت والحرب مقابل دريهمات (بنسات) يتصدق

بها المولود عليها من خزائنها هي . إنها تملك كل ما بين الأرض
والسماء ، ولكنها لا تعرف ذلك . وإذا هب إنسان لينطق بهذه
الحقيقة لقتلته دون أن تغفر له ذنبه^(٤١) .

وأهم إنتاج لكيمباللا في سنوات الشتاء هذه « مدينة الشمس » التي تخيلها
قائمة على جبل في سيلان ، وكل موظفيها صفوة مخنارة - وهم قابلون للعزل -
عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة ، وهؤلاء
الموظفون المختارون على هذا الأعماس ، يختارون بدورهم رئيس الحكومة ،
وهو كاهن يسمونه « هو ه Hoh » يفصل هو ومعاونوه في كل المسائل الدينية
أو دينية . ويشرفون كذلك على زواج الجنسين ، ليستوثقوا من أن النساء
والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية . إنهم حقا يسخرون
منا حين نبدى اهتماما شديدا بنتاج الخيل والكلاب ، ونهمل نسل الإنسان^(٤٢)
ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات . والنساء في مدينة الشمس هذه
شركة بين الرجال على الشيوع في انضباط صارم ، يقتضين القيام بتمرينات
شاقة ، توفر لهن بشرة صافية ومظهرا عاما طيبا . فإذا صبغت امرأة وجهها
بالمساحيق ، أو استخدمت أحذية عالية الكعبين . كانت عقوبتها الإعدام^(٤٣)
ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب ، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال
أن يلقي عند الإمساك به في عرين للأسود والديبة ليلقى حتفه^(٤٤) . وكل فرد
مكلف بالعمل ، ولكن لمدة أربع ساعات فقط ، يوميا (وينشأ الأطفال
تنشئة مشتركة ، ويعدون إعدادا نفسيا لاقتسام السلع وفق أمس شيوعية ،
أما ديانة هؤلاء الناس فهي عبادة الشمس بوصفها « وجه الإله وصورته الحية ،
» إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش في التثام تام مع عاداتهم
وأعرافهم^(٤٥) .

وهذا البيان الشيوعي ، الذي يردد صدى أفلاطون . كتبه كيمباللا في
السجن حوالي ١٦٠٢ ، ونشر في فرانكفورت آم مين في ١٦٢٢ . وبما كان

البيان يعبر عن آمال المتأمرين النابوليتانيين ، وربما كان سببا في احتجاز كمبانيلا في السجن طويلا ، على أنه تصالح مع الكنيسة في الوقت المناسب فأفرج عنه . وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده ، على حق البابوات في حكم الملوك . وفي ١٩٣٤ أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط في ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه . ولكن الثائر المنهوك ، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو في صومعته في دير الدومنيكان (١٦٣٩) ، وكان يقول : « أنا الناقوس - كمبانيلا - الذي يؤذن بيزوغ الفجر الجديد » (٤٦) .

٤ - الفلسفة والسياسة

١ - جوان دي ماريانا : ١٥٣٦ - ١٦٢٤ :

كان محور السياسة في العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك لجمعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته . أما أبرز مظاهر التاريخ السياسي الحديث فهو صراع الدول القومية التي تحررت من سلطة البابا . ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية في القرن الذي جاء في أعقاب الإصلاح الديني ، هي أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا ، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاء تاما ، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التي تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التي يفرضها الدين والأخلاق والقانون ؛ قد تمزق إربا إربا ، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة « فوق قومية » (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توثق في سعيها لتحقيق خير البشرية ، بل أنها على الأرجح لا بد أن تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن كنيسة ذات سلطة عليا قد تحقق كل حرية الحياة وحرية الفكر .

وكان الفلاسفة « السكولاسيون » ، في العصور الوسطى ، قد استمدوا سلطة الملك — وهم في هذا يرددون رأى المشرعين الرومان — من رضا الشعب ، لا من رضا الله ، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة إلهية للملوك ، ويعزل بحق أى حاكم غير صالح ، كما أن المفكرين الكلفنيين : مثل بليز وبوكانان ومؤلف « قصاص الطغيان » — أيدوا هذا الرأى أيماء تأييد ، ولكن اللاهوتيين اللوثرين والإنجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الإلهية كعنصر موازنة ضرورى ضد عنف الشعب ومزاعم البابا ، وقالوا بوجود الاهتثال للملك حتى ولو كان ظالما (٤٧) .

وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزوبت الذين رأوا في هذه النظرية وسيلة لاضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا . ويحاج الكاردينال بلارمين في هذا بقوله : إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب ، ومن ثم خاضعة له ، فانه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التى أسسها المسيح ، وهى بذلك لا تخضع لغير الله . وانتهى لويس مولينا — وهو جزويتى أسبانى — إلى أنه مادام الشعب هو مصدر السلطة الدنيوية ، فانه يجوز له حقا وعدلا — ولكن وفق اجراءات سليمة — أن يخلع الملك الظالم (٤٨) . وجاء فرانشيسكو سواريه وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحى من رجال اللاهوت (٤٩) ، فقرر هذه النظرة من جديد ، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الاستبدادية ، واعتنق الرأى القائل بحق البابوات فى عزل الملوك . وأثار دفاع الجزويتى جوان دى ماريانا عن قتل الطاغاة سخطا عالميا ، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنرى الرابع .

أن ماريانا (الذى لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخى جيله) كان من كل الوجوه شخصا مرموقا ، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية . وفى ١٥٩٩ أهدى إلى فيليب الثالث ونشر ، باذن من الرقيب المحلى الجزويتى ، رسالته « الملك وتعليمه » ، واستبق هوبز بنصف قرن ، فوصف « حالة الطبيعة » قبل

نشوء المجتمع ، حيث عاش الإنسان آنذاك عيشة الحيوان في البرية ، متحررا من أية قيود أو ضوابط ، اللهم إلا عجزه الجثاني ، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة ، يشبع غريزته في التماس الطعام والرفيقة . ولكن كانت ثمة منغصات في الحرية التي نادى بها روسو ، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة . وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعي ، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك ، ووسيلة ضرورية لمقاولة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية التي زودت بها الطبيعة الحيوان . وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمنى اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك . ولكن السيادة بقيت في الشعب ، وفي معظم الأحوال تقريبا ، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز في أسبانيا - الجمعية التشريعية ، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس ، واحتفظت بالأشراف على الخزانة وسنت مجموعة من القوانين كانت سيادتها أعلى من سلطة الملك . هـ

وفي رأى ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل ، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار في تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء^(٥٠) . فالملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات ، فهي تلتم مع طبيعة الانسان ، وتعاون على بقاء الدولة . ويجب أن تكون وراثية ، لأن الحكومة الانتخابية إن هي الاثمار للفوضى في فترات دورية .

ويجب أن يكون الملك مقيدا بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية ، وبحق الشعب في عزله إذا طغى . ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب . ويجب عليه ألا يقرر شيئا بشأن الدين^(٥١) ، لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغي لها أن تحكم نفسها ، ومع ذلك فعليه أن يحمي ديانة البلد ، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة^(٥٢) . ويجب على الدولة أن تساند الدين في محافظته على المبادئ الأخلاقية ، وتشجع مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية ، والمسرح لأنه يبيج الغرائز

الجنسية^(٥٣)، وتنفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع في إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر، ويذغى على الأغباء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكتائب. ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكماليات، منخفضة على الضروريات. فان السلع الموجودة في البلاد يمكن أن تفي بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعا عادلا^(٥٤). فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركز الثروة، ولم تحمل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن «الجموع تطيع وضع يده على كل النعم الإلهية واستأثر بكل شيء لنفسه^(٥٥)». أن هذا نظام ضروري الآن، وسوف تعاد الشيوعية في السماء^(٥٦).

ويجوز أن يعزل الطاغية، بل يجوز حقما وعدلا قتله، حتى يبد فرد، في بعض الظروف :-

من هو الحاكم الذي يمكن أن يعتبر طاغية؟ إننا نجد بنا ألا نترك الفصل في هذا لأى فرد، أو حتى لأفراد كثيرين، إلا إذا اشترك صوت الشعب في هذا جهرًا، وانضم المثقفون والمعروفون بالجندية والرزانة لإليه للتداول في الأمر . . . ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد، وخرق القوانين العامة، واتهك حرمة الدين، وبدأ يثبت أقدامه في صلف ووقاحة وعقوق وإذا لم يتسن للمواطنين أن يجتمعوا لاجراء مشاورات ومداومات عامة، ولسكنهم عاقدون المزم جديا على وضع حد لهذا الطغيان - ومع افتراض أن هذا عمل بغيبض لا يحتمل فإنه في مثل هذه الحالة، إذا تقدم فرد، مستجيبا لهذه الرغبة العامة، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم. فأنى لا أعتبر هذا الفرد آثما ولا شريرا وإنما لفكرة سليمة أن يقتنع الأمرء بأنهم إذا طغوا

وبغوا... فإنه يمكن قتلهم ، لاحقا وعدلا فحسب ، بل أن قتلهم
يكون كذلك مدعاة للشناء والفخر (٥٧) .

وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة في التاريخ -
هارموديوس وأرستوجيتون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا - القرن
السادس ق.م)، وبرونوس الذي أخرج الطاغية تاركينوس من رومه. وأشار
إلى أن أثينا ورومه ، بل في الواقع كل أوروبا المثقفة خلدت ذكرهم . ولكن
ماريانا كشفت عن تمييزه ، برضائه إلى حد ما عن ذبح هنرى الثالث بيد كليمنت
منذ عهد قريب (١٥٨٩) :

ان هنرى الثالث ملك فرنسا خر صريعا بطعنة من أحد الرهبان
بسكين مسمومة في أحشائه . أن هذا منظر كرهه إن جاك كليمنت
درس اللاهوت في كلية الدومنيكان التابعة لطائفته . وأبلغه رجال
اللاهوت الذين استشارهم ، أن قتل الطاغية عمل مشروع . أن موت
كليمنت شرف خالد فرنسا ، كما بدأ لكثير من الناس ، فقد اعتبر
الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود ، على حين أن آخرين من
ذوى الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمله ووجهوا إليه
اللوم (٥٨) .

وقد نذكر أن هنرى الثالث كان يناهض العصبة الكاثوليكية ، وأنه أمر
أعدائه بقتل هنرى دوق جيز ، زعيم العصبة . وكان فيليب الثاني ملك أسبانيا
يؤيد العصبة ، وقد أمدّها ببعض المال ، كما وافق على قتل الزبائت الأولى
ملكه إنجلترا ، ووليم أورانج . ولم يكن لدى فيليب الثالث أى اعتراض على
قتل أى عدو لاسبانيا .

وفى ١٥٩٩ أمر كلوديو أكوافيفا رئيس مجتمع يسوع ، بتصحيح كتاب
ماريانا ، الملك ، . ولما قتل هنرى الرابع بيد رافايك (٢٤ مايو ١٦١٠) أعلن

أوكوافيفا استنكاره لمبدأ ماريانا في قتل الطغاة (٨ يولية) وحظر إدراجه في
في تعاليم الجزويت . وكان ماريانا في الوقت نفسه قد اعتقل ، لالتجنيده قتل
الطغاة ، بل من أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة ، وتحذيره
اياها من مساوية التضخم في رسالة قيمة « تزيف العملة » ، (١٦٢٥) . واحتمل
ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية ، وبقي على قيد الحياة بعد اطلاق سراحه .
وتوفي ١٦٢٤ . وهو في سن السابعة والثمانين .

٢ - جان بودين : ١٥٩٦ - ١٥٣٠

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا ؟ لأنه لم يكن لاهوتيا له قدمان في
السماء ، ولم يكن مناصرا كثيبا للعصبة ، ولكن كان من هواة السياسة (مثل
ميشيل دي لوبيتال ، وهو من أنصار التسامح الديني ، وكان مستشارا لهنري
الرابع ومن المعجبين به) . ولد جان في آنجرز ، وربما كانت أمه أسبانية يهودية
وجاء إلى باريس ١٥٦٠ ، واشتغل بالقانون ، ولكنه لم يدر عليه ربحا . وانصرف
في لهفة شديدة إلى دراسة الفلسفة والتاريخ . ودرس في نهم . العبرية واليونانية
والألمانية والإيطالية ، وكتابات ليفي وتاسيتس والعهد القديم ، وشيرون ،
ودساتير دول غرب أوروبا . وآمن بأن دراسة التاريخ هي بداية الحكمة
السياسية . وكان أول ما قدم للطبعة « منهج لتيسير فهم التاريخ » ، (١٥٦٦) .
وهو كتاب يجده الطالب تافها لاقيمة له ولامتعة فيه ، محشوا بالتنميقات البلاغية ،
والأطناب الممل . إن العقل الفلسفي لا يتم نضجه مبكرا . لقد اعتقد بودين وهو
في السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن
هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار^(٥٩) ، ومع ذلك فإن الكتاب يعتبر بعد -
« مقالات ميكيافلي » - أول كتاب هام في فلسفة التاريخ .

وفي هذا الكتاب ، وفي كتاب « الجمهورية » ، الذي جاء بعده - وقبل قرن
ونصف قرن من ظهور فيكو وموتسكيو - نجد تفكييرا منهجيا منتظما في

المناخ والسلالة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ . فالتاريخ من وظائف الجغرافيا - الحرارة ، المطر . التربة ، سمات السطح . . . أن الجغرافيا تحدد الخلق ، والخلق يحدد التاريخ . وأن الناس لتباين أخلاقهم وسلوكهم ، تبعاً لحياتهم على الجبال أو في الأودية ، أو على شواطئ البحار . ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلي . على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن . أما سكان المنطقة المعتدلة ، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فانهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب ، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب ، ومفسكرون أكثر من أهل الشمال ، وينبغي أن تتكيف حكومة أى شعب مع خلقه الذى حدده الجغرافيا والسلالة ، والذى لا يكاد يتغير بمرور الزمن . وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة . وشعوب الجنوب بالدين .

وفى كتاب أقل شأننا رد الرد على تناقضات هاستروا ، أسس بودين « الاقتصاد السياسى ، تقريرا (٦٠) لخلق أسباب سرعة إرتفاع الأسعار فى أوربا ، وناقش مساوى خفض قيمة العملة ، ودافع عن حرية التجارة ، فى عصر الحماية الطبيعية والإقليمية ، وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادى والسياسة الحكومية .

ولكن أروع أعماله - وهو أهم إضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكيا فىلى وهوبز - هو كتابه دالجمهورية (١٥٧٦) . وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الرومانى : أى الدولة . وفرق بين الدولة والمجتمع . فالمجتمع قائم على الأسرة ، التى لها أساس طبيعى فى العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال . أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة . وكانت الأسرة فى شكلها الطبيعى ، أبوية - أى أن للأب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وممتلكات الأسرة ، وربما اقتضت المدنية بشكل حظير من حقوق الأب . ويجب أن تخضع المرأة دوما للرجل لأنها أضعف منه عقلا ، وفى وضعها معه على قدم المساواة إغفال خطير

« للطبيعة » . وينبغي أن يكون للزوج على الدوام حق الطلاق ، كما ورد في التوراة . وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتخلخل انضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعي . لأن الأسرة ، وليست الدولة ، هي وحدة النظام والأخلاق ومصدرها ، فإذا انهارت وحدة الأسرة والانضباط ، فلن يملأ فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها^(٦١) . والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لسكان الأسرة وبقائها . والشريعة مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين^(٦٢) .

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو في مناقشته لأصل الدولة . فليس ثمة لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعي ، فقد تنشأ الجماعات القروية على شيء من مثل هذا الاتفاق . أما الدولة . فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى ، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكا^(٦٣) . ولم ينبع أقرار القوانين من ارادة الشعب أو سيادته ، بل من القوة النظامية للحكومة ، — ومن ثم فإن الملكية المطلقة أمر طبيعي ، فإنها في الدولة ، استمرار سلطة الأب في الأسرة الأبوية . فلن تكون هناك سيادة لآية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله^(٦٤) . وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فرارا من الفوضى التي سببتها الحرب الأهلية في إنجلترا (١٦٤٢ — ١٦٤٩) ، فإن بودين رأى في الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا ، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحه سانت برتليمو، وربما كتب بالدم الذي كان يجرى أنهارا في شوارع باريس . وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هي المحافظة على النظام ، فإن هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلي عنها .

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة ، الوارثية . هي خير أنواع الحكومات : يجب أن تكون غير مقيدة حتى لا تنتهي إلى الفوضى ، ووراثية تجنباً لشرور النزاع على العرش . فالملكية مثل السلطة الأبوية - سادت في معظم أنحاء الأرض ، لأطول مدة من الزمن ، ولقد أقرها التاريخ . على حين أن الديموقراطيات لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة فحسب ، ولكنها تنهار ، بسبب تقلب الشعب ، وعجز الموظفين الذين يختارهم ، وفسادهم وقبولهم للرشوة^(٦٥) ، وفي أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذى أدلى بالصوت) ، فإن عدد الحقى والأشغال أكبر ألف مرة دائماً من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن . د . وايس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم ، وراء ستار المساواة ، نفر قليل من الناس ، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس^(٦٦) .

واعترف بودين بأنه لا بد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظلماً . فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية ، وربما كان ذلك على أساس غير منطقي . وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد الكمال ، لا بد أن يأتي يوم تنهار فيه ، وتعزل نتيجة تغييرات لا معدى عنها ، وتتمتعز الحيلولة دون وقوعها . واستبق هيجل ، فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث : الأولى سيطرت فيها دول الشرق ، والثانية شعوب البحر المتوسط ، والثالثة أقطار شمالي أوربا . ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا ، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئاً من التقدم ولا يقع العصر الذهبي في الماضى الأسطوري ، بل في المستقبل الذى سيبنى ثمار أعظم الاختراعات على الإطلاق - وهى الطباعة^(٦٧) . وكتب ، (قبل بىكون بنصف قرن .) أن العلوم تدخر فى أعماقها كنوزاً لن تقدر على استنفادها أية عصور مقبلة قط .

وكان بودين مفكراً حراً ، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس ، (أو بالأحرى إلى العهد القديم ، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريباً) ،

مع انكار تام لحقيقة السحر والملائكة والنفوس والجن، وضرورة إقامة دولة ملتزمة مع الخصائص الخفية للأرقام . ونادى بأقصى العقوبة للسحرة ، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن ، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت ، فليس من الحكمة قمعها بالقوة ، بل أنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهراطقة إلى جانب الدين الرسمي .

أما ماذا عساه يكون هذا الدين ، فلم يفصح عنه بودين . وكان دينه مشكوكا فيه . وفي كتابه الغريب حديث سبعة رجال ، الذي تركه عن عمد دون أن ينشره ، (طبع لأول مرة ١٨٤١) ، صور كاثوليكيا ولوثريا وكلفنيا ويهوديا ومسلما ، وأبيقوريا وربوبيا ، في مناقشة في البندقية . وفازت اليهودية ، أما المبادئ المسيحية في الخطيئة الأصلية ، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها . ولم يثبت في النهاية إلا الإيمان بالله . أن نقاد بودين اتهموه بأنه يهودى وكلفنى وملحد ، وقالوا بأنه مات على غير دين « كالكلب » . ولكن الإيمان بالتوجيه الإلهي للعالم ، واضح بأجلى بيان في « الجمهورية » ، والاحساد موضوع خارج نطاق التسامح ، لأنه يهزأ بالسكون (٦٩) .

وكان بودين ، مثل هوبز ، رجلا هيايا يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب . وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه ، فكان فلسفة لعالم مضطرب معتل يتلهم على النظام والسلام . ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التي جاءت في «مقالات» ، مونتيني الذي كان أقل منه انزعاجا في تلك السنوات ذاتها . ومع ذلك فإنه منذ عهد أرسطوليس ثمة رجل ، ربما باستثناء ابن خلدون ، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع ، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق ، مثل بودين . وإن تجدد قبل ظهور « نغياتان هوبز » ، مثل هذه المحاولة الجادة لاكتشاف بعض المنطق في أساليب الدول .

٣ - هوجو جروشويوس : ١٥٨٣ - ١٦٤٥

لماذا بقي ذكر هويج جروتو عالقا بالأذهان ، على حين طوى النسيان تقريرا ذكر معظم الرواد الأول في حقله، وهو القانون الدولي (*) فقد يرجع هذا إلى أنه عاش كما كتب ، ولأنه أنف كتابه الممتاز في فترة كانت تعج بدبلوماسية نشيطة وسياسة مخوفة بالمخاطر . ولد هويج (أو هوجو) في دلفت ، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون في لندن . وامتدح سكاليجر أسلوبه اللاتيني وأثنى عليه ، وفي السادسة والعشرين حظى بتقدير بلاده له بسبب مؤلفه « حرية البحار » (١٦٠٤) الذي أوجز فيه القانون البحري ، ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد ، وبخاصة هولنده التي كانت تتحدى البرتغال التي أدعت احتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى . وعندما عين مؤرخا رسميا للمقاطعات المتحدة ألف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز تاريخا جريئا ، ولسكنه دقيق للشورة الكبرى ، ولقد رأينا يناضل إلى جانب مذهب التحرر الذي نادى به أرمنيوس في النزاع بين أولد نيار تفلدهت وموريس ناسو . فقبض عليه واعترف بأخطائه (٧٠) فحكّم عليه بالسجن مدى الحياة . وتوصلت زوجته أن تقيم معه في السجن ، فسمح لها بذلك . وبعد قرابة ثلاثة سنوات قضاها في السجن ، خباثته زوجته في صندوق للكتب ، فهرب من المعتقل ، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى عليه لويس الثالث عشر معاشا ضئيلا . وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين ، ألف جروشويوس الذي كان يعاني الفقر والعوز كتابة « قانون الحرب والسلام » (١٦٢٥) .

(*) وعلى الأخص فرانسيسكو فسكتوريا أستاذ اللاهوت في سلامنكا في « المحاضرات » (١٥٧٧) .

البريكو جنيلي أستاذ القانون المدني في أفسورد الذي استبق بكتابة « قانون الحرب » (١٥٨٨) كتاب جروشويوس « دفاع عن حرية البحار » ، ثم فرانسيسكو سورية الذي عرض في كتاب ضخمة فكرة إنشاء عصبة أمم يحكمها القانون الدولي .

رأيت أنه يسود العالم المسيحي نزعة إلى شن الحروب التي قد تجعل
عالمنا حتى اليوم المتبررة ، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب ،
أو بسبب ، حتى إذا ما حملوا السلاح ، لم يعد هناك أى احترام لقانون
سماوي أو قانون وضعي ، وكأنما أبيع للناس ارتكاب أية جرائم
دون قيد (٧١) .

كأن مكيفاللي قد ذهب إلى أن الدول لا يمكن الإبقاء أو الحفاظ عليها
إلا إذا تم من الالتزام بالقانون الاخلاقي المفروض على مواطنيها . فينبغي
على رجال الدولة - بالتفويض عادة - أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب
والقتل ، قدر ما يرون أن هذا أو ذلك مرغوب فيه ، من أجل مصلحة الدولة ،
لأن الدول ، حتى تلك اللحظة تعيش في أذغال تنازع فيها البقاء ، مثلما كانت
تعيش الأسرات قبل قيام الدول . وهي لا تعرف قانوناً إلا قانون ديانة
الذات ، . ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من ، القانون
الوضعي ، الذي سنه الانسان ، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعي
ويعرف هذا القانون « الحق الطبيعي ، بأنه هو أن ما ديمليه ويفرضه العقل
الرشيد ، ، ليكشف عن الفساد الخلقى أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال ،
باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية ، ومن ثم يوضح أن هذا
العمل يحمله الله أو يجرمه ، والله هو منشئ الطبيعة أو خالقها (٧٢) ، . وعلى هذا
يكون القانون الطبيعي هو نظام الحقوق والواجبات الذي ينبع من الطبيعة
الاساسية للانسان بوصفه كائناً عقلياً يعيش في مجتمع . فكل ما هو ضروري
لوجوده واسهامه في المجتمع حق طبيعي له ، فهو ناشئ عن طبيعته وملائم لها .
ويجب أن تلتزم الدول في تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق .

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعاً
« لقوانين الشعوب ، التي قصد بها القانون الروماني تلك التي لم تشملها المواطنة
الرومانية ، ، فلما انهارت لاميراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض . وهذا يصبح في نظر جروشيوس التجميع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التي قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية ، بحكم العرف ، في اتصالاتها المتبادلة . وعلى هذين الأساسين : القانون الطبيعي ، وقوانين الشعوب ، يبنى جروشيوس الهيكل النظري ، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولي مرغوب فيه .

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الاطلاق . وهو يدرك أن الجماعة — مثل الحيوان — اذا أحسّت بأنها مهددة في أعز ما تملك أو في حياتها ، فانها ستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة — وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون ، حتى اذا أخفقت هاتان الوسيلتان ، فأية قوة تأتمر بأمرها (٧٣) . وبناء على هذا فإن أية دولة في مثل هذه الظروف يكون لها الحق في شن الحرب دفاعاً عن حياة مواطنيها وامتلاكاتهم . ولكن الحرب عمل مجاف للعدالة ولا يمكن تبريره ، اذا شنت من أجل الغزو والفتح ، أو السلب والنهب ، أو من أجل الأرض ، أو لرغبة صادقة أو مزعومة في فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها (٧٤) . والحروب الوقائية جائزة كذلك . د نشر بعض الكتابات مبدأ لا يمكن التسليم به قط ، وهو أن قانون الشعوب يجيز لدولة ما أن تبد أعمالاً عدائية ضد دولة أخرى تثير عظمتها المتزايدة فزع الدولة الأولى . وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية ، فإنه اجراء يجوز اللجوء إليه ، ولكن مبادئ العدالة لا تؤيده (٧٥) . ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة في حروب يرون بوضوح أنها جائزة (٧٦) .

فإذا افترضنا ، حينذاك أن ثمة حرباً عادلة مشروعة ، فان لكل أمة تشترك فيها حقوقاً ، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل ، وتثار وتسترد الأرض ، وتستولى على الغنائم ، وتأسر وتستخدم الأسرى . ولكن على الأمة واجبات ، مثلما أن لها حقوقاً ، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها ، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها ، وتلتزم بمسؤولياتها فيها بصرف النظر عن عقدت معه . كما يجدر في حملات الغزو لمحافظة على حياة النساء والأطفال

والمسنين ، بل على الأصح ، غير المحاربين عامة . ويجوز استرقاق الأسرى ، ولكن لا ينبغي قتلهم . واغتبط جروشيوش لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم ، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يهودوا يستعبدون أسراهم الذين على دينهم . وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابهها من عيوب ، فإذا كان القانون الطبيعي ، أمر من أملاء العقل الرشيد ، فمن ذا الذى يحدد أى عقل هو الرشيد؟ ففى الدولة إنما تحدده الحكومة التى تملك قوة مسلحة ، فأساس الامتثال لقواعد السلوك الموصى به ، هو قدرة المشرع على فرضها فرضا . فالقوة لا تؤسس حقا بل تسن قانونا . فالقانون الدولى ينتظر هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية ، وهو أساسا لن يتضمن إلا قيودا متواضعة واتفاقات يمكن نقضها ، قبلتها الدول المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التى أبرمت فيها . وإذا عرفنا قانون الشعوب ، بأنه أعراف أكثر الشعوب تطورا فإن هذا ، مرة أخرى ، يقتضى ضمنا وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر على تحديد الشعوب الأكثر تطورا . وأين هذا المرجع الثقة؟ فى أوربا؟ فى الصين؟ فى دولة الإسلام؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها ليحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادئ والتوجيه فيها كان جهازا صالحا للوفاء بهذا الغرض .

لقد كان الكتاب غير منطقي ، ولكنه كان ضروريا . لقد شنت ألف حرب جائرة ، وكان من الخير أن يفكر إنسان فى اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التى ترتكبها الأمم المتحاربة ، طبقا لقيود مقبولة بالتبادل ، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب . ومن الخير أن يرتفع صوت ينادى بالرحمة لغير المحاربين والأسرى . وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتماسات . ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور ، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير .

أن ريشليو الذى عقد العزم على الدخول فى حرب الثلاثين سنة ، حبس عن جروشيوس المعاش الذى كان يتقاضاه ، وأوى المؤلف المعرض للبخاطر

إلى همبرج . وفي ١٦٣٣ أرسله أوكسنستيرنا إلى باريس سفيراً للسويد لدى فرنسا ، ولكن جروشيوس - شأن معظم الفلاسفة - كان أكثر إتلافاً مع أفكاره وآرائه منه مع الناس ، فكان بغضه لريشليو ، ثم لمزran من بعده ، من أن يحدد دبلوماسيته . وفي ١٦٤٥ عاد إلى النمسا الراحة والسلوى بين كتبه . ودعته الملكة كريستينا للإقامة في بلاطها ، عالماً يجزل له العطاء ، ولكنه حظى بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا . فرتبت له الملكة أمر السفر إلى لوبك ، ولكن عاصفة جنحت بالقرب إلى الشاطئ ، فعانى جروشيوس كثيراً من هول الصدمة ومن اقتضاح أمره ، وقضى نحبه في روستوك في ٢٩ أغسطس ١٦٤٥ ، وهو في الثانية والستين من العمر .

وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاماً غفرت له هولندة «تحريرته» ، وفي ١٨٨٦ أقامت له تمثالاً في مسقط رأسه . وفي ١٨٩٩ وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولي للسلام في لاهاي ، على قبره اكليلاً من الفضة . اعترافاً بأن كتابه أسهم لبعض الوقت في الحد من «لعبة الملوك» .

ه - الكاهن الأبيقوري

هلا وقفنا ، ونحن نمضي في طريقنا إلى ديكارث ، وقفه أخيرة ، انفسكر ملياً في سر الكاهن الكاثوليسكي الذي أحيا مادبة أبيقور . فكان من مظاهر التطور العقلي في أوربا أن فيلسوف اللذة اليوناني الذي ظل اسمه لعدة قرون مرادفاً للكفر والالحاد ، يلقى الآن ، وفي غمرة النور المتزايد من أرسطو ، تكريماً وتشريفاً على يدي كاهن ورع لا عيب فيه ، نباق مات من فرط تشدده في الإمساك أيام الصوم الكبير .

بدأ بيير جاسندي حياته ابناً لأحد الفلاحين بالقرب من دير في بروفانس ، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ماهياً له وهو في السادسة عشرة

الاشتغال بتعليم الأدب ، ، وفي الخامسة والعشرين تدرّس الفلسفة في جامعة أكس . ورمم كاهنا ، وأصبح قسيسا ورئيسا لسكائدرائية دين . وفي تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو وتمرينات التناقض ، . وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء ، ولكن الأجزاء التي نشرها منه في ١٦٢٤ نمت عن تأييده (لذلك ، كوبرنيكس ، و ذرية ، لو كريكس و فلسفة ، ابيقور . وهنا كانت دعسوة صارخة للاعتقاد . ولكن بيير كان شابا لطيف المعشر ، متواضع السلوك مواظبا على واجباته الدينية ، إلى درجة يبدو معها أن أحدا لم يفكر في إحراقه . أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية الحقيقتين ، - أن الفلسفة يمكن أن ترقى النتائج التي يفرضها العقل بوضوح ، على حين أنه في الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس التقليدية بوصفه ابنا باراً للكنيسة . فأصاب بيير عصفورين بحجر واحد .

وبناء على طلب من مرسن صديق ديكارت ، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكارت ويحسن أن نوجها . وفي ١٦٤٤ عين أستاذا للرياضيات في الكلية الملكية ، في باريس ، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوي ، فعاد إلى جو دين ذى الشمس الأكثر دفئا . وهناك كتب أعظم مؤلفاته ، وكما تدور حول أبيقور : الحياة السعيدة في نظرية أبيقور ، (١٦٤٧) . و حياة اللذة عند ابيقور ، (١٦٤٩) وكتاب يقع في ١٦٠٠ صحيفة على نهرين . مبادئ فلسفة ابيقور ، (١٦٤٩) .

وبينا واصل بيير تثبيت عقيدته السكائوليكية ، شرح لقراء اللاتينية فلسفة كل من ابيقور ولولكريشس - المادية والذرية وشرعية اللذة . أن العلة الأولى ، لكل شيء هي الله ، ، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التي استهل بها كل شيء وجوده) واصل كل شيء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه . وكل معرفة تنبع من الحواس ، وهي ذات وجود فردي .

أما «الكليات» أو الأفكار العامة، فهي أدوات نافعة للفكر، ولكن ليس لها ترابط موضوعي. وليس من شك في أن الروح غير مادية، وخالدة، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم. وواضح أن الذاكوة من وظائف المخ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم. ولكن أقل الملمات تغيراً وغدراً هي ملذات الذهن، فإن الرياضيات مثلاً قد يطرب لها الإنسان ويتهج بها. وكان جاسندي نفسه بطبيعة الحال «ايبيقوريا»، أي أنه ارتضى فلسفة ايبيقور، ولكنه لم ينغمس في اللذة الحسية، بل على النقيض من ذلك، اتسمت حياته باعتدال بالغ. وإثباته الحمى بعد صوم طويل أكثر مما ينبغي. وأجهز عليه أطباؤه بفصده ثلاث عشرة مرة (١٩٥٥).

وكان موليبير وسيرانودي برجرارك من بين مريديه في باريس. وارتضى فوكتنل وسانت أفرموند ونيون دي لنكلوس فلسفته دون لاهوته. وأفاد هوبز من أحاديثه معه. وربما أخذ عنه بعض عناصر علم النفس الحسي، عن طريق تلميذ جاسندي وصديق لوك، فرانسوا برنيه الذي نشر «موجز فلسفة جاسندي» في ١٦٧٨. وآثر نيوتن «ذرات» جاسندي على «جسيمات» ديكارت، ووجد عند كاهن بروفنسال تلميحا إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها (٧٧). وفي القرن الثامن عشر هيأت المادية السكامة في جاسندي وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت — نقول هيأ له هذا وتلك، بين الفلاسفة الفرنسيين، مكانة أرفع من مكانة أي مفكر فرنسي آخر، باستثناء ديكارت. إذن ما هذا الذي جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معينا لا ينضب للفلسفة الحديثة؟

٦- رينه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠

أول ما نذكره عن ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدي الجزويت. وكان هذا التعليم تقطعة البداية وحجر الشحذ عند كل المراهقة الفرنسيين، ابتداء

من ديكرت ثم فولتير ، وورينان وأناطول فرانس ، بين جدران المعبد صنعت
المعاول التي حطم بها المعبد ، (٧٨) .

ولد في لأهى ، وهى بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا . وماتت أمه السل
بعد ولادته بأيام قلائل ، وورث عنها المرض . وكان فى صباه شاحب اللون ،
يسعل سعالاً يثير الاشفاق ، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأى أمل فى إنقاذه ،
ولم تتخل عنه المرضة ياساً من بقائه على قيد الحياة ، ولكنها أمدته بالدفء
والغذاء من جسدها هى ، فعاد إلى الحياة ثانية . وربما سمي لهذا السبب ، باسم
رينيه (وهى لفظة مشتقة من أصل لائنى بمعنى ولد من جديد) . وكان والده
محامياً موسراً ، وعضواً فى برلمان رن Rennes ، وترك لابنه عند وفاته دخلاً
يقدر بستة آلاف فرنك فى العام .

والحق فى سن الثامنة بكلية « لافيش ، اليسوعية » التي يقول عنها أحد
المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين « يبدو أنها زودته بقدر
من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه فى معظم الجامعات فى
ذلك العصر » (٧٩) « وتبين معلوه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأبحر له البقاء فى
الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ ، ولحظوا أنه استغل الوقت فى اتهم
الكتب ، الواحد بعد الآخر ، وفى كل جولاته من الميتافيزيقا ، ظل يحتفظ
بإعجابه الشديد بأساتذته الجزويت ، كما أنهم بدورهم ، نظروا إلى شكوكه بشيء
من التسامح الأبوى .

وقصد فى سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبت ، ولكنه لم يجد شيئاً
ينغمس فيه ، لأنه لم يكن بعد يحفل بالنساء أو يميل لإثمن ، ولكنه بوصفه
رياضياً ضليعاً ، انصرف إلى المدرس ، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة
قضى القمار . والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات عليية فى
القانون المدنى والقانون الكنسى . وما أن استرد عافيته وقوته ، حتى أذهل
أصدقاه ، بانخراطه فى جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨) . ولما نشبت حرب
٢٠ - ٢١ الحضارة

الثلاثين عاما انضم إلى قوات هكسيميليان أمير بافاريا ، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك في معركة « الجبل الأبيض » ،

وفي غضون هذه الحملات . وبخاصة في شهور الشتاء الطويلة التي تعوق مواصلة القتل ، كان ديكرت يتابع دراسته ، وفي الرياضيات بصفة خاصة . وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) في نيوبرج بالقرب من أولم في بافاريا ، اتقى البرد بالقبوع في « موقد » (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصا له) وفيها - كما يقول هو - رأى فيما يرى النائم في ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام ، ومضات من النور ، وسمع رعداً ، وبدا له أن روحا سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة . وبعد خروجه من هذا « الموقد » (الغرفة) كان - كما يؤكد لنا - قد صاغ الهندسة التحليلية ، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة (٨٠) .

ورجع إلى فرنسا في ١٦٢٢ ، ورتب أموره المالية . ثم استأنف جولانه ، ففضى قرابة سنة في إيطاليا : فقصد من البندقية (ويقولون سير أعلى الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم لإجلاله للعدراء . ورأى رومه في فترة الضفران (١٦٢٥) ، ومر بفلورنسه ولكن لم يزر جاليليو . ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك في الريف تابع دراساته العلمية . وصحب الرياضي المهندس العسكري جيرار ديسارج في حصار لاروشيل (١٦٢٨) . وفي أخريات هذا العام قصد إلى هولندا ، حيث قضى في المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريبا ، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شؤنه المالية .

ولسنا نعلم لماذا ترك فرنسا ، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه « بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك في أشياء كثيرة (٨١) » خشى أن يتهم بالهرطقة ، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك ، مثل مرسن وبيرول . وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، أملا في أن يجد في بلد غريب عزلة اجتماعية (لافسرية) يستطيع فيها أن يشكل الفلسفة التي

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها ، ولكن لم تقلقه الحركة
النشيطة التي تطلقها القنوات - في امستردام ، وهو يقول هناك ، وسط
الجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط ، استطعت أن أعيش وحيداً بمنزلا ،
وكأنى في صحراء نائية (٨٢) . وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار
ويخفى اهتماماته هي التي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعاً وعشرين مرة في
السنوات العشرين التالية ، من فرانكر إلى امستردام إلى دنتر ، إلى امستردام
إلى أوترخت ، ثم إلى ليدن ، ولكن بالقرب من جامعة أو مكتبة عادة .
ومكثه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد
من الخدم . وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليله (١٦٣٤) أحببت له طفلة .
وإننا لنسم إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفله عند
موتها في الخامسة من عمرها . وقد نجا في الصواب إذا ظلناه فاترا لاحتركة
الأحداث الدنوية ، واسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي
يشجبها رجال الأخلاق عادة . وما كان هو نفسه ليتجرد منها ، فهو عرضة
للزهو والغضب والغرور (٨٣) .

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه . انظر إلى ما ألزم نفسه
بدراسته الرياضيات ، الفيزياء ، الفلك ، التشريح ، الفسيولوجيا ، علم النفس ،
هيتافيزيقا ، نظرية المعرفة ، الأخلاق ، اللاهوت . فمن ذا الذي يجرؤ اليوم
على أن يحول بين هذا كله ؟ ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار ،
وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية . وقدر فرص تجنبه محكمة
التفتيش أو تهديتها ، وحاول أن يهيء لفلسفته منهجا رياضيا . ولحياته
منهجا فلسفيا .

ومن أين يبدأ ؟ لأنه في مقال في المنهج ، وهو الكتاب الفذ الذي يعتبر

* كتيبه ١٦٢٩ ، ونشر في ١٦٣٧ في مجلد يتضمن كذلك بحثا في الهندسة والانكسار
والشهب ، ثم أعقبه في ١٦٤١ كتاب « تأملات في الفلسفة الأولية » ، ثم كتاب =

فاتحة عصر جديد ، أعلن عن أول مبدأ « كان يمكن ، في حد ذاته ، أن يقيم عليه الدنيا ويقعدها ويشير عليه غضب أولى الأمر ، وهكذا كان . فقد كان الموضوع مكتوباً في لغة فرنسية واضحة متميزة ميسرة ، في صيغة المتكلم الحية الساحرة . لقد أحدث ثورة كبيرة في التفكير ، وقال ديكارت أنه كان سعيداً يبنذ كل النظريات والمبادئ والتعاليم ، ويطرح كل جهد ومرجع ، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو . وسيداً بصفحة جديدة خالية من أى شيء ، ويترك في كل شيء . » إن السبب الأساسي في أخطائنا يمكن في أهواء طفولتنا^(٨٤) . . . فالمبادئ التي اعتنتها في شبابي ، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها ،^(٨٥) .

ولكنه كيف يمضى قدماً ، إذا ساوره الشك في كل شيء ؟ . ولما كان مولعاً بالرياضيات ، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحويلها ، فقد تأقت نفسه ، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس . « إن أرشميدس ، لكي يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكاتها وينقلها إلى مكان آخر ، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك ، وأنا بالمثل ، سيكون لي الحق في أن استبشر خيراً كثيراً إذا أسعدني الحظ ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لا نزاع فيه^(٨٦) . » دو أكد على هذه النقطة متهللاً : « أنا أفكر . فإذاً أنا موجود^(٨٧) » . وهذه أشهر عبارة في الفلسفة* ولم يقصد بها أن تكون قياساً

« مبادئ الفلسفة » في ١٦٤٤ وجاء بعده « رسالة في انفعالات النفس » في ١٦٥٠ ،

دراسة الإنسان» ١٦٦٢

* كان سانت أوغستين قد استخدم نفس نقطة البداية هذه ، عند محاولته دحض آراء المتشككين الوثنيين الذين أعلنوا الشك في كل شيء . ولكنه تساءل : من ذا الذي « يشك في أنه يمشي ويفكر ؟ » « لأنه إذا كان يشك فهو يمشي (٨٨) . »
وإستخدام مونتيني نفس الحججة ضد المتشككين المتطرفين اليونان (أنصار برو ٣٦٥-٢٨٥ ق . م) في « معدرة إلى ريموند سييوند » وكان ديكارت قد قرأ مونتيني

منطقياً ، بل خبرة مباشرة لا سبيل لانكارها ، وهى أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها ، وتكون سائر الأفكار صحيجة ، على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية - الادراك الحسى المباشر، من حيث الجلاء والوضوح . وكان «منهج» ديكارت الجديد فى الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها ، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية ، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من . أو تعتمد على ، الشعور الأول لكائن يفكر . أننا على العكس ، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الادراك الحسى الأول كل المبادئ الأساسية فى الفلسفة .

ومرة أخرى كانت ثورة فى الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية ، لا الأشياء الخارجيه المفروض أنها معروفة ، بل الذات الواعية . لقد اكتشفت فلسفة النهضة « الفرد » ، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل فى فلسفته . ولأنى لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شئ أسير على أن أعرفه ، من عقلى أنا^(٨٩) ، ولإدائها بالمسادة ، وسرنا قدما عبر مستويات الحياة العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي . ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده . والعقل فقط هو الذى يمكن معرفته أو أدراكه مباشرة (دون واسطة) . وهنا تبدأ المثالية ، لابعناها الأخلاقي ، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحفيقه المباشرة للأفكار ، أكثر مما تبدأ بالأشياء التى تعرف عن طريق الأفكار . وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعه المعرفة الإنسانية ومداه^(٩٠) . ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان «العالم الخارجى» موجوداً إلا كمجرد فكرة . وكما كان من العسير أن نعبّر من الجسم إلى العقل ، بنظرية تقدر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان ، وطبيعة الأفكار التى يبدو أنها طبيعة غير مادية ، فإن ديكارت كذلك ، وقد بدأ بالنفس ، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء . فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التى يبدو أنها تدلل على عالم خارجى ، ليست شيئاً أكثر من حالته هو (أى العقل) ؟

وكيف يصدق الحواس التي غالبا ما تخدعنا وتضلنا ، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون « زائفة » في النوم ، قدر اشراقها عندما تكون « حقيقية » في اليقظة ؟ .

ومر بامن سجن النفس « الأناثة » ، يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقول أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة . ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان ؟ إن ديكارت لا يستطيع اثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي ، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي . ولذلك أخرج ديكارت « الله » من « النفس المدركة » ، تماما مثل فعل آسلم في « البرهان الوجودي » ، قبل ذلك بستة قرون . وهو يقول : إن لدى تصور الكائن كامل مثالي قدبر علم ، ضروري ، خالده ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد ، وعلى ذلك فإن الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته . ومن الذي كان يستطيع أن يدك في هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ « ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله ، إذالم يكن الله موجوداً حقا » (٩١) . وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملا ومن ثم فإنه لا يضلنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية ، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي . « لست أدري كيف يمكن الدفاع عنه سبحانه ، أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية . ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة » (٩٢) ، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة ، بين الذات والموضوع . يصبح ديكارت ، بعون من الله ، واقميا . والعلم نفسه - إيماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام ، مطيع للقانون ، يمكن التعرف عليه واحصاء ما فيه - يصبح أمراً يمكننا ، لا لشيء إلا لأن الله موجود ، وحاشا الله أن يكذب .

ولإننا إذ نتبع ديكارت لنشهد « عصر العقل ، في طفولته يتراجع فزعا من مغامرات الفكر ، محاولا الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة . ورغبة

في بث الطمأنينة من جديد أطلق على « التأملات » : تأملات رينيه ديكارت في فلسفه أولى ، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس . وأهدى الكتاب إلى « الحكيم الألمعي عميد كلية اللاهوت المقدسة في باريس » ، أي السوربون . وتقبل العميد الهدية ، ولكن في ١٦٦٢ أدرج الكتاب في قائمة الكتب المحظورة ، حتى يتم تصحيحه . . . وبدأ الكتاب على نفس النسق الجريء الذي بدأت به « المقالات » « اليوم . . . وقد هيأت لنفسي انقطاعاً كيداً لرياضة روحية هادفة ، فلسوف أنكب أخيراً ، انكباً بمنطلقاً جاداً ، على استعراض عام لكل آرائى السابقة^(٩٣) . . . لقد ألقى بها جميعاً من النافذة ، ثم أجاز لها الدخول من الباب . ولم يكن من بين هذه الآراء ، إيمانه بالله عادل قدير فحسب ، بل كذلك إيمانه بارادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان . ومما صلنا بمنطق العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة في عالم المادة والجسد ، فان حرية إرادتنا فكرة من إحدى الفكرات الفطرية المتأصلة ، الواضحة الجليلة ، الحية المباشرة ، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط ، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أى الفكرات) في النظريات المجردة^(٩٤) .

أن فكرة الله ، وفكرة النفس ، وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة ، والبداهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة ، معنى أن النفس لا تستمدّها من الاحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلانيتها .

(وهنا قد يعترض لوك ، ويوافق كانت) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعية حتى تخرجها الخبرة في صورة واعية ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجاً للخبرة ، بل شريكها النشط المبدع في إنتاج الفكر .

أن هذه النفس العقلانية « القدرة على التعقل » ، واضح أنها غير مادية ، وليس لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة^(٩٥) . « إني أنا ، أى النفس التي أنزلها كما أنا عليه الآن ، هي أساساً متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها بما نعرفه^(٩٦) . . . وعلى ذلك فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولا بد أنها تبقى .

ترى هل كانت تلك النتائج القويمة التي انتهى إليها ديكارت صادقة مغلصمة ، أو أنه أضفى عليها لونا وقائما ؟ . هل كان ديكارت تواقا إلى متابعة دراسته العلمية في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب ، إلى حد أنه كان ينفث الميتافيزيقا مثل عمداوة مر بكة تحول دون انقضاء الطيور الجارحة عليه ؟ لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد . وقد يتسنى لامرء أن يكون عالما فاضلا على الأقل في الفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، إن لم يكن في البيولوجيا - وفي نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية في المسيحية . وفي إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي ، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة^(٩٧) . وتتم رسائله مع اليزابث أميرة البالاتين ، في أسلوب فصيح عن التقى والتمسك بالصراف المستقيم . وزاره سالامبوس في ليدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه « كاثوليكي غيور جدا »^(٩٨) .

على أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته للعلم . وحول داره إلى معمل ، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء ، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة ، أشار يكارث إلى ربيع عجل كان يقوم بتشريحه^(٩٩) . وكان في بعض الأحيان يتحدث ، كما تحدث بيكون ، عن الفوائد العملية - الهائلة التي يجنيها الجنس البشري حين يستطيع العلم أن يجعل الناس سادة الطبيعة والمسيطرين عليها^(١٠٠) ، وكثيراً ما أدى توكيده الذاقى على الاستنباط وثقته فيه ، إلى نتائج غامضة . ولكنه - اشتغل شغلا خلاقاً بعدة علوم . وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التي سادت علم الفيزياء ، في العصور الوسطى : لإيضاحات كمية مصوغة في صيغ رياضية . ولقد شهدنا تطويره للهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائى . وحل مشاكل تضعيف المسكب وتثليث الزاوية . وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المألومة ، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المجهولة . ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلا عن سنل Snell . وحالفه التوفيق في دراسته القوي العظمى التي تحدثها وسائل صغيرة ، مثل البكرة

والأسفين والرافعة والملزمة والمعجلة ، وصاغ قوانين القصور الذاتي والتصادم
وكمية التحرك ، وربما أوحى إلى بسكال بأن الضغط الجوي ينخفض
بالارتفاع (١٠١) ، ولو أنه أخطأ في إعلان أنه لا يوجد ثمة - فراغ إلا في
عقل بسكال (١٠٢) . وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة
تدور حوله - في طبقات كروية - وهي فكرة تعبئه نظرية المجال المغناطيسي
الحالية . وفي البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار ، وحل
التغيرات التي يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البلورية للعين ، وحل مشكلة
تصحيح الزيغ الكروي في التلسكوب ، وصمم عدسات ذات تقوس يبضى الشكل
أو زائدي المقطع ، خالية من هذا الزيغ (١٠٣) .

وشرح جنينا ، ووصفه من الوجهة التشريحية ، وهو يقول أنه شرح رؤس
حيوانات مختلفة ليتحقق في أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما (١٠٤) .
وأجرى تجارب على الفعل اللاارادي أو المنعكس ، وشرح الطريقة (الميكانيكية)
التي تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة (١٠٥) . ووضع نظرية
للانفعال شبيهة بتلك التي وضعها وليم جيمس وكارل لاج : إن السبب الخارجي
للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو آتياً فعلاً
هستجيبياً (الهرب) والاحساس المرتبط به (الخوف) ، فالانفعال هو إنجاز
الفعل لا سببه . والانفعالات متأصلة في الفسيولوجيا . ويجب دراستها وتفسيرها
على أنها عمليات ميكانيكية ، وليست في حد ذاتها سيئة لأنها الريح في أشرعتنا
ولكن إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها ، فإتها قد تستعبد الانسان وتدمره .

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكياً ، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض
ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش ما لثتان أمام عينيه - على
أنها مجرد فرض : فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة ، فيمكننا
أن نقول أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا ، دون تدخل . إن
الحركة الطبيعية للجسيمات المادية في كون ليس فيه فراغ ، تأخذ شكلاً دائرياً
يؤدي إلى دوامات مختلفة من الحركة . ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات في مركز هذه الدوامات ، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة - وهذا يفسر التماسك والتجاذب - فإن كل كوكب كذلك محصور في دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه في مداره ، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس في دوائر . وكانت نظريه بارعة ، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل .

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لسكان في مقدورنا أن نحول - لا الفلك والفيزياء والكيمياء ، فحسب - بل كل عمليات الحياة ، باستثناء العقل ذاته ، نحوها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية ، انظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً في اكتشاف هارفي للدورة الدموية . وطبق ديكارت ، في ثقة تامة ، فكرة الميكانيكية ، على كل عمليات الحيوانات ، لأنه أبى أن يخلع عليهما القدرة على التفكير العقلي . وربما أحس بأنه مضطر ، من الوجهة الدينية . الى ظلم الحيوانات على هذه الصورة ، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلائي ، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك ، لسكانت هي الأخرى باقية أو غير فانية ، وربما كان في هذا ازعاج ، إن لم يكن لهواة الكلاب ، فهو على الأقل لرجال اللاموت .

ولكن إذا كان جسم الانسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادى أن يعمل فيه . أو يحكمه بقوة غير ميكانيكية . مثل الارادة الحرة ؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته ، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود . وربما أرتأى أن العقل يعمل في الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعه بشكل مناسب في قاع المخ .

وكان أكثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته ، أنه طلب من مرسل أن يبعث مقمداً بنسخ من كتاب « التأملات » ، إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لارسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه ، ورداً على ذلك دحض

جا سندی آراء ديكارت في كياسة فرنسية^(١٠٦). فإن الكماهن لم يفتنح بحجة ديكارت الوجودية عن وجود الله. أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ. ويقول أوربري بأن هوبز بصفة خاصة كان يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة في العالم، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة^(١٠٧). وانفق هيجينز مع هوبز، وذهب إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا.

والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف في أول منهج حديث جرى للفلسفة. أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية، ساقطت ديكارت إلى طريقة استنباطية، اعتمد فيها في طيش زائد، برغم تجاربه، على نزعتهم إلى الاستنباط. وانه لعمل انتحاري أن نجعل من وضوح أية فكرة وجلالتها وبهائها وبداهتها اختباراً لصحتها، فن ذا الذي يحس على هذا الأساس، على إنكار دوران الشمس حول الأرض؟ والمحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كائن لانهاى بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح؟)، ثم المحاجة بأن الأفكار الواضحة المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا، إن هي الا ضرب من التفسكير دائرى غامض مثل مدارات كواكب ديكارت. إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكو لاسية العصور الوسطى، التي نصحت بنبذها. إن شك موتيني كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذي لم يفعل إلا أن زحزح المرء التقليدى ليفسح مكاناً لمرائه هو.

ومع هذا كله، بقي في علم ديكارت، أن لم يكن في « ميتافيزيقاه، ما يشيع في نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب. فإن نظريته في ميكانيكية الكون « تركت المنعجزات والارادة الحرة في موقف خطر ومازق حرج، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم. أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية ١٦٢٣) طرح جانباً مؤافه الضخم « العالم، الذي كان قد اعترم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التي توصل إليها، وكتب، وقلبه يقطر أسى وحنناً، إلى مرسن:

لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر في نفسى ، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتى ، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار... وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة . فإن كل مبادئ فلسفتى عن ميكانيكية العالم خاطئة ... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا ... ولكنى على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تفضب الكنيسة . (١٠٨) وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطه « العالم » .

ولم يأت الهجوم (فى حياته) من الكنيسة الكاثوليكية ، بل من رجال اللاهوت الكالفينيين فى جامعتى أوترخت وليدن . فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسمى إلى القضاء والقدر ، كما رأوا فى ميكانيكية الكون ، فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد ، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير بمجرد قوة دافعة يبدأ بها الله ، فما هى إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلاكية أو الأولى هذه . وفى ١٦٤١ ، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت ، أغرى رئيس الجامعة ، جسيرت فوشوس ، ولاة الأمور فى المدينة بإدانة الفلسفة الجديدة وتحريمها . فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوماً على فوشوس ، الذى رد عليه رداً عنيفاً ، وعاود ديكارت الكرة ، وقارعه الحجج بالحجة . وفى ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للشول أمامهم . ولكنه رفض ، وصدر الحكم عليه . فتدخل أصدقاؤه فى لاهى ، فقنع أولو الأمر فى المدينة بإصدار قرار يحظر أية مناقشة علنية تأييداً أو تفنيدياً لأراء ديكارت .

ووجد بعض السلوى فى صداقته مع الأميرة اليزابث التى كانت تقيم فى لاهى مع والدتها اليزابث ناخبة البلائين ملكة بوهيميا المخلوعة . وكانت الأميرة فى التاسعة عشرة حين ظهر كتاب « المقالات » ، ١٦٣٧ ، فقرأته فى دهشة مزوجة بالابتهاج والسرور بما رأته أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها ، والتقى بها ريكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تنقسم

بالجمال . وأهدى إلى الأميره الصغيرة كتابه مبادئ الفلاسفة ، وكتب كلمة الأهداء في لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور . وماتت حيث كانت رئيسة دير للرهبان في وستغاليا (١٦٨٠) .

ولم يطلب المقام لديكارت في هولنده ، كما كان من قبل ، فكان كثير التردد على فرنسا : (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) . وآثار فيه الروح الوطنية . عاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (١٦٤٦) . واحتال للحصول على أحد المتاصب الإدارية ، ولكن اقتراب نشوب الحرب الأهلية (حرب الفروند) عاد به إلى هولنده ، فزعا . وفي فبراير ١٦٤٩ تلقى دعوة من كريستينا ملكة السويد ، ليحضر ليلقتها الفيلسوف . وتردد في قبول الدعوة ، ولكن سحرته رسائلها التي تمت في لغة فرنسية ممتازة ، على ذهن متلمف ، انحاز بالفعل إلى د البهجة الغالية ، (فلسفة ديكارت) . وبعثت إليه بأحد أمراء البحر يستميله ، ثم بيارجة حربية لتقله ، فاستسلم وأبحر في سبتمبر من أمستردام إلى ستكهولم .

واستقبل بكل مظاهر الخفاوة والتكريم ، ولكن أزهجته رغبة الملكة في أن تتلقى الدروس ثلاث مرات في الأسبوع ، في الساعة الخامسة صباحاً ، وكان ديكارت قد تعود أن يبقى في فراشه إلى وقت متأخر ، والنزم بالمواعيد التي حددتها الملكة طيلة شهرين ، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة في فجر الشتاء وتلوجه ، وفي أول فبراير ١٦٥٠ اتنا به برد انقلب إلى التهاب رئوى ، وفي اليوم الحادى عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأسرار المقدسة الكاثوليكية الأخيرة .

وكان قد اتخذ لنفسه شعاراً ، هو د يعيش سعيداً من يتوارى عن الأنظار ويتكتم كثيراً ، . ولكن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل موته بعدة سنوات . لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة في

تقواه ، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزيائه ، ولكن دنيا الاناقة في باريس ، أقبلت في سرور بالغ على مؤلفاته التي كتبها في لغة فرنسية مشرقة جذابة . وسخر هولبير من « السيدات العالمات » اللاتي تبادلن أبناء الدوامات في الصالونات ، « ولكنهن لم يطقن الفراغ ، وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب ، وكانوا قد أسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت^(١٠٩) ، ولكنهم بعد ١٦٤٠ ، لم يعودوا يظلمونه بجهايتهم . وكان لهم في ١٦٦٣ ضلع في ادراج مؤلفاته في قائمة الكتب المحظورة . ورحب بوسويه وفتلون ببراهين ديكارت على المبادئ الأساسية في المسيحية ، ولكنهم رأوا في تأسيسها على العقل خطرا على العقيدة ، واستنكر بسكال الاعتماد على العقل ، على اعتبار أن هذا العقل ريشة في مهب الريح .

ولكن اعتماد ديكارت على العقل ، هو الذي ، على وجه الدقة ، أيقظ ذهن أوربا ، وأوجز فونتنل الأمر بقوله « أن ديكارت . . . هو الذي أمدنا بطريقة جديدة للتفكير . تدعو إلى الإعجاب أكثر مما تدعوها فلسفته ذاتها ، تلك التي يحتورها قدر كبير من الزيف والشك ، وفقا للقواعد التي علمنا أياها هو نفسه^(١١٠) » . إن شك ديكارت أدى لفرنسا — أو للقارة بصفة عامة — ما أداه ليكون لانجلترا : — أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر في جراءة وشجاعة في بحر مكشوف ، حتى ولو أنها ما لبثت أن عادت ، عند ديكارت نفسه إلى شاطئ الأمان المألوف . ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل ، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة في أزهي عصور فرنسا ، وهو « القرن العظيم » أي عصر لويس الرابع عشر ، أنها كانت حقبة بورت رويال وبسكال وبوسويه ، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت . أما تلك الحقبة نفسها في هولنده فهي عصر سبينوزا وبيلى ، وفي انجلترا عصر هوبز ولوك . أن الزرع كان يخرج شطاه .

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن في فرنسا . إن

أسلوبه كان ابتداءً متعشاً . وهنا كانت الفلاسفة بلغة قومية في تناول الجميع بشكل خطير ، وقلما يتحدث فيلسوف بمثل هذه الألفاظ الساحرة وهو يعدد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التي يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية وماآثرها . ولم يكن كتاب « مقال في المنهج » مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسي . بل أنه كذلك ضرب ، للعصر الزاهر في فرنسا ، مثلاً ، في لغته وأفكاره ، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال في الآداب والفنون والسلوك والحديث . وتلامم توكيده على الأفكار الواضحة الجليلة مع الذهن الفرنسي ، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسي بوالو :

« أحب العقل لذن ، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده » (١١) .

وبانت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التي تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسي بعض الشيء من ديكارت ، فإن من أوجه وآلياته (ميكانيكية) لم يتركها للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق . إن فوزى رابليه المهتاجة واستطراد مونتيني الذي لا ضابط له ، بل حتى الاضطرابات العنيفة في الحروب الدينية ، أن هذه كلها أفسحت المجال ، بعد ديكارت ، لمناقشات كورني العقلانية ، وأوحداث راسين العارمة ، ولتقوى بوسويه المنطقية ، وقانون الملكية والبلاط ونظامهما وشكلهما وسلوكهما في عهد لويس الرابع عشر . وأسهم ديكارت ، عن غير قصد منه في ابتداء طراز جديد في الحياة الفرنسية ، كما فعل في الفلسفة سواء بسواء .

وربما كان أثره في الفلسفة أعظم من أثر أى مفكر آخر قبل كانت . لقد استقى مالبرانش منه ، وتلمذ سبينوزا على منطلق ديكارت ، واكتشف نقاط الضعف فيه هند شرحه . وقد « المناقشات » ، في نبذة عن سيرة حياته بعنوان « تجسسين التفاهم » ، وتبنى المثل الأعلى الهندسى في كتابه « الأخلاق » ، وبنى بحثه في « استرقاق الإنسان » ، على بحث ديكارت درسه آلة في انفعالات النفس .

وبدأت تقاليد المثالية في الفلسفة الحديثة ، من بركاى إلى نخت، بتوكيد ديكرات
على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر ، مثلما انحدرت
تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبينسر . ولكن ديكرات قدم للمثالية تزيافا
— مفهوم كون موضوعى ميكانيكى تماما — فإن محاولته لفهم العمليات .
العضوية وغير العضوية ، سواء بسواء ، على أساس ميكانيكى، هيأت للبيولوجيا
والفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية . وتحليله الميكانيكى للاحاساس
والخيال والذاكرة والإرادة ، أصبح ، هينا لا ينضب لعلم النفس الحديث .
وبعد أن دعم القرن السابع عشر فى فرنسا العقيدة القويمة بديكرات ، وجدت
استثارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة فى شكك المنهجى ، وفى اعتماده على العقل ،
وفى تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء (١١٢) . إن
اعتداد الفرنسى — المخترب بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط ، كان يبرره أثره
المتزايد على ذهن الفرنسى .

إن المناظرة الكبرى ، بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلا واعياً .
ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط . إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام
التسعين من ١٥٥٨ - ١٦٤٨ ، من اليزابث إلى ريشليو ، ومن شكسبير إلى
ديكرات ، لأدركننا أن كل القضايا المستحوزة على الأذهان لاتزال محصورة فى
المسيحية ، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على انجيل قبله الجميع على
أنه كلمة الله ، وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن
أن توضع موضع الاختبار ، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق
للطبيعة .

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مهيمنة فى
إسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة . أما فى
إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية ، وأضفت بالفن على
الحياة شيئاً من الجمال ، وزينت الأخلاقيات بالأمل ، ولدت تحت فرنسا حلا وسطاً ،
وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب ، كاثوليك أو هيونوت ، على

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح في الشك ، مرجئة التقى والورع إلى دنو الأجل المحتوم . وقامت في الأراضي اللوطينة تسوية جغرافية ، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكتلكة ، وانتصرت الكلفنية في الشمال . وأنقذ البروتستانتية في ألمانيا كاردينال فرنسى ، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم ، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا ، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمى في اسكندناوة ، ولكن ملكة السويد آثرت طقوس رومة ، واقتрحت الزباث في إنجلترا اتحادا كريما بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية ، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التي تفرقت شيعا أبرزت جيوتها وغامرت بحياتها .

وفي غمرة تناحر الجيوش والمذاهب ، كانت « دولية العلوم » تكافح للاقلال من الخرافة والخوف . كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر ، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشرى ، وتصلح التقويم ، وتبتدع الهندسة التحليلية ، وكانت تحلم ، لفورها ، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية . وكان تيكوبراهى قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التي مكنت لكبلر من صياغة قوانين حركة الكواكب ، التي أنارت الطريق أمام نيوتن لييصر بقانون كوفى عام واحد . وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع ، بمناظيره المقربة التي كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار ، وفي قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ في قالب مسرحى . وفي مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الاعدام حرقا حتى الموت ، فى محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس ، كما أن فرانسيس بيكون الذى يدعو ذوى العقول المفكرة إلى العلم ، كان يخطط مهام

٣٠ - ٢٢ الحضارة

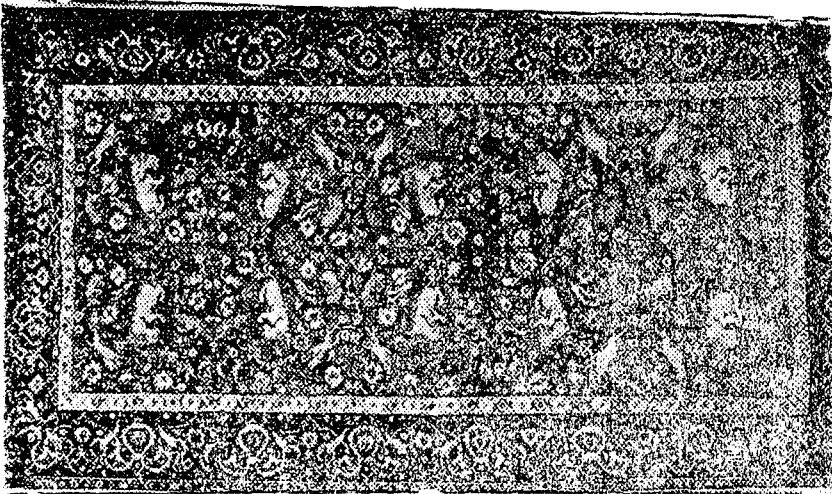
العلوم ومسئولياتها لعدة قرون مقبلة ، أما ديكرات ، بشكه العام الشامل ، فقد ألقى على عصر العقل عبثا جديدا . وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعا لتقلبات العقيدة . وتأثر الأدب نفسه بالصراع ، وكان لآراء الفلاسفة صداها في شعر مارلو وشكسبير ودون . وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذي أهاج ذهن أوروبا وحوله ، بل ربما ذهن العالم بأسره .



فرانس هالسن - متحف اللوفر بباريس (ص ٨٠)



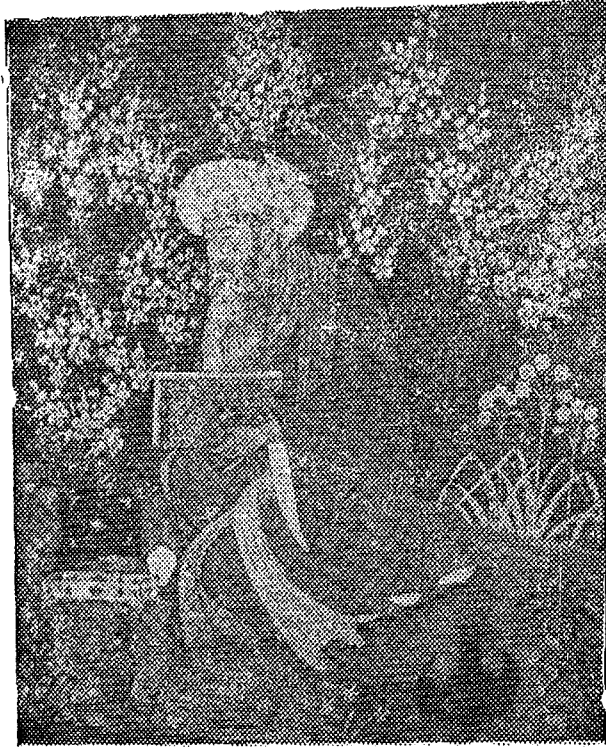
أنتوني فاندريك - متحف ميونخ (ص ٦١)



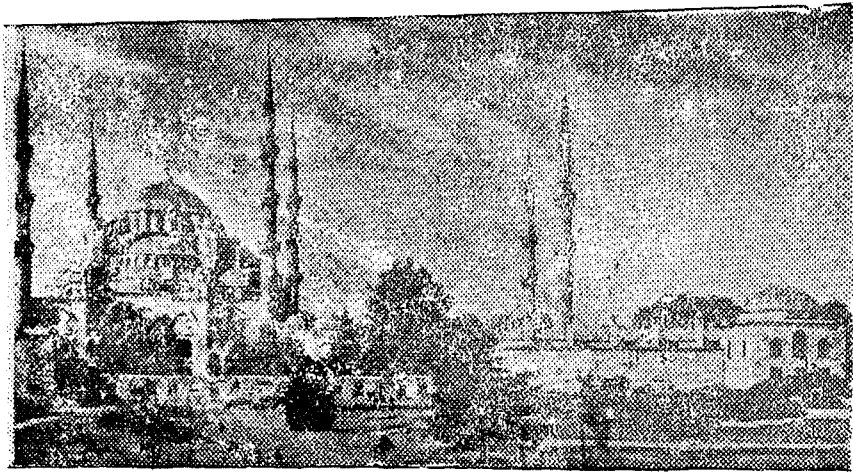
سجادة عجمي - متحف القزوينيان بنيويورك (ص ١٦٤)



استیفن ہاشوری ملک ہواندا (ص ۱۱۶)



شماره يجلس في الحديقة بأصفهان (ص ١٦٠)



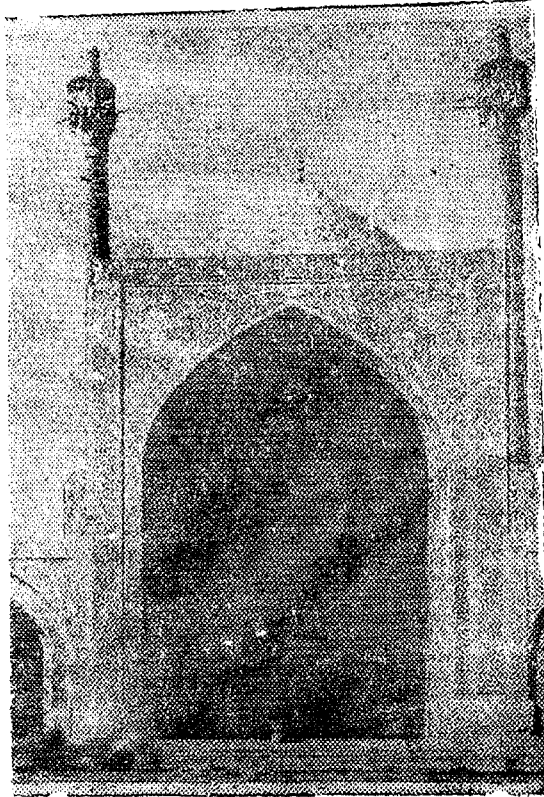
جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية (ص ١٣٩)



الشاہ عباس الاکبر (ص ۱۴۸)



جاليليو - متحف الفن بفلورنس (ص ٢٦٤)



مدخل ميدان مسجد الشاه بأصفهان (ص ١٥٢)

المراجع

CHAPTER XVII

1. Geyl, *Rcvolt of the Netherlands*, 16
2. Sombart, *The Jews and Modern Capitalism*, 65; Sèe, *Modern Capitalism*, 31.
3. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, I, 217; Janssen, *History of the German People* VIII, 13.
4. Motley, I, 217.
5. Janssen, VIII, 14f.
6. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxvi, in *Works*, XIVb.
7. Motley, I, 207.
8. Ibid., 206.
9. Blok, *History of the People of the Netherlamds*, III, 11; Motley, I, 375f.
- 10/ Ibid., 283.
11. Geyl, 78.
12. Ibid., 86.
13. Janssen, VIII, 19.
14. *Cambridge Modern History*, III, 200.
15. Acton' *Lectures*, 144.
16. Motley, I, 453-4.
17. Ibt'd., 465-8.
18. *Camb. Mod. History*, III, 207-8,
19. Motley, I, 478f.
20. Janssen, VIII, 23,
21. Motley. I, 526.
22. Janssen, VIII, 25.
23. Prescott, *Philip II*, II, 161.
24. Blok, III, 42,
25. Pastor, *History of the Papes*, XVIII, 97.
26. Blok, III, 51.
27. Pastor, XVIII, 101.
28. Motley. I, 628; Janssen, VIII, 123.
29. *Camb. Mod. History*, III, 232.
30. Motley, II, 72-4.
31. Geyl, 128; Lacroix, *Military and Religious Life in the Middle Ages*, 440.
32. Motley, II, 40.
33. Ibid., 101.
34. Voltaire, *Esssai*, ch. cxxxvi; *Works*, p. 294; Hume, *M., The Spanish People*, 372.
- 35, Pastor, *Popes*, XX, 3.
36. Motley, II, 151.
37. Ibid., 169.
38. 515.
39. Geyl, 165.
40. Ibid., 130.
41. 128.
42. *Camb. Mod. History*, III, 250.
43. Blok, III, 121-3.
44. Geyl. 162; Pastor, XX, 9.
45. Motley, II, 646.
46. Robinson. J. H., *Readings in Europeam History*, 325; Motley, II, 637.
47. Figgis, *From Gerson to Gro-tius*, 228.

48. *Camb. Mod. History*, III, 258.
 49. Blozø, III, 179.
 50. *Ibid.*, 239.
 51. Geyl, 206, 215, 231; Ranke *History of the Popes*, II, 221.
 52. Blok, III, 415.
 53. *Camb Mod History*, III, 646.
 54. Blok, III 413,
- CHAPTER XVIII
1. Robinson, *Readings*, 556.
 2. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 331.
 3. Vienna.
 4. Prado.
 5. Brussels, Vienna, Louvre.
 6. Brussels.
 7. Rooses. *Rubens*, I, 9.
 8. Pitti Gallery, Florence.
 9. Uffizi Gallery, Florence.
 10. Grenoble Museum.
 11. Rooses, I, 638
 12. Burckhardt, *Recollections of Rubens*, 21.
 13. Janssen, XI, 161.
 14. Dresden.
 15. Knackfuss, H., *Van Dyck*, 4.
 16. Munich.
 17. Lichtenstein Collection, Vienna.
 18. Vienna.
 19. Geneva.
 20. Munich.
 - 21, London.
 22. Pitti Gallery.
 23. Dresden.
 24. Louvre.
 25. Vienna.
 26. Madrid.
 27. Vienna, Madrid.
 28. London.
 29. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 105.
 30. Antwerp.
 31. Fülöp-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 422.
 32. Munich.
 33. Hartford, Conn.
 34. Antwerp
 35. Antwerp cathedral and Brussels Museum.
 36. Vienna.
 37. Vienna.
 38. Sarasota, Fla.
 39. Rooses, *Rubens*, I, 395.
 40. *Ibid.*, 417.
 41. Pitti Gallery.
 42. Boston.
 43. Rooses, I, 414.
 44. Munich.
 45. Munich.
 46. Hamburg.
 47. Vienna.
 48. Munich.
 49. Munich.
 50. Louvre.
 51. Brussels.
 52. The Hague
 53. Frick Collection, New York.
 54. Windsor Castle.
 55. Burckhardt, *Recollection*, 15.
 56. Rooses, I, 600.
 57. Louvre.

58. Vienna.
59. Knackfuss, 8.
60. Munich.
61. Frick Collection.
62. Brussels.
63. Detroit.
64. Munnich.
65. Vienna.
66. Antwerp.
67. Knackfuss, 9
68. Pitti Gallery.
69. Wallace Collection, London.
70. Lovure.
- 71, Vienna.
72. Vienna.
73. Lichtenstein Gallery, Vienna.
- 74 Knackfuss. 76.
- 75 New York.
76. Ibid.
77. Frick Collection, New York.
78. Fitzwilliam Collection.
- 79 Dresden.
80. Munnich.
- 81, Uffizi Gallery.
82. Blok, III, 333, Mousnier, 160.
83. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 5.
84. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 107.
85. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 123.
86. Gooch, *Democratic Ideas*, 45.
87. Geyl 211.
88. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 412.
- 89 Geyl, 238; Blok, III, 354.
90. Fischer. K., *Descartes and His School*. 212.
91. Taine, H., *Lectures on Art*, 322.
92. *En Br.*, X, 498d.
93. In Taine, *Lectures*. 183.
94. Day, Clive, *History of Commerce*, 200
95. Sée, *Modern Capitalism*, 32.
96. Wilenski, R. H., *Dutch Painting*, 132
97. Baedeker, K., *Belgique et Hollande*, 383
98. Chute, *Ben Jonson*, 301.
99. Geyl, 206.
- 100 Honey, W.B, *European Ceramic Art*, 31.
101. Wilenski, *Dutch Painting*, 10.
102. Taine, *Lectures*, 333
103. Hausen, *Social History of Art*, I, 457.
- 104 Davies, G.S., *Frans Hals*, 19.
105. Amsterdam.
106. Haarlem.
107. Lord Northbrooke Collection.
108. Wallace Collection.
109. Devonshire House.
110. Haarlem.
111. Haarlem.
112. Haarlem.
113. Haarlem.
- 114 Amsterdam.
115. Antwerp.

116. Haarlem.
117. Berlin.
118. Louvre
119. Cassel
120. Mather, F. J., *Western European Painting of the Renaissance*, 461.
121. Chicago.
122. Berlin.
123. New York.
124. The Hague
125. Michel, E. *Rembrandt*, I, 63
126. Amsterdam
127. The Hague
128. The Hague
129. The Hague
130. Duke of Devonshire Collection.
131. Rothschild Collection.
132. Leningrad.
133. Louvre
134. New York.
135. Brussels.
136. Amsterdam.
137. Michel, *Rembrandt*, II, 214.
138. Edinburgh
139. Louvre.
140. Louvre.
141. London
142. Berlin
143. Cassel.
144. Berlin.
145. New York.
146. Washington.
147. Leningrad.
148. London.
149. Glasgow.
150. Cassel.
151. Still with the Six Family in Amsterdam.
152. Berlin
153. Fick Collection.
154. Wallace Collection
155. Beard, *Museum of the Business*, 16.
156. Marcus Kappel Collection, Berlin
157. New York
158. Louvre,
159. Amsterdam.
160. Leningrad
161. Amsterdam.
162. Froment in Wilenski, *Dutch Painting*, 93.
163. Self-portrait in the Louvre.
164. New York.
165. I de Bruyn Collection.
166. Rathenau Collection.
167. In Michel, *Rembrandt*, I, 259.
168. Wilenski, *Dutch Painting*, 93.
169. Ibid.
170. Meier-Graefe, *Spanish Journey*, 313.

CHAPTER XIX

1. Gage, *Tycho Brahe*, 150.
3. Verner, *Copenhagen*, 3.
3. Ranke, *Popes*, II, 150

- 4 Fletcher, C R., *Custavus Adolphus*, 15.
5. Bain, F W., *Christina, Queen of Sweden*, 8.
6. Fletcher, 43.
7. *Camb Mod History*, IV, 187.
8. Wedgwood, C. V., *Thirty Year's War*, 273.
9. Fletcher, 27.
10. Bain, 28.
11. *Ibid.*, 10.
12. 42.
13. 162
14. 96
15. 97.
16. 95
17. 166.
18. Pascal, *Provincial Letters*, introduction, 25.
19. Ranke, *Popes*, II, 355.
20. Ortega y Gasser, *Toward a Philosophy of History*, 18.
21. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North* 332,
22. Cf. Ranke's *Popes*, II. 353.
23. Bain, 358-61.
24. Ranke, II, 359; Bain, 180.
25. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
26. Gustafson in Bain, xvi.
27. Bain, 360.
28. Ogg, 446.
29. Bain, 224.
30. *Ibid.*, 229.
31. Lewinski - Corwin, *Political History of Poland*, 216-18; *Cambridge History of Poland*, I, 566.
32. Lednicki, W, *Life and Culture of Poland*, 125-6
33. *Ibid.*, 94.
34. *Camb. History of Poland*, I, 413; Robertson, J. M., *History of Freethought*, I, 426.
35. Lednicki, 102n.
36. Robertson, *Freethought*, II, 37
- 37 *Camb History of Poland*, I, 403-5, 410-11
38. Rnake, II, 161
39. Pokrovsky, M., *History of Russia* 154.
40. Florinsky, M., *Russia: a History and an Interpretation*, I, 213,
41. Kluchevsky, V., *History of Russia*, II, ch. xiii; III, 21; Florinsky, I, 217
- 42 Vernadsky, G, *History of Russia*, 65
43. Réau, L, *L' Art russe*, I, 285.
44. Ranke, II, 155.
45. Florinsky, I, 226.
46. E.g., Pokrovsky, 169-70.
47. *Ibid.*, 177; Kluchevsky. III, 20; Florinsky, I, 223.
48. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 320.
49. *Camb. Mod. History*, V, 496.

50. Florinsky, I, 227; Pokrovsky 182.
51. Kluchevsky, III, 31.
52. Rambaud, I, 341

CHAPTER XX

1. Tavernier, *Six Voyages*, ii, 7.
2. Brockelmann, C., *History of the Islamic Peoples*, 316.
3. Pepys, *Diary*, Nov 9, 1663.
4. Arnold, T., *The Preaching of Islam*, in Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 165.
5. Finlay, G, *History of Greece*, V, 29, in Toynbee, *ibid* , 164.
6. Tavernier, I, i,
7. Michelet, *History de France*, IV, 444.
8. Brantôme *Lives of Gallant Ladies*, 135; Landau, R., *Invitation to Morocco*, 64.
9. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
10. *Ibid.*, 236.
11. Dimand, M. S., *Guide to Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 4.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 93-5
13. Pastor, *Popes*, XVIII, 419.
14. Voltaire, *Essai sur les mœurs*, ch. cxxxi, in *Works*, XIBb, 270.
15. Preface to Part II of *Don Quixote*.
16. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, II, 338.
17. Pastor, XVIII, 422
18. *Ibid.*, 427.
19. 436.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 218.
21. *En. Br.*, XV, 969a.
22. Teixeira, p., *Travels*, 62-6.
23. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, II, 1406.
24. Tavernier, *Six Voyages*, IV, 5.
25. *Ibid.*
26. Michelet, *Histoire de France*, V, 130.
27. *En. Br.*, XII, 705. The account follows the eloquent description in Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*, II, 1185, and the notes of my visit to Isfahan in 1948.
28. Tavernier, v, 2.
29. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, IV, 111.
30. Chardin, John, *Travels in Persia*, 134-6.
31. *Ibid.*, 183, 167.
32. Teixeira, 114, 117.
33. Chardin, 143.
34. *Ibid.*
35. 146.
36. 279.
37. Tavernier, v, 14.

38. Arnold, Thomas, *Painting in Islam*, 89.
39. Chardin, 120.
40. Teixeira, 62.
41. Chardin, 187; Tavernier, v, 14.
42. Chardin, 191. 189.
43. Browne, E. G., *Literary History*, IV. 247.
44. Ibid., 287.
45. *En Br.*, XII, 705b
46. Sir Bernard Eckstein Collection.
47. Boston
48. Pope, *Survey*, I. 7n
49. Gulbenkian Collection. Pope, *Survey*, V, 978
50. Boston.
51. Pope, *Survey*, V, 549
52. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 162.
53. Chardin, *Travels*, 273
54. New York.
55. In Pope, *Catalogue*, 17
56. Pope, *Introduction*, 220.
7. Janssen, *History of the German People*, VIII, 297-9.
8. Robertson, J.M., *Freethought*, I, 420.
9. Campbell, *The Jesuits*, 69.
10. Lutzow, Count von. *Bohemia*, 217.
11. Acton, *Lectures*, 182.
12. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 136.
13. Janssen, XV, 32, 44
14. Ibid, 29-31.
15. Thompson, J W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 429; Rickard *Man and Metals*, II. 565.
16. Janssen, 148.
17. Ibid., 110.
18. 125
19. Marx Karl, *Capital*, I, 467.
20. Janssen, XIII, 147
21. Ibid., 307.
22. 301.
23. 300.
24. Id., XII, 183.
25. X, 279.
26. XII, 96.
27. XI, 363
28. Pastor in Janssen, XVI, 130.
29. Janssen, X, 277-8.
30. Wedgwood, *Thirty Years War*, 46.
31. Janssen. XV, 421

CHAPYER XXI

1. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 29
2. Ibid., 67-72.
3. 130.
4. 94.
5. *Camb. Mod History*, III, 719.
6. Tawney. R. H., *Religion and*

32. Putnam, G. H., *The Censorship of the Church of Rome*, I, 51.
33. Janssen, X, 11.
34. *Ibid.*, 23, 45.
35. *Id.*, XIII, 363f.
36. XIV, 12-14.
37. Wilenski, *Dutch Painting*, 61.
38. Vienna.
39. *Camb. Mod. History*, III, 153.
40. Schaff, *The German Reformation*, I, 64.
41. Janssen, X, 287f.
42. *Ibid.*, 303-7.
43. 262.
44. 258
45. 257.
46. 256.
47. Inge, W. R., *Christian Mysticism*, 277.
48. *Ibid.*, 278.
49. Fulop-Miller, *Jesuites*, 346.
50. Janssen, X, 214.
51. *Ibid.*, 103, 110.
52. 165.
53. 32.
54. 30
55. 24
56. 334-41.
57. 345,
58. 386-90.
59. 215.
60. 219.
61. 589.
62. 594.
63. Wedgwood, 81.
64. Nosek, V., *Spirit of Bohemia*, 99f.
65. Michelet, IV, 389n.
66. Wedgwood, 171.
67. *Ibid.*, 255.
68. Fletcher, *Gustavus, Adolphus*, 300.
69. Robinson, *Readings*, 345.
70. Fletcher. 283.
71. Guizot, *History*, IV, 160.
72. Wedg Wood, 353.
73. *Ibid.*, 360.
74. 450.
75. 207, 256-7, 410
76. 475.
77. 516; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
78. Lutzow, 311; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
79. *Ibid.*, 417.,
80. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 294.
81. Jordan, G. J., *The Reunion of Churches*, 15.
82. Wedgwood, 412. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 168.
83. Wedgwood, 413.
84. *Ibid.*, 229.
85. *Camb Mod History*, IV, 688

CHAPTER XXII

1. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, VI, 160-5, 221, 239-40,

- 295; IV, 247; Garrison, F., *History of Medicine*, 37.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 18.
3. Smith, P., *History of Modern Culture*, I, 428.
4. Berry, A., *Short History of Astronomy*, 195.
5. Jackson, C., *Old Paris*, 25.
7. Smith, P., *Modern Culture*, I, 427.
7. Janssen, XII, 346.
8. Ibid., 329.
9. Los Angeles Times, July 2, 1958.
10. Janssen, XVI, 372-6, 495; XII, 325, 351
11. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 243-4.
12. Vacandard, E., *The Inquisition*, 199.
13. Singer, Chas., *Studies in the History of Science*, I, 213.
14. Lea, IV, 235,
15. Michelet, IV, 183-6.
16. Janssen. XI, 388.
17. Id., XVI, 398, 478.
18. Lea, *History of the Inquisition of the Middle Ages*, III, 549.
19. Janssen, XVI, 416.
20. *Camb. Mod. History*, V, 758 (not 9,000, as in IV, 423).
21. Janssen, XVI, 512, 424.
22. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 246; cf. Janssen, XVI, 506.
23. Montaigne, *Essays*, III, xi, 285.
24. Ibid , 286.
25. Smith, *Culture*, I, 453.
26. Ibid.. 454; Dampier, *History of Science*, 157.
27. Janssen, XVI, 390.
28. Janssen, XI, 379.
29. Evelyn, *Diary*, I, 139.
30. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 237-69.
31. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 531.
32. Hallam, *Literature*, II, 44,
33. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 855.
34. Putnam, G. H., *Books and Their Makers*; II, 96.
35. Masson, David, *Life of John Milton*, IV, 164.
36. Nosek, *Spirit of Bohemia*, 110.
37. Paulsen, F., *German Education*, 136.
38. Janssen, XIII, 277,
- 39, Galileo, *Discoveries and Opinions*, ed. Stillman Drake, 77.
40. Singer, *Studies*, 407.
41. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 47; Singer, *Studies*, 412f.
42. Bell, E T., *Men of Mathematics*, 55,
43. Butterfield. *Origins of Modern Science*, 67,

44. Galileo, *Il saggiaiore*, in *Discoveries and Opinions*, 237.
45. Cooper, Lane, *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 14; Dampier, 143.
46. Janssen, XV, 281,
47. Wolf, 327.
48. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 440.
49. Wolf, 544-5; Usher, A. P. *History of Mechanical Inventions*, 303.
50. Descartes, *Principia philosophiae* Part IV, in Wolf, 351.
51. *En Br.*, I, 689d.
52. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, Dedication. p. 3
53. Michel, *Rembrandt*, I, 123.
54. Mumford, L., *The Condition of Man*, 213.
55. Janssen, XIV, 69.
56. *Ibid.*, 83,
57. 80.
58. Castiglioni, *History of Medicine*, 561.
59. Garrison, 307.
60. Janssen, XIV, 81.
61. Montaigne, *Essays*, tr. E. J. Trechmann, II, 222, quoted in Craig, Hardin, *The Enchanted Glass*, 44.
62. Garrison, 291-2.
63. *Ibid.*, 226.
64. Descartes, *Discours de la méthode*, Part VI, p. 62, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 18.
65. Montaigne, *Essays*, III,x, 262.
66. Putnam, *Censorship*, I, 128-9; Belloc, H., *How the Reformation Happened*, 281; Fülöp-Miller, *Jesuits*, 399; Smith, P., *Culture*, I, 43,
67. Camqanclla, Letter to Galileo, Jan. 12, 1611, in Smith, *Culture* I, 45.
68. Buckle, I, 101, Thorndike, VI, 42.
69. Gade, *Tycho Brahe*, 35.
70. *Ibid.*, 187.
71. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 346.
72. Whewell, *History of the Inductive Sciences*, I. 290-3.
73. Hogben, *Science of the Citizen*, 207; Kesten, 353.
74. Dampier, 139.
75. Berry, 194.
76. In Inge, *Christian Mysticism*, 298.
77. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, 105 (end of First Day).
78. Aristotle *De coelo*, 4.2. 309, in Cooper, L., *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 64.
79. Lucretius, *De rerum natura*, II, 230-1.
80. Leonardo da Vinci, *Codex*

- Atlanticus*, fol. 123ra, in Cooper, 69.
81. In Cooper, 47.
82. Viviani in Cooper, 26.
83. *Ibid.*, 29-31.
84. Galileo, *Two Chief World Systems*, 147.
85. Galileo, *Dialogues concerning Two New Sciences*, 103.
86. Galileo, *Il saggiaiore*, in *Discoveries and Opinions*, 274.
87. *Ibid.*, 276-7.
88. Kesten, 348.
89. In Singer, *Studies*, 228.
90. Letter of Jan. 30, 1610, in Singer, 232.
91. Walsh, J. J. *The Popes and Science*, 393; Wolf, 29.
92. In Singer, 251.
93. Kesten, 396.
94. In Smith, *Culture*, I, 53.
95. Singer, 240.
96. Fulop-Miller, *Jesuits*, 397.
97. Singer, 240.
98. Fulop-Miller, 398.
99. *Ibid.*
100. *Ibid.*
101. Kesten, 371.
102. Galileo, *Discoveries and Opinions*, 177.
103. *Ibid.*, 180.
104. 183.
105. Drake in Galileo, *Discoveries and Opinions*, 217.
106. Singer, 252.
107. Kesten, 375.
108. Wolf, 36.
109. Kesten, 379; Singer, 258.
110. Galileo, *Two Chief World Systems*, 5.
111. *Ibid.*, 460.
112. Kesten, 388.
113. Singer, 269.
114. *En. Br.*, IX, 98ob.
115. *Ibid.*, Wolf, 37.
116. Viviani in Singer, 279.
117. Kesten, 93.
118. *Ibid.*, 395.

CHAPTER XXIII

1. Janssen, XVI, 132-4.
2. Robertson, *Freethought*, 483.
3. *Ibid.*, 484.
4. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 203.
5. *Ibid.*, 201.
6. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 676.
7. *Ibid.*, 578-9.
8. *Ibid.*
9. 584.
10. 580.
11. Charron, Pierre, *Of Wisdom*, I, 61, 74, 79-80.
12. Owen, 598.
13. Cf. Charron, in Pascal, *Pensées*, ed. Havet, introd. xii.
14. Bury, *Freedom of Thought*, 75.
15. Owen, 570.
16. Singer, D. W., *Giordano Bruno*, 22.

17. Ibid., 24.
18. Owen, 274.
19. Bruno, *La cena de le ceneti*, Dialogue IV, in Singer, D. W., 33
20. In Owen, 274
21. Singer, *Bruno*, 137.
22. Ibid, 35.
23. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 53-4.
24. Owen, 125.
25. Singer, *Bruno*, 146.
26. In Owen, 294.
27. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 41.
28. Bruno, Dedication to *De la causa, principio et uno*, in Singer, *Bruno*, 103.
29. Thorndike, *Magic and Experimental Science*, IV. 425-7.
30. Owen, 290-3,
31. Singer *Bruno*, 161.
32. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 62.
33. Kesten, 323.
34. Singer, *Bruno*, 166.
35. Ibid., 172.
36. 179.
37. Owen, 390.
38. Ibid., 399.
39. 400.
40. Symonds, 128; Kesten, 328.
41. Tr. J. A. Symonds in Van Doren, *Anthology*, 599.
42. Campanella *City of the Sun*, in *Ideal Commonwealths*, 147.
- 43 Ibid, 157.
- 44 164.
- 45 168
- 46 Murray, R. H., *Erasmus and Luther*, 443.
47. Ranke, *Popes*, II, 13.
- 48 Carlyle, R. W., *Medieval Political Theory*, VI, 341.
49. Campbell, *The Jesuits*, 379.
50. Mariana, *The King and The Education of the King*, i, 2.
51. Ibid., i, 10.
52. Ibid, Preface, p. 108.
53. Ibid, iii, 15.
54. In Laski, *Political Thought in England, Locke to Benham*, 85.
55. Mariana, *The King*, i, 1.
56. Ibid., iii, 2.
57. i, 6, pp. 144-9.
58. Ibid.
59. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, 11.
60. Allen, *Political Thought*, 395.
- 61 Bodin, *De republica*, i, 4, in Allen, 408-9.
62. Ibid., 410.
63. Bodin, *De republica*, i, 6.
64. Ibid., i, 9.
65. Ibid., vi, 4, in Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 107.
66. Ibid., in Allen, *Political Thought*, 436.

67. In Allen, 406.
68. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, in Allen, 399.
69. Allen, 400-1.
70. Blok, III, 463
71. Grotius, *Prolegomena*, in Dunning, 161.
72. Grotius, *Rights of War and Peace*, I, i, 10. p. 21.
73. *Ibid.*, I, ii, 1,
74. II, xxii,
75. I, xvii,
76. II, xxvi.
77. Lange, F. E., *History of Materialism*, I, 266,
78. France, A., *Elm Tree on the Mall*, 13,
79. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 558,
80. Fischer, K., *Descartes*, 194f.
81. *Discours*, Part III, in Descartes, *Selections*, 27.
82. *Ibid.*, p. 38,
83. Faguet, *Dix-septième siècle*, 6-7.
84. Descartes, *Principia philosophiae*, I, 71, in *Meditations and Principles of Philosophy*, 168
85. *Discours*, Part II, in *Selections*, 12.
86. Descartes, *Meditations*, II, in *Selections*, 96,
87. *Discours*, Part IV, and *Meditations*, II, in *Selections*, 29, 99,
88. St. Augustine, *De Trinitate*, x, 10,
89. *Meditations*, II, in *Selections*, 106.
90. "Rules for the Direction of Mind," VIII, in *Selections*, 69.
91. *Meditations*, III, in *Selections*, 125.
92. *Ibid.*, 154.
93. *Ibid.*, 89.
94. *Principia philosophiae*, I, xxxix.
95. *Meditations*, IV, in *Selections*, 127.
96. *Discours*, IV, in *Selection* 30.
97. *En. Br.*, VII, 249d.
98. *Ibid.*
99. Lévy-Bruhl. *History of Modern Philosophy in France*, 29.
100. *Discours*, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 16,
101. Fischer, *Descartes*, 406.
102. In Smith, *Culture*, I, 194.
103. Smith, D. E., ed., *Isaac Newton*, 18.
104. Fischer, 229.
105. Garrison, *History of Medicine*, 258.
106. *Selections*, 222-47.
107. Aubrey, *Brief Lives*, 95.
108. Fischer, 231.
109. Fülöp-Miller, *Jesuits*, 124.
110. Fontenelle, *Digression sur les anciens et les modernes*, in Fellows and Torrey, *Age of the Enlightenment*, 57.
111. Lévy-Bruhl, 33.
112. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 205 and *passim*.